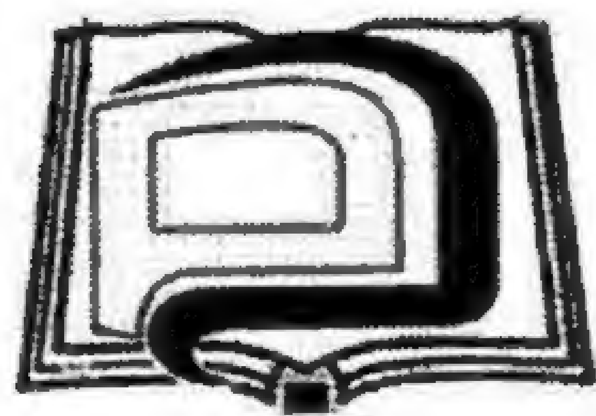
عبد القادر خليفي

المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة


ديوان المطبوعات الجامعية

عبـــد القادر خليـــفي

المقاومة الشعـــبية للشـــيـــخ بوعمامـــة



ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر: 4.07.5127
رقم ر.د.م.ك(ISBN): 978.9961.0.1366.3
رقم الإيداع القانوني: 2010/2158

بسم الله الرحمن الرحيم

*من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه ،فمنهم من قضى نحبه و منهم من
ينتظر ،و ما بدلوا تبديلا*

سورة الأحزاب :23

مقدمة الطبعة الأولى

غابت الدولة الجزائرية عن القيام بدورها كعضو فعال في المجتمع الدولي طيلة قرن وربع قرن من الزمن ابتداء من سنة 1830، كانت الجزائر تعتبر فيه جزءا من الأراضي الفرنسية التي يفصلها عنها بحر عالمي مثلما يفصل أي حد طبيعي دولة عن غيرها، عكس ما حاول الفرنسيون ترسيخه في الأذهان من أن البحر المتوسط يقسم فرنسا كما يقسم نهر السين مدينة باريس.

لقد رفض الشعب الجزائري السيطرة الفرنسية وحارب تلك التبعية التي حاول الفرنسيون إرغامه عليها، وقد اتضح ذلك من خلال المقاومات المسلحة والانتفاضات المتعددة التي ناهضت الاستعمار عقودا طويلة، مما يبين تلك الهوة التي تفصل بين شعبين وحضارتين مختلفتي المصادر والخصائص.

ومقاومة الشيخ "بوعمامة" التي اندلعت سنة 1881 انطلاقا من المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، هي إحدى تلك المقاومات الشعبية المسلحة التي كانت صدمة للفرنسيين الذين ظنوا أن عهد المقاومات قد ولّى، وبخاصة بعد السبعينيات من القرن التاسع عشر.

كان قائد مقاومة 1881 رجلا صوفيا مجاهدا، وكانت قيادته للمقاومة مستوحاة من إيمانه الكبير بالله ومن خبرته العسكرية التي فرضتها عليه الظروف؛ فجاهد النفسَ في صوفيته، كما جاهد الاستعمار في حربه التي أعلنها دفاعاً عن الوطن والدين، إلى أن لقي ربه وهو في منفاه الاضطراري بالمغرب الأقصى سنة 1908.

لقد وقع اختيارنا على موضوع هذا الكتاب لما لشخصية الشيخ بوعمامة من أهمية في تاريخ الجزائر، التي تزعمت مقاومةً شعبية قامت للدفاع عن الهوية الأصيلة للشعب الجزائري.

*ودراسة هذه المقاومة هو إبراز لبطولة الشعب الجزائري الذي لم يرض بالاحتلال الأجنبي، فلم يستكن و لم يسترح يوماً إلا ليعد العدة للنهوض من جديد –دفاعا عن مقوماته- مستمداً ذلك من تقاليد شعب مارس الفروسية أبا عن جد، وعاش عيشة البدوي الذي يهوى ركوب الخيل وإطلاق البارود وسباق المسافات والمباريات بين الأقران.

*كما أن هذه الدراسة تبرز لنا مساهمة الطرق الصوفية في الجزائر في قيادة الجماهير الشعبية في جهاد الغزاة أعداء الوطن والدين. وبذلك تمسك رجال الصوفية بأحد مقومات طرقهم الصوفية وهو المرابطة وهو يعني الجهاد في سبيل الله، باعتبار الشيخ بوعمامة زعيما للطريقة الشيخية التي يعود تأسيسها إلى عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة، المعروف بـــ "سيد الشيخ" أحد أسلافه المتوفى سنة 1616م.

إن البحث في مجال مثل هذه الشخصيات الوطنية والدينية ينبغي أن يقوم على استقراء طويل للمصادر الشفوية والنصوص المكتوبة في آن واحد، فالإعتماد على المرويات بألفاظها تدليل على النتائج المستخلصة منها، إذ أن النص الشفوي أو المكتوب في البحث الأدبي والتاريخي يحل محل التجربة في البحث العلمي.

وقد اعتمدنا في عملنا هذا على المصادر والمراجع المتوفرة في الجزائر سواء كان ذلك عن طريق المكتبات العامة أو الخاصة. كما حصلنا على بعضها نتيجة اتصالات شخصية وبخاصة ما طبع منها بفرنسا، هذه الأخيرة التي تحوي ثروة هامة في هذا المجال، وبخاصة من المصادر التي حُوِّلت إلى هناك في الفترة الاستعمارية والتي لم يتسن لنا الوصول إليها لظروف قاهرة.

وقد زرنا أغلب المناطق التي دارت فيها أحداث المقاومة، والتي شارك سكانها –آنذاك- الشيخَ بوعمامة في مقاومته، أو هاجروا معه إلى الجنوب

الجزائري أو إلى المغرب، في كل من ولاية النعامة والبيض وبشار وأدرار في الجزائر، ووجدة وفاس بالمغرب الأقصى.

واستمعنا إلى روايات شفوية عن تلك المقاومة من رواة مهرة يحملون تراثا غنيا ويتميزون بذاكرة قوية وبراعة في الإلقاء، شارك أسلافهم فيها (آباء أو أجدادا)، ونقلوا إليهم تلك الأحداث التي استمر تداولها بين الخلف إلى يومنا هذا (2001).

كما اطلعنا على بعض المطبوعات التي كتبتها فرق من معلمي منطقة عين الصفراء والبيض بمناسبة الذكرى المائوية لانتفاضة 1881 والتي أحيتها السلطات المحلية في المنطقتين، وأقيمت أثناءها مهرجانات للفروسية وأمسيات شعرية، وكَتبت عنها الصحافة الوطنية آنذاك. ومن أشهر من زارتهم هذه الفرق، أحدَ "خُدام" الشيخ، والمدعو "فراجي" المستقر آنذاك ببلدة فندي بنواحي بني ونيف، والذي كان يبلغ من العمر 117 سنة، وقد توفي بعد ذلك في سنة 1983، لذلك لم نتمكن من لقائه.

وراسلنا شيخ الزاوية الشيخية ببلدة عين بني مطهر (بركنت سابقا) بالمغرب الأقصى، حيث كان سيد الطيب بن الشيخ بوعمامة –خليفة والده على الطريقة– قد استقر بعد وفاة والده. وقد أمدنا شيخ الزاوية سي حمزة بن عبد الحاكم بمخطوطة عن "ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة" لنجله بوعمامة بلحُرمة، الذي قدمها كمذكرة تخرج في شهادة الليسانس بجامعة وجدة. وقد قابلْنا الشيخ نفسه بعد ذلك (في ماي 1999) خلال زيارتنا للمغرب الأقصى، فأمدنا برواية شفوية هامة.

أما عن مضمون الكتاب هذا فقد قسّمناه بعد المقدمة إلى فصلين:

الفصل الأول وسنعالج فيه الأوضاع العامة في الجزائر قبل سنة 1881، حيث كانت البلاد تعيش وضعا مأساويا، فهناك غزو وإرهاب ومطاردة من قبل

الفرنسيين للجزائريين، إلى جانب غلق المدارس التي تُعلم العربية والقرآن الكريم وتعويضها بمدارس للغة الفرنسية، ومحاولات التنصير بإقامة مؤسسات دينية لنشر المسيحية، تحميها السلطات الاستعمارية. وهناك مقاومة شعبية في كل منطقة يحل بها الاستعمار الفرنسي. فما تكاد تهدأ المقاومة في مكان حتّى تقوم في غيره معبرة عن رفض الشعب الخضوع للاستعمار الفرنسي.

وسنتعرض في الفصل الثاني للمقاومة الشعبية المسلحة التي أعلنها الشيخ بوعمامة سنة 1881، وصدامها مع القوات الفرنسية في مرحلة القوة سنتي1881 و 1882، ثم التجاء الشيخ إلى الجنوب في منطقة دلدول بقورارة، حيث تميزت هذه الفترة بتعدد اتصالات الشيخ بقبائل الجنوب الجزائرية والمغربية، وبمراسلاته للسلطات الفرنسية والمغربية وبعض الأعيان. وتتبعنا مقاومة الشيخ إلى أن انتقل إلى المغرب الأقصى، حيث ساند ثورة "الروقي/ بوحمارة" ضد سلطان المغرب المتعاون مع الأجانب، وقد أشرنا إلى عدم همود المقاومة بعد هجرة الشيخ، بل كانت الهجمات والغارات والكمائن متكررة ومستمرة على القوات الفرنسية المستقرة في الجزائر وأعوانها من الأفراد والجماعات.

والله ولي التوفيق.

مقدمة الطبعة الثانية

كنا قد نشرنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب في نهاية سنة 2004 عن دار الغرب للنشر والتوزيع المتواجدة بوهران، وقد نفذت النسخ المطبوعة من الكتاب في وقت قياسي، لذلك ارتأينا أن نعيد طبع الكتاب لما للشخصيات الجزائرية عامة من دور في التعريف بتاريخ الجزائر، وبخاصة في العصر الحديث والمعاصر. ولتلهف الناس على معرفة تاريخ بعض الشخصيات الفاعلة في التاريخ الجزائري.

وقد حاولنا إدخال بعض التعديلات البسيطة التي كان البعض قد لاحظها في الطبعة الأولى.

وتتمثل الهفوات السابقة والتعديلات الحالية فيما يلي:

1- جاءت الهوامش مضطربة ومختلفة الترقيم في الطبعة الأولى، والتي يعود سببها إلى استعمال أسلوبين في ترقيم الهوامش: الأسلوب العادي والأسلوب الأتوماتيكي. لقد حاولنا، مع عدد هام من اختصاصي الإعلام الآلي، القضاء على تلك الأخطاء أو التخفيف منها دون نتيجة، وعندما تعذر علينا الأمر قررنا طبع الكتاب كما هو بأخطائه، لذلك فإن القاريء العادي وجد صعوبة في العودة إلى المصادر والمراجع المشار إليها في الهوامش، والتي لا يتأتى فهمها إلا لعدد قليل من الأساتذة والباحثين المختصين. وهكذا تلافينا تلك الأخطاء في هذه الطبعة باستعمال الأسلوب الأتوماتيكي في ترقيم الهوامش كلها.

2-لم نشر في الطبعة الأولى إلى الكتابات الإسبانية، رغم أن إسبانيا دخلت حركة الشيخ بوعمامة سياسيا، بعد أن تعرضت جاليتها للقتل والأسر من قبل رجال بوعمامة، عندما أغار هؤلاء على ورشات الَحلْفاء ببلدة خلف الله سنة 1881 والتي كانت تعمل بها جالية إسبانية، تلك الورشات التي أقيمت على أراضي جزائرية واستغلت فيها موارد جزائرية لصالح قوى أجنبية. لذلك تعرضنا

في هذه الطبعة للموقف الإسباني الرسمي ولتطور الوضع بين الدولتين الفرنسية والإسبانية على إثر هذا الحادث الذي عَكّر صَفْوَ العلاقات بين البلدين مدة من الزمن، بالإستفادة من مرجعين هما:

-كتاب خوان فيلار: "الإسبان في الجزائر الفرنسية 1830-1962" باللغة الإسبانية.

-Juan BTA . Vilar, Los espagnoles en la Argelia Francesa (1830-1962), Centro de estudios historicos – Universidad de Murcia 1989.

-وكتاب جان جاك جوردي: الإسبان في القطاع الوهراني-تاريخ هجرة 1830-1962". وهو باللغة الفرنسية.

-Jean-Jacques jordi, Espagnol en oranie –histoire d'une migration 1830-1962- éditions jacques gandini, NICE 1999.

3-حاولنا إضافة بعض المعلومات التاريخية هنا وهناك إثراء لبعض عناصر الموضوع.

4- أضفنا فهارس للاعلام والأماكن والقبائل.

الفصل الأوّل:

الأوضاع العامة في الجزائر قبل عام 1881

أولا: سياسة الشدة والقوانين الجائرة.

ثانيا: السياسة الدينية والتعليمية الفرنسية في الجزائر.

ثالثا: المقـــاومـــات الشـــعبيـــــة.

تميزت الفترة السابقة لمقاومة 1881 بعدة ميزات كانت كلها في غير صالح الجماهير الجزائرية صاحبة الأرض والبلاد. فقد كانت فترة توسع استعماري أدى إلى نشر الدمار والقتل وسلب ممتلكات الناس، الذين اضطرهم الظروف الجديدة إلى الفرار بعيدا نحو الأراضي الجبلية والفقيرة مما كان له أثر سيء على حياهم، فتدنى مستوى معيشتهم وانتشرت الأمراض الفتاكة بينهم، وزاد من تلك الأوضاع الأليمة ما أصاب البلاد من قحط وجفاف، فاستغل المبشرون الفرنسيون المصاحبون لعملية الغزو ذلك للدخول بين السكان تحت ستار المساعدة بهدف نشر الدين المسيحي بينهم، ولكن الجزائريين لم يضعفوا ولم يستكينوا بل انتظموا، بعد استسلام الداي وحكومته العثمانية، في مقاومات شعبية عنيفة، فحملوا السلاح وقاوموا سياسة البطش والقوة وصمدوا أمام محاولات المسخ والتنصير.

وهكذا تم تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

أولا: سياسة الشدة والقوانين الجائرة.

ثانيا: السياسة الدينية والتعليمية الفرنسية في الجزائر.

ثالثا: المقاومات الشعبية.

أولا: سياسة الشدة والقوانين الجائرة

بعد أن استقر رأي السلطات الفرنسية على البقاء في الجزائر ومواصلة الإحتلال، عمل ضباطها على اتباع مختلف السبل لإخضاع البلاد، منها استعمال العنف للقضاء على المقاومة حينا، واستعمال المخادعة والمداراة حينا آخر، كما شرع الفرنسيون في إنشاء عدة معاقل وثكنات وحصون عسكرية هنا وهناك تكملة لعملية استقرارهم.

أ–سياسة فرق تسد

لقد عمل الفرنسيون، منذ دخولهم أرض الجزائر، على التقرب من بعض ذوي النفوس الضعيفة والضمائر الميتة لاستمالتهم وضمهم إلى جانبهم. وهكذا وجدت السلطات الفرنسية أعوانا لها من بين أفراد الشعب الجزائري كبعض رؤساء القبائل وبعض زعماء الطرق الصوفية وبعض الشخصيات البارزة، حيث تمّ اختيارهم بناء على شعبيتهم بين المواطنين، فكانوا لها نعم المعين على ذويهم وبني جلدتهم. لكن سرعان ما فقد هؤلاء ثقة مواطنيهم، وأصبح السكان لا يخضعون لهم إلاّ نفاقا ومداراة، وكثيرا ما كانت نهايتهم على أيدي مواطنيهم بطريقة أو بأخرى.

ولكي توفر سلطات الاحتلال الدم الفرنسي وتخوض الحرب بمقاتلين جزائريين يعرفون طبيعة البلاد ويقاتلون قومهم بدون أن تتكفل هي سوى بنفقات مالية زهيدة، عملت على تشكيل قوات من الفرسان مثل الصبايحية (السبايس) سنة 1834.[1] كما جندت أفرادا من قبائل زواوة في فرق عرفت بـ "الزواف" Zouaves، وكونت فرقا أخرى من المرتزقة المغامرين من كل

---

1 مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983. ويقول جوليان إن سنة النشأة هي 1842.

الجنسيات، وأطلقت عليهم اسم اللفيف الأجنبي (لاليجو).[2] وهناك فرق تدعى: قناصة إفريقيا Chasseurs d'Afrique وهي عبارة عن جيش من الفرسان أنشئ للمطاردة والغارات على الذين سموهم "بالمتمردين".

وقد قامت الإدارة الاستعمارية في الإتجاه نفسه، باتباع سياسة فرّق تسُد بين الأفراد والجماعات وزرع الشقاق بين الإخوة وأبناء العمومة. وفي هذا المجال يقول الجنرال دي بورمون قائد الحملة الفرنسية سنة 1830 مايلي: "إنّ مثل هذا العمل هو الذي يعجل لنا التسرب إلى الداخل، ويمكّننا من تشتيت صفوفهم شيئا فشيئا حتّى ينفجر بينهم الشقاق".[3]

واستغلت الإدارة الاستعمارية الخصوصيات الجهوية لكل منطقة، فعملت على تعميق تلك الخصوصيات وتوسيع الخصومات الباقية بين العرب والبربر، والتي محاها التاريخ عن طريق المزج الذي وقع خلال قرون عديدة، كما تم القضاء على العنصريات المحلية وعلى كل بحث عن الأصول العرقية.

وهكذا شجعت الإدارة الاستعمارية اللهجات المحلية والقوانين العرفية ببعض المناطق منعا لتطبيق الشريعة الإسلامية واللغة العربية، ووقف إلى جانبها رجال فضلوا مصالحهم الآنية على مصلحة أوطانهم. أمّا الأشراف ووجهاء القبائل الذين رفضوا خدمة قوات الإحتلال وإدارتها فقد تعرضوا للإذلال والتحقير قصد إضعاف تأثيرهم على جماهير الشعب. وعملت سلطات الإحتلال على تفريق كلمة الثائرين علّها تشغلهم عن المقاومات، هذا ما حدث في مقاومات أولاد سيد الشيخ.

---

2 هي فرق عسكرية La légion etrangère تتكون، كما يقول سعد الله، "من نفايات الأمم، تشترك في القتل والنهب والإعتداء"، في كتابه: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992، ص:62، ويشير إلى سنة نشأتها بـــ 1833.

3 عبد الله شريط ومحمد الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 206.

لقد حاول الفرنسيون تدمير البنى الاجتماعية للسكان والقضاء على كل عوامل الوحدة والجماعة. يقول: "أ. برنارد" و: "ن. لاكروا" في كتابهما "تطور البداوة في الجزائر" ما يلي: "دمرنا القوى التي كان بوسعها الصمود في وجهنا، ولكننا دمرنا في الوقت نفسه القوى التي كنا نستطيع الاستناد عليها". ويقول "كامبون M.J. Cambon" ما يلي: "بالنسبة للزعماء، استبدلنا الوجيه القوي الذي تتبعه كل القبيلة من أدنى إشارة منه بعميل عادي تنفيذي ما نزال إلى اليوم نعيّنه باسم الزعيم المحلي، ولكنّه لا يتحلى بأي شيء من صفات الزعيم السابق".[4]

وعندما أصبح للجزائر وزير مقيم في باريس (وزارة الجزائر والمستعمرات سنة 1858)، صرح هذا الأخير بما يلي: "نحن أمام قومية مسلحة صلبة يجب إخمادها بالدمج". وهو يسعى من وراء ذلك إلى تفكيك الشعب الجزائري، وكان ينوي إزالة الأرستقراطية وإضعاف سلك القياد وتفكيك القبيلة، مثل قطع الصلات القائمة بين الملاك والخماسين مما أدى بهؤلاء إلى العمل عند المستوطنين وترك أولياء نعمتهم.[5]

ب- دور المكاتب العربية

وفي إطار التحايل والمخادعة، ارتأت السلطات الفرنسية أن تتقرب من السكان أكثر لكسب ثقتهم، فأنشأت ما سمته بـ "المكاتب العربية" تحت إشراف ضباط فرنسيين متخصصين في الشؤون العربية، لإقامة علاقات وثيقة بين الإدارة الفرنسية والسكان الجزائريين (الأهالي). ففي شهر فيفري من عام 1844 صدر أمر ملكي ينص على إنشاء وظيفة مدير للشؤون العربية في كل منطقة وناحية، لإدارة شؤون السكان الجزائريين، وجمع الضرائب والغرامات

4عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، 1983، ص: 129 و130.

5شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص: 56.

بمساعدة الأغوات والقياد وشيوخ القبائل الجزائرية وتحت سلطة ضباط عسكريين.

ويعرف لنا "دوماس" المكتب العربي بأنّه: "المؤسسة التي يتمثل موضوعها في ضمان التهدئة، تهدئة القبائل بصفة دائمة، وكذلك تهيئة السبل لاستيطاننا ولتجارتنا عن طريق استتباب الأمن العام، وحماية كل المصالح الشرعية، وزيادة الرخاء لدى الأهالي. وعلى عمال هذه المؤسسة أن يميلوا أكثر فأكثر إلى البحث عن الحل السلمي لكل المشاكل التي كانت تتطلب في أحيان كثيرة استعمال القوة، والعمل للتغلب على جميع العراقيل التي يواجهنا بها مجتمع في غاية الاختلاف عن مجتمعنا بعادته ودينه. وعن طريق دراسة البلاد، وتقييم جميع المصالح التي تحرك السكان العرب، سيتوصلون إلى اختيار الاستعمال الأكثر فائدة والأكثر مناسبة للقوة العسكرية في حالة الانتفاضة، وسيعدّون لقمع أية انتفاضة بالوسائل الأكثر سرعة وبأقل كلفة. وعليهم أخيرا إجهاد أنفسهم لحمل الأهالي على قبول كل من سيطرتنا، والعناصر الحكومية التي يتوجب عليها تمكينها بأقل ما يمكن من الكراهية".[6]

من هذا النص المفصل نستطيع معرفة الأعمال الحقيقية التي يقوم بها أفراد المكتب العربي في خدمة المحتل، وليس للمواطن الجزائري (الأهلي) منه سوى التسمية. فالمكتب العربي في حقيقته همزة وصل بين الجنس الأوروبي الذي استقر في الجزائر منذ عام 1830، وبين الأهلي الذي سكن البلاد منذ زمن طويل، ولصالح الأوّل على حساب الثاني منهما.

فالعامل في المكاتب العربية مطالب بالإتصال بالأهالي ومعرفة كيفية معاملتهم والتأثير فيهم والإطلاع على خباياهم المحرجة لمركزهم واستغلال ذلك

6عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1900، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص:169.

في أوانه لتخويفهم والإيقاع بهم، ولتوجيههم حسب مشيئة المحتلين للبوح باعترافات غريبة تلقي أضواء كاشفة على الأشياء الغامضة.[7]

ورغم أهمية المكاتب العربية لصالح سلطة الإحتلال ودورها في التحكم في الأهالي، فإنّ المستوطنين رأوا فيها عاملا يحد من سيطرتهم على البلاد، ويدعم السلطة العسكرية التي كانوا يرفضون تحكمها فيهم، فعارضوا وجودها وعملوا المستحيل لإبعاد السلطة العسكرية، والقضاء على أجهزتها الإدارية المختلفة. وقد وفقوا إلى ذلك في أحيان كثيرة.[8]

ج-سياسة الإخضاع

أما سياسة العنف فكانت مصاحبة للفرنسيين حيثما حلوا، فقد كان دخولهم إلى أية منطقة من مناطق الجزائر معناه دخول التقتيل والتشريد والقهر، ومعناه المذلة والتقهقر الاقتصادي والاجتماعي. "لقد عاشت الجزائر بوصفها مستعمرَة تحت سيطرة بوليسية وعسكرية لم يسبق لها نظير في أية مستعمرة أخرى".[9]

وقد جاءت الأدلة والشواهد من الفرنسيين أنفسهم من خلال التقارير والرسائل التي كان يعدها ويبعثها الجنود والضباط إلى رؤسائهم وذويهم حول عمليات القمع والإبادة. من ذلك ما قامت به القوات الفرنسية ذات يوم من أيام شهر أفريل من سنة 1832 بهجومها المفاجئ ليلا على إحدى قرى غربي العاصمة والمسماة بالعوفية، وارتكبت ضدّ سكانها العزّل النائمين مجزرة رهيبة، يرويها قائد الحملة نفسه، الجنرال روفيغو في كتابه "الجزائر الفرنسيـــة،"

7انظر: Charles richard, Au gouvernement arabe et de l'institution qui doit l'exercer, Alge: 1848, P/36 et 37.

8كان الصراع على أشده حول من يحكم الجزائر بين المستوطنين والسلطة العسكرية منذ الاحتلال إلى سنة 1870، حين نجح المستوطنون في جعل حكومة الجمهورية تلغي النظام العسكري في التل الجزائري وسلطة المكاتب العربية.

9 فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، ش و ن ت، الجزائر 1980، ص: 67.

فيقول: " وفي العودة كان جنودنا الممتطون ظهور الخيل يحملون الرؤوس البشرية على نصل سيوفهم....، وأما أجزاء الجسم الملطخة بالدماء فقد صُنع منها معرض في شارع باب عزون، وكان الناس يتفرجون على حلي النساء وهي في سواعدهن المقطوعة وآذانهم المبتورة".[10]

ولقد استعمل الجنرال بيجو[11] مختلف أساليب القهر والإبادة ضد كل من يقف في وجه التوسع الاستعماري، وعاقب بأقصى أنواع العقوبات، كتدمير المنازل ومصادرة الأملاك وقتل الأفراد وتشريدهم، مثله في ذلك مثل غيره من القادة والجنود الفرنسيين. وقد برر بيجو تلك الأعمال في رسالة له إلى مسئوليه بالعاصمة باريس، حين قال: "بدون هذه الأساليب لا يمكن التغلب على هذا الشعب العجيب ولا السيطرة عليه".[12] لقد "استخدم هذا الجنرال -الذي كانت حاسته الحادة في مجال الإستراتيجية الحربية تضاف إلى حاسة أشد وأخطر، تتمثل في حدة بصره البسيكولوجية- كل ما لديه من إمكانيات لمحاولة اعتراض مناوشات الأمير وهجوماته المكثفة".[13]

إنّ هذه الأعمال البشعة كانت لها أهداف واضحة هي القضاء على موارد البلاد والاستيلاء على الأرض، مثلما فعل الأمريكيون في المرحلة نفسها للهنود الحمر.[14] وعندما علمت حكومة باريس ونواب شعبها بما كان يحدث في الجزائر من جرائم، أرسلت لجنة برلمانية للتحقيق فيما حدث من صدامات

10عبد الله شريط ومحمد الميلي، ص: 207.

11عُين بيجو حاكما على إقليم وهران في أبريل سنة 1836، ثم أصبح حاكما عاما برتبة ماريشال في أول جانفي 1841.

12 أنظر: Yves lacoste, a. noushi et a. prenant, L'Algérie passé et présent, edition sociale, Paris 1960, P/271.

13بوعلام بسايح، الجزائر: الاحتلال والمقاومة 1830-1954، مجلة الثقافة، العدد 83، سبتمبر-أكتوبر 1984، ص: 46.

14أنظر: Yves la coste et autre, IBID, P/303.

بين الفرنسيين والجزائريين، وذلك عام 1833 عرفت بـــ "اللجنة الإفريقية". وبعد تنقلات واستفسارات أعدت اللجنة تقريرا قدمته إلى السلطات الفرنسية المركزية، ومما جاء فيه: "لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية، وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام، وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون أي تعويض... وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان... وحاكمنا رجالا يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم، لأنّهم كانوا شجعانا لدرجة أنّهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين... " ولكن رغم استنكار اللجنة لأعمال الفرنسيين في الجزائر فإنّها لم تخرج عن القاعدة العامة فأوصت بالإبقاء على احتلال الجزائر كملك لفرنسا.

ويذكر أحد مؤرخي الجزائر البعض من تلك الأعمال الإرهابية التي ارتكبها رجال الاستعمار، نقلا عن قارو، حيث حدث خلال مقاومة بومعزة(1844-1847) أن"ارتكب الضابط الفرنسي بليسي، في جبال الظهرة، حماقة كبيرة ضدّ سكان أولاد رياح الثائرين الذين اعتصموا في المغارات فرارا من الاضطهاد، وكان عددهم حوالي خمسمائة شخص فأشعل النار في فتحات تلك المغارات حتّى ماتوا جميعا بالحرق والاختناق".[15] ومن بين الكتب الفرنسية التي تعترف بجرائم المستعمرين في الجزائر ما ورد في كتاب: الكونت إبريسون: "صيد البشر" الذي يعترف فيه بوجود حرب المتحضرين ضدّ الأقوام التي يعتقد أنّها بدائية وبربرية، والتي تستحق الزوال بفعل التطور الحضاري فيقول: "لقد سالت الدماء بكثرة خلال هذا الصراع... كنا نحارب ضد أمة بكاملها،تحركها عصبية مزدوجة وطنية ودينية، وكانت الحرب تتطلب منـــا

---

15 يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980، ص: 57.

مزجا عنيفا ربما كانت تمليها الضرورة، لكنّها كانت مرفوضة من قبل قانون البشر وشرف أمة كبيرة مثل فرنسا".[16]

وكتب النقيب ويسيّ عام 1841 متحدثا عن الأعمال التي ارتكبت في جنوبي مقاطعة الجزائر في قوله : "إنّ عدد الدواوير التي أحرقت والمحاصيل الزراعية التي أتلفت لا يكاد يصدق، فلم يكن أحدنا يرى على الجانبين من الطابور سوى النيران". أمّا الجنرال كافينياك، قائد طابور الضاية(هو والجنرال رونو قائد طابور سعيدة)، الذي كلفه الجنرال بيجو بالتمكين للسيطرة الفرنسية على الجنوب الوهراني ما بين الحدود المغربية وجبل العمور شرقا، فقد حل بقصر تيوت في 25 أفريل 1847، ثم انتقل إلى مغرار التحتاني فدمر كل البلدة الخالية من السكان، انتقاما للفرسان الخمسة الذين كان قد بعثهم للإعلان عن قدومه، ثمّ أحرق قصر مغرار الفوقاني وخرب الحدائق وقطع 150 نخلة.[17]

ويقول أحد الضباط الفرنسيين عن الأعمال الإرهابية التي قامت بها العساكر الفرنسية ما يلي: "لقد تم ارتكاب قمع شديد وبلا رحمة تحت حكم الجنرال شارون، في منطقة قصور الجنوب الوهراني في أفريل سنة 1849، ثمّ في الزعاطشة في شهر نوفمبر الموالي، وقد تم تدمير كل شيء في هذه الواحة حتّى النخيل وهي الثروة الوحيدة في الواحات، كما تم عرض حيوانات زعماء الأهالي، حسب عادة برابرة البلد، لقد اعتُبر أنّه ليس هناك وسيلة أخرى للتوصل إلى استسلام دائم".[18] ويقول: إنّه لا يجب أن ننسى أن سياسة الأهلي

16مصطفى الأشرف، ثلاث مراحل وثلاث بجرمي حرب، صحيفة الخبر ليوم 7 ماي 1996، نقلا عن مجلة أحداث، الصادرة باللغة الفرنسية.

17انظر: Paul-azan, Conquète et pacification de l'Algérie, Presses de l'imprimerie villain et bar, Paris, P/386.

18 IBID P/497

تعتمد أساسا على استعمال القوة. إنّ العطف والطيبة لا تكفي لاكتساب الأهلي إذا لم تعتمد على التفوق المادي، إذ سيظهر له ذلك ضعف وخوف".[19]

ويقول الجنرال دليني Déligny عما حدث خلال مقاومة 1864 من مجازر بالجنوب الوهراني: "كنا ندوس في طريق عودتنا على جثث قطعان قبيلة الأحرار، تنبعث منها رائحة كريهة، هناك أكثر من مائة ألف دابة تغطي سطح الأرض. لقد جاءت بقايا هذه القبيلة الكبيرة التي كانت تفخر بعدد خيولها الأربعة آلاف وبمواردها الضخمة من شعير وإبل وبأغنامها التسعمائة ألف، جاءت بقاياهم إلى البيض تطلب العفو والسلام".[20]

لقد ركز الفرنسيون على وسائل عيش السكان بالقضاء عليها قتلا وتدميرا وحرقا لإجبارهم على الإستسلام جوعا، يذكر أحد الفرنسيين أنّ الفقر مس العرب بهذه المنطقة (واد الحمام) وذلك منذ مقاومة 1864، وأنّ الفرنسيين أخذوا كل ما وجدوه لتموين بلدة البيض. ويتحدث عن الحيوانات التي اضطر أصحابها إلى تركها، فمات العديد منها في الطريق مثلما مات أصحابها، لأنّهم لم يستطيعوا الثبات بسبب أتعاب التنقل. ويواصل فيذكر أنّ الرجال تركوا نساءهم وأطفالهم بدون إعالة مما أدى إلى موتهم فيما بعد، وأنّ العدد القليل من العرب وحيواناتهم، الذين تمكنوا من الالتحاق بقبائلهم، وجدوا المزروعات قد أتلفها الجراد فسقطوا في أقسى أنواع المآسي.[21]

كما كانت تفرض غرامات باهضة على سكان المناطق المقاومة، غرامات تتجاوز الحد المعقول والمناسب لمستوى معيشة من كان يسميهم الفرنسيون بالأهالي. وكانت الأوامر شديدة لضباط الجيش الفرنسي، كي يقوموا بتحصيل

---

19. IBID P/500.

20 أنظر: Djillali sari, Le désastre démographique, SNED, Alger 1982, P/199.

21 IBID, P202

تلك الغرامات المالية بمختلف الطرق اللاإنسانية؛ فقد جاء في إحـــدى أوامر "ماكماهون" لجنرالاته: "كونوا قساة؛ أي افرضوا عليهم غرامات ثقيلة يتذكروها لعدة سنوات، وإذا لم يستطيعوا دفعها حينا فخذوا منهم رهائن إلى أن يدفعوا كل شيء".[22]

ولم يستثن هذا الضابط أية قبيلة من دفع تلك الغرامات، لقد كانت تفرض على القبائل المقاومة والمحايدة وحتى التي بقيت وفية للفرنسيين في بعض الأحيان، ولم تنج من ذلك سوى القبائل التي كانت متواجدة في مناطق يسيطر عليها الفرنسيون بكل قوة. لقد كان على الجزائريين أن يسددوا غرامات باهضة وفي أقرب الآجال، في الوقت الذي فقدوا فيه كل شيء، فقد خربت ممتلكاتهم المادية وأصبحوا هم في حاجة إلى المساعدة.

"إنّ بعض الجنرالات المشهورين (كلوزيل، دورو شمبو، دوروفيكو...) لم يترددوا في اقتراح إبادة أمة بأكملها مركزين اقتراحاتهم على قلة عـــدد السكان".[23]

ويذكر حمدان خوجة، وهو أحد الأعيان الجزائريين سنة 1830، أنّ عدد سكان الجزائر كان في نقصان متزايد نتيجة الحرب الأليمة ضدّهم. كان حمدان خوجة يبكي بلاده التي لم يستطع إنقاذها وهو يراها تزلزل يوما بعد يوم. "إنّني أتساءل لماذا تزعزع بلادي في جميع أسسها وتصاب في جميع مبادئها الحيوية".[24]

ويشير مصطفى الأشرف أنّ الجزائر فقدت خلال المرحلة الممتدة من سنة 1832 إلى 1962 عشرة ملايين شخص، فهي تصفية عرقية، لقد عملت

22. IBID, P/202.

23حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ش و ن ت، الجزائر 1982، ص: 303.

24المرجع نفسه، ص: 45.

السلطات الفرنسية في الجزائر على تصفية شعب بأكمله والقضاء على ذاته الوطنية ووجوده وقيمه الخاصة به.[25]

ويقول فرحات عباس في كتابه "ليل الاستعمار": "لقد أصبح التمييز العنصري جزء من تفكير الأوروبيين، كما أصبح من طبيعتهم الثابتة، فلم يعد المستوطن يبصر الواقع العربي، الذي كان يفتش عن غذائه بين القمامة".[26] بل فرضت على هذا المواطن "الأجنبي" قوانين خاصة جائرة سميت بـ "قانون الأهالي". فابتداء من سنة 1874 صدرت عدة مراسيم جعلت الجزائريين المسلمين تحت طائلة نظام قضائي قمعي خاص بهم، هي عبارة عن شبكة من العقوبات والمنع، حيث لا يخضعون للقانون العام الذي يخضع لـه الإنسان الذي يتمتع بإنسانيته مواطنا كان أم أجنبيا.[27]

لقد أصبح الرأي السائد منذ سنة 1870 أنّه لا لزوم لاعتبار الجزائريين كالفرنسيين، بل بالعكس فإنّ سياسة الإخضاع هي التي يجب أن تفرض عليهم.

د-السيطرة على الأرض

كان من أهداف السلطات الفرنسية الاستيلاء على أراضي الجزائريين الفلاحية وتسليمها للمعمرين القادمين من مختلف البلدان الأوروبية. إنّ سياسة التوطين هذه قامت "على بذل كل محاولة لجعل الوجود الفرنسي في الجزائر شرعيا بحرمان الجزائريين من أراضيهم وتهجيرهم وإغراقهم بعدد كبير من الأوروبيين".[28] وهكذا أصبح أصحاب الأرض الأصليين أجراء عند المعمرين في أراضيهم السابقة، فهاجر بعضهم نحو الجبال الوعرة وهوامش المناطق الفلاحية

25مصطفى الأشرف، ثلاث مراحل وثلاث بجرمي حرب، مرجع سابق.

26فرحات عباس، الثورة الجزائرية أو ليل الاستعمار، ترجمة وليم خوري، دار الكتب الوطنية، دمشق 1964، ص: 129.

27أنظر: Yves lacoste et autre, P/369.

28فرحات عباس، الثورة الجزائرية، ص: 71.

ونواحي الجنوب فرارا بجلدهم، وأنشأوا هناك زراعاتهم في أراض جديدة بعد أن فقدوا أراضيهم الجيدة، وأصبحوا في أراض فقيرة يتم العمل فيها باستمرار، وهي ذات مردود ضعيف.

وبفقد الجزائريين لأراضي عيشهم التي دافعوا عنها وضحوا من أجلها، فقدوا في الوقت نفسه قاعدة وجودهم، وهي الحياة الجماعية التي ألفوها من عهود سحيقة مستندة على عادات وتقاليد متوارثة. فالأرض بالنسبة للفلاح ليست ضامن عيشه فحسب، بل هي أيضا عامل وحدة، له أهميته في مجتمع قائم إلى حد بعيد على أساس النظام القبلي.[29] "إن تفتيت القبائل وفروعها وانفجار العائلات الموسعة هما أولى هذه الانعكاسات الاجتماعية".[30] ولقد أدرك مسؤولوا فرنسا أهمية الأرض في وحدة السكان، فركزوا عليها عن طريق مصادرتها إلى أقصى حد ممكن، وكانت عقوبة المحاربين والداعمين لهم هي مصادرة الأرض بالدرجة الأولى.

لقد هدّم المحتل العلاقات الاجتماعية للبدو وسكان الأرياف وحتّى للحضريين، وأدخل أسلوبا اقتصاديا حديثا يتجه نحو تحديث السكان. وتأثرت مختلف طوائف المجتمع الجزائري بكل ذلك، واضطر سكان الأرياف إلى الرحيل نحو المدن بحثا عن قوت وهمي، كما انتقل سكان المدن المنهوبة نحو الأرياف. وبهذه الوسيلة حاول الفرد الجزائري أن يبحث عن مكان للعيش، وأن يكيّف حياته حسب الظروف الطارئة بعيدا عن حياة القهر والمذلة، وهو مجبر على إجراء تغيير في نمط عيشه آخذا بعين الاعتبار أوضاعه الجديدة. ولم يكن البدو

29في سنة 1863 صدر قانون السيناتوس قونسلت الذي قسم أراضي العرش والقبائل وشتت الملكية الجماعية، وبتطبيقه سهل على الفرنسيين الاستيلاء على القطع الأرضية من الأفراد تحت ستار القانون.

30عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ص: 97.

ونصف البدو[31] بعيدين عن هذا التحول الخطير، فقد واجهت قبائل السهول المرتفعة والجنوب صعوبات قاسية في ظل الاستعمار، وتحول معظمهم إلى الحياة الحضرية في شروط صعبة جدّا.

لقد كان هذا الانتقال إجباريا، فقد تم تهجير الآلاف من الجزائريين الفلاحين من أراضيهم، ليستولي عليها أوربيون من مجرمين ومعارضين سياسيين وجنود مسرحين تخلص منهم النظام الإمبراطوري في فرنسا منذ سنة 1852 ليقوم بتهجيرهم ونقلهم إلى الجزائر، وكانت البداية هي ترحيل حوالي مائة ألف أوربي. وتقدم البرلمان الفرنسي بمنح 50 مليون فرنك لإنشاء مراكز أوربية استيطانية بالجزائر، وخصصت أراض تبلغ مساحتها من 2 إلى 20 هكتار بالإضافة إلى آلات فلاحية وحيوانات للتربية، وهكذا أنشئت عشرات القرى لاستقبال هؤلاء القادمين من وراء البحر ليربح هؤلاء في مقابل فقر أصحاب الأرض الحقيقيين، الذي أصبحوا، كما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل، عمالا أجراء في أراضيهم، أو أنّهم فضلوا الهجرة إلى المناطق الجبلية والسهبية وهوامش الصحراء بعيدا عن الذل والإهانة.

وقد تواصل توافد الأوروبيين إلى الجزائر من مختلف البلدان، بعد أن قام الإعلام الفرنسي بدوره في تشجيع الهجرة ومد المهاجرين بالمساعدات المادية والمعنوية، وهكذا تم إنشاء حوالي 198 قرية استعمارية يسكنها حوالي 30 ألف مستعمر، وذلك سنة 1871، ثمّ ارتفع عدد الفرنسيين في الجزائر من 30 ألف إلى 195 ألفا، والأجانب من 115 ألفا إلى 181 ألفا، وذلك بين سنتي 1871 و1881.[32]

31نصف البدو هم سكان السهول المرتفعة الذين يمزجون النشاط الرعوي بالنشاط الزراعي.

32أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار الكتاب ودار المعارف، البليدة، الجزائر 1963، ص: 64.

هكذا كان كل نمو في عدد المهاجرين الأوروبيين إلى الجزائر يعني طردا لعدد كبير من الفلاحين أصحاب الأرض الأصليين، فالمهاجر الأوروبي المدعم بسلطة الاحتلال الفرنسية لا يقتنع غالبا بمزرعة واحدة، بل يتوسع يمينا وشمالا بطريقة أو بأخرى على حساب الملاك الجزائريين الذين يجبرون في آخر الأمر على ترك أراضيهم...

لقد استغل الاستعمار خيرات البلاد كلّها، ووجه الإنتاج بما يلائم المصالح الكبرى لفرنسا، وبالتالي أصبحت السياسة الاقتصادية المتبعة تخدم الأقلية الأجنبية في مقابل بقاء جماهير الأهالي في انحطاط مستمر في مجال العمل والتغذية والصحة والحرية الأساسية للمواطن.

ثـــانـــيا: السياسة الدينية والتعليمية الفرنسية في الجزائر

أ-سياسة التنصير:

كانت سياسة التنصير، هي أحد أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائر. لقد قامت الدولة الفرنسية بدور الحامي المناصر لرجال الدين المسيحيين في الخارج، لأنّهم كانوا وسيلة لبسط النفوذ السياسي على البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، للاستيلاء على ثروات شعوبها واستغلالها لصالح الدولة الفرنسية. لقد اتضح هذا العامل كهدف من خلال تصريحات مسئولي الدولة الفرنسية مدنييها وعسكرييها. فالملك شارل العاشر يصرح في الثاني من شهر مارس 1830، أي قبل أربعة أشهر من الاحتلال الفعلي للجزائر، وذلك في خطاب العرش المعتاد قائلا: "إنّ العمل الذي سأقوم به ترضية للشرف الفرنسي، سيكون بعون العلي القدير لفائدة المسيحية كلّها".[33]

أما بولينياك رئيس حكومته فيشرح نوايا بلده تجاه الجزائر ويبرر قرار الحملة الفرنسية بأنّه يدخل في إطار الدفاع عن "شرف فرنسا والدين المسيحي دون أية نوايا استعمارية".[34]

أمّا الجنرال دي بورمون قائد الحملة العسكرية فقد اصطحب معه ستة عشر قسيسا، وعندما سقطت بيده مدينة الجزائر خاطبهم بقوله: "إنّكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع".[35]

33أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 46.

34أنظر: Humbert beshamps, Les méthodes et doctrines coloniales de France, Paris 1953, P/99.

35 عبد الجليل التميمي، ملامح التفكير التبشيري عند المسئولين الفرنسيين، محاضرة مطبوعة في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بتيزي وزو عام 1973.

لقد أعاد الفرنسيون بزعامة ساستهم وضباطهم الروح الصليبية في أرض الجزائر، واعتبروا احتلالهم لهذه الأرض استرداداً للبلاد التي كانت تدين يوما بالمسيحية قبل ظهور الإسلام. واعتبروا المسلمين قد ارتكبوا جناية عظمى لا تغتفر لأنّهم قطعوا الصلة بين أوربا وإفريقيا المسيحيتين آنذاك. "فلكي يبرر الاستعمار عمله يضع نفسه تحت سلطة الصليب المعنوية، ويعطي للمستعمر صبغة المبشر الذي يريد أن يضمن سعادة قريبة من بني البشر رغما عن هذا القريب".[36]

فالنزعة الصليبية كانت أحد أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر، أي أنّ احتلال فرنسا للجزائر لم يكن إلاّ امتدادا للنزاع المسيحي الإسلامي الذي ابتدأ في المشرق وليستأنف في المغرب، ولهذا استخدمت فرنسا كل الوسائل لتحطيم الدين الإسلامي.

إنّ ما قام به الفرنسيون في الجزائر يناقض الاتفاقية المبرمة سنة 1830 بين الداي حسين حاكم الجزائر والجنرال دي بورمون قائد الحملة الفرنسية على الجزائر آنذاك؛ حيث جاء في الفصل الخامس من الاتفاقية ما يلي: "إقامة الشعائر المحمدية تكون حرة ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم ولا بأملاكهم ولا بتجارتهم وصناعتهم، وتحرم نساؤهم، والقائد العام يتعهد بذلك عهد الشرف".

لقد تم اختراق هذه المادة، وأصبح التعهد حبرا على ورق، فقد حولت المساجد إلى كنائس أو مستشفيات أو ملاجئ. وها هو حمدان خوجة أحد رجالات الجزائر وشاهد عيان يفضح كل ذلك، حين يذكر مثلا أن الجنرال كلوزيل، الذي خلف دي بورمون على إثر قيام ثورة جويلية 1830: "أوجب

36فرحات عباس، الثورة الجزائرية، ص: 110.

على المفتي أن يسلم المساجد الواقعة أمام الأبواب التي يدخل منها البدو... ".[37] ويضيف: "لقد طَلب هذه المساجد ليجعل منها مستشفيات لجيوشه، وتعهد أنّه لن يستعملها أكثر من شهرين". ويواصل تفصيل الأمر بقوله: "وعندما كنت عضوا في مجلس البلدية في عهد دي بورمون، طلب منا شيخ البلدية أن نسمح له بتحويل عدد من المساجد إلى مستشفيات للجيش ...، ورُفضت ملاحظاتنا ووقع الاستيلاء ظلما على المساجد".[38] ويذكر من جهة أخرى أنّ الحكومة الفرنسية وضعت هذه المعابد تحت تصرف إدارة أملاك الدولة واكترت بعضها لعدد من التجار، ثم يتساءل: "فمقتضى أي قانون تستولي تلك الإدارة على تلك البنايات ؟".[39]

وقد أثبت المؤرخون الفرنسيون المعاصرون مثل هذه الأعمال الشنيعة استنادا إلى وثائق أسلافهم؛ حيث لم تحترم شعائر الجزائريين ولا مقدساتهم، واستغلت منشآتهم الدينية وبعض قصورهم ومنازلهم لخدمة المصالح الفرنسية. فجوليان يذكر مثلا أنّه: "... تم تحويل عدة مساجد إلى ثكنات عسكرية، أمّا الضباط فسكنوا القصور والمنازل الخاصة، ووضعوا مصالحهم الإدارية في الزوايا وأماكن العبادة... وهكذا تم الخروج على التعهدات المعلنة من قبل دي بورمون باحترام الممتلكات وأماكن العبادة وهذا قبل أن يغادر الجزائر".[40]

ولم يكتف الفرنسيون المحتلون بإذلال الأحياء من الناس وتدنيس شرفهم ومعابدهم، بل عمدوا أيضا إلى الأموات في قبورهم فانتهكوا حرماتهم. ففي

37حمدان خوجة، المرآة، ص: 280.

38المرجع والصفحة السابقتين.

39نفسه.

40أنظر: Charles andré julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, Tome 1, Presses universitaires de France ? Paris, P/65.

عهد كلوزيل مثلا "نهب الأموات في مدافنهم، وسمح بالاتجار بالعظام البشرية وبيعت حجارة المقابر ... وقد تزايدت هذه التجاوزات".[41]

ورغم أنّ حمدان خوجة معروف بالاعتدال في مطالبه باستعمال أسلوب اللين والمسالمة، فإنّه لم يُخْفِ رفضه للأعمال التي تقوم بها سلطات الاحتلال، وهو يعيد أسباب تلك التجاوزات وعدم تدخل السلطات العليا لوقفها، إلى الحقد على ديننا.

وقد واصلت سلطات الاحتلال الاستيلاء على المؤسسات الدينية وتوابعها. وهكذا صدر قرار من وزير الحربية بتاريخ 23 مارس 1843 ينص على "أن مصاريف ومداخيل المؤسسات الدينية تُضم إلى ميزانية الاستعمار". وبذلك توقف الدور الذي كانت تقوم به هذه المؤسسات من خدمة المساجد والمدارس القرآنية والأعمال الخيرية المختلفة. وأصبحت مداخيلها بأيدي السلطات الاستعمارية تتصرف فيها كما تشاء.

وبعد حوالي أربعين سنة من الاحتلال صدر قانون كريميو لتجنيس اليهود الجزائريين، فتم احتضان اليهودية وحماية أهلها وإشراكهم في السيادة وتجنيدهم لمحاربة الجزائريين المسلمين.

وبهذا كشفت السلطات الاستعمارية عن نواياها الحقيقية، وهي استعمار الشعب المسلم في كل ميادين حياته، والتسلط على الجانبين المادي والمعنوي الروحي للشعب الجزائري. فالدين الإسلامي ملك للسلطات الفرنسية تحتكر مساجده وقضاءه وتتصرف في رجاله وأوقافه حسب مصالحها. أمّا الراهب فتعينه وتحميه وتدعمه بكل الوسائل لخدمة فرنسا والمسيحية في آن واحد.

41حمدان خوجة، ص: 288.

هذا ما فعله الكاردينال لافيجري الذي عُيّن أُسقفا للجزائر سنة 1867، والذي كان غرضه الأساسي تنصير الجزائريين حيث يقول: "يتعين على فرنسا أن تفسح لنا المجال لنقدم له (للشعب الجزائري) الإنجيل أو يطرد هذا الشعب إلى الصحراء بعيدا عن العالم المتمدن".[42] وهذا الكاردينال هو الذي أسس جمعية الآباء البيض سنة 1868، التي عمت إفريقيا الشمالية بمؤسساتها ومنشوراتها. وقد تصادف تعيين لافيجيري سنة 1867 مع وقوع مجاعة خطيرة في الجزائر، استغلها لجمع اليتامى والمشردين من الأطفال، وأقام لهم قرى وأنشأ مدارس يتعلمون فيها الإنجيل والمبادئ الأولية للقراءة.

وقد ساعدت السلطات العسكرية لافيجري في تحقيق مهمته وأعطته كل التسهيلات الضرورية لتحطيم بنية المجتمع الجزائري عقائديا وجنسيا. ويقول الأب فويو (L) Veuillot في هذا المجال: "امسحوا القشرة السطحية للإسلام، وسيظهر لكم جوهر الجزائر المسيحية".[43]

لقد اعتبر الكثير من مسئولي السلطات الفرنسية أنّ الإسلام هو الموجه لكل الانتفاضات المقاومة للاحتلال، لذلك عملوا على التضييق على العلماء ومعلمي العربية، ووصل الأمر ببعض حكام فرنسا إلى منع الجزائريين من الحج، حتّى لا يتصلوا بغيرهم من المسلمين، وهذا ما قام به الحاكم العام الأميرال دي قيدون De Gueydon في ماي 1873 مبررا ذلك بقوله: "إنّهم يعودون أقل

42بوعمران الشيخ، الأسقف لافيجري والنشاط التبشيري (1967-1892)، صحيفة الشروق الثقافي الأسبوعية، 26 ماي 1994، العدد 44.

43أنظر: Charles robert agéron , L'echec d'une nouvelle France, nouvel observateur collection, dossier N/9, Paris, 1992.

طاعة لسلطتنا".[44] وقد كان هذا الحاكم العام من مشجعي سياسة تحويل الجزائريين إلى كاثوليك، كما دعّم أعمال لافيجيري بقوة. ومما قاله في هذا المجال: "إنّ الوقت قد حان لضم هذا الشعب المغلوب على أمره، شيئا فشيئا، إلينا وإلى الحضارة المسيحية".[45]

ب- السياسة التعليمية

عملت سلطات الإحتلال على محاربة تعليم اللغة العربية والقرآن والتاريخ العربي والإسلامي، فأغلقت المدارس وطاردت المعلمين واستولت على الكتب والمخطوطات، وأنشأت مقابل ذلك مدارس لتعليم اللغة الفرنسية لنشرها بين السكان الذين قاطعوها. كما أنشأت، في مرحلة تالية، مدارس عربية فرنسية ليس لها من العربية إلاّ المظهر.

وقد قاوم السكان هذه السياسة بفتح مدارس أخرى في قراهم وأحيائهم وموّنوها بوسائلهم الخاصة حفاظا على الحرف العربي وتحفيظ القرآن الكريم لأبنائهم، لأنّ "أغلبية المعلمين هاجروا خلال السنوات الأولى من الإحتلال إلى الجزء الذي لم يقع تحت الإحتلال، أمّا الذين بقوا فقد حرموا من الأجرة ومن السكن فوقعوا في الفقر".[46]

44أنظر: -Charles robert ageron, Les Algériens musulmans et la France, imprimerie tardy bourges, France 1968, P/301.

45. IBID, P/302

46أنظر: -Charles r. agéron ; Histoire de l'algérie contemporaine, presses universitaires de France, Paris 1979, P/153.

وقد جاء في تقرير لجنة القروض الاستثنائية ما يلي: "لقد تركنا المدارس تسقط، وشتتناها، وأطفئت الأنوار حولنا، أي أنّنا حوّلنا المجتمع المسلم فأصبح أكثر جهلا وبربرية مما كان عليه قبل معرفتنا".[47]

ففي المدن الكبرى منع تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، أما في الجهات التي لم تمس فيها مدارس القرآن البسيطة، فقد منع عليها فتح أبوابها خلال أوقات عمل المدارس الفرنسية حتّى لا تمنع عنها التلاميذ. وفي الواقع كان إنشاء المدارس الفرنسية في أي مكان يعني غلق الزوايا والمدارس القرآنية، و"بالنسبة للسلطة الفرنسية يعتبر هذا التعليم بدون فائدة، حيث لا يتعلم التلميذ سوى قراءة وكتابة بعض سور القرآن".[48]

وعندما استولت سلطات الإحتلال على أراضي الأوقاف حَرمت المساجد والمدارس من مورد هام كان يمونها، فتضاءل مردودها ثمّ انعدم في جهات كثيرة، إلاّ في الحالات التي تَدَخل فيها السكان للتكفل بحاجيات المعلم (الطالَب)، الذي أصبح يتعاقد مع القبيلة أو الدُّوَار فيما يدعى بـــ "مْشَارَطْ".

وهكذا ورغم الأوضاع السيئة التي كانت الجزائر تعيشها قبل سنة 1830 نتيجة لعدم مواكبتها للتطور الذي كان يحدث في أوروبا،فإنّ الاستعمار الفرنسي زاد من تأزم تلك الأوضاع، وأصبحت الجزائر بعد عقود من السنين، مثلها مثل بقية الشعوب المغلوبة على أمرها، تعيش أوضاعا مأساوية خطيرة.

والحقيقة أنّ التدمير المباشر وغير المباشر لهذه الشعوب من قبل الاستعمار الأوروبي، "هو الذي أدى إلى جعل النمو الغربي أمرا ممكنا. وأنّ علاقة الغربة التي نجدها اليوم بين المجتمعات المسماة متخلفة والحضارة الآلية، إنّما تقوم على أن الحضارة الآلية تجد في تلك المجتمعات نتاج ما صنعته أيديها،

47انظر: IBID, P/318.

48انظر: Charles r. ag. Les Algériens... P/318.

أو بشكل أدق حصيلة أعمال التدمير التي اقترفتها بحق تلك المجتمعات سعيا وراء بلورة واقعها هي".[49] أي أنّ الأوضاع التي تعيشها بلدان العالم الثالث اليوم هي نتيجة لوضع تولد عن التقطيع والنهب والعنف.

49كلود ليفي ستروس، الإناسة البنيانية، ترجمة حسن قبيسي، القسم الثاني، مركز الإنماء العربي، بيروت 1990، ص: 287.

ثالــثا: المــقاومات الــشعبيــة

لقد سقط حكم الدايات سريعا أمام ضربات قوة الفرنسيين مما يدل على هشاشة السلطة الحاكمة سنة 1830 وبُعدها الكبير عن الشعب، وانسحب آخر حكام الجزائر من الميدان في الأيام الأولى من الإحتلال، واستسلم على اثر ذلك بايات النواحي باستثناء باي قسنطينة الذي اعتبر نفسه الخليفة الرسمي للداي المنسحب، فحمل السلاح ورفض الاستسلام وناصره سكان المنطقة.

وباستسلام داي الجزائر، تُرك الميدان السياسي فارغا، فانتشرت الفوضى والفتن، في الوقت الذي كان العدو الفرنسي يتوسع في البلاد شرقا وغربا وجنوبا، متبعا أسلوب القتل والسلب والنهب ضدّ السكان، مخترقا ما أخذه على نفسه من عهود في احترام مقدسات السكان وأعمالهم، عندما وقّع الحاكم الفرنسي مع الداي حسين ما يعرف باتفاق الجزائر، فتحركت الأنفة الوطنية والغيرة الدينية مستنهضة الهمم ومحرضة النفوس على الجهاد والقتال،[50] والاضطلاع بدور المقاومة لحماية الحوزة الترابية والمصالح المادية والقداسة الدينية.

ويمكن تقسيم المقاومة إلى نوعين: مقاومة منظمة، ومقاومة شعبية محلية.

أ – أمّا المقاومة المنظمة:

فتشمل مقاومة الأمير عبد القادر، ومقاومة أحمد باي.

ففي الغرب الجزائري بايعت القبائل عبد القادر بن محي الدين سنة 1832 أميرا عليها، فحمل المهمة بعد أن كان والده قد حملها لمدة سنتين، والذي كان

---

50 عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، دار الثقافة، بيروت 1980ن ص: 285.

زعيما للطريقة القادرية، و".. هكذا أصبحت القبائل القوة السياسية وأصبحت الزوايا القوة المعنوية لمواجهة الغزو الأجنبي".[51]

اعتمد الأمير عبد القادر على الإمكانيات المحلية وبادر إلى تكوين دولة على أسس جديدة، ونظم البلاد وساس العباد مستندا على القيم الروحية للشعب الجزائري في إقامة دعائم دولته، واتخذ مدينة معسكر عاصمة له، وخاض غمار حرب شعبية كان النصر حليفه في عدة مواقع، مما دفع حاكم مدينة وهران إلى اتباع سياسة اللين مع الأمير، وفاوضه في أمر عقد هدنة بين الطرفين، وانتهت المراسلات بينهما إلى عقد معاهدة دي ميشيل في 24 فبراير 1834، نصت على وقف العمليات الحربية وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين وحرية التجارة. واغتنم الأمير فرصة المعاهدة ليوسع نفوذه، فتمكن من ضم إقليم التيطري ومليانة شرقا وبسكرة في الجنوب الشرقي.

وعندما عُزل دي ميشيل عن ولاية وهران، خلفه تريزيل الذي صمم على نقض المعاهدة وخوض الحرب من جديد ضدّ الأمير، لكنّه هزم في معركة المقطع في 28 جوان 1835 ولم ينج هو من الموت إلاّ بصعوبة.

وأرسلت فرنسا قوات عسكرية جديدة بعد أن عزلت تريزيل واستمرت الحرب بين الطرفين، ثمّ تتابعت النجدات، من أهمّها إرسال الجنرال بيجو Bugeaud ونزوله في 6 جوان 1836 عند مصب واد تافنا، والذي استبدل القوات الضخمة ذات التسليح الثقيل بفرق صغيرة وأسلحة خفيفة ليتمكن من الصمود أمام قوات الأمير التي تعتمد على حرب الكرّ والفرّ (حرب العصابات). وتمكن من هزيمة جيش الأمير في معركة وادي السكاك في 6 جويلية سنة 1836. لكن الأمير لم يستسلم أو تهون هزيمته بل أعاد تكوين فرقه،

51عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1971، ص: 18.

وكان عليه أن يحارب على جبهتين: جبهة المعارضين له في الداخل، وجبهة القوات الفرنسية الغازية، وضيق الأمير على الفرنسيين فلم يكونوا يتنقلون من مكان إلى آخر إلاّ في فرق كبيرة، وفي هذه الحالة كانوا يحتاجون إلى تموين ضخم وحيوانات تحمل أثقالهم. كما وجه الأمير قواته نحو الجهات الشرقية بكثافة في سهل متيجة والتيطري فزرع الرعب في نفوس المستوطنين وحل الفزع بمدينة الجزائر نفسها، والتجأ الفرنسيون مرة أخرى إلى الصلح مع الأمير، وقام اليهودي دوران بالوساطة بين الطرفين، وانتهى الأمر إلى عقد معاهدة تافنا في 30 ماي 1837 بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو، يقول شارل هنري تشرشل: "إنّ عبد القادر قد وصل ذروة المجد في مهمته خلال هذه الفترة".[52]

وقد استقبلت السلطات الفرنسية هذه الاتفاقية ببرود، واعتبرها الحاكم العام نصرا للأمير. لقد جنح الأمير إلى السلم بعد أن جنح إليها خصومه، وكان قد رأى ضرر الحرب على الجزائريين، وبدأت المخابرات بين الطرفين حول شروط الصلح التي تم الاتفاق عليها في نهاية الأمر باعتراف الأمير بسلطة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران، واعتراف فرنسا بإمارة الأمير على إقليم وهران وتيطري والقسم الذي لم يدخل حكم فرنسا من إقليم الجزائر والجهة الشرقية، وحرية التنقل وحرية تبادل الوكلاء لتمثيل المصالح المختلفة لكل طرف ...الخ. وهكذا "وجد الأمير نفسه في سلام، فواصل إصلاح إدارته وتنظيم حكومته وتقوية جيشه وتوسيع نفوذه".[53] وراح يتصل بمختلف القبائل لضمها وتنظيم شؤونها وإصلاح حالها، وقد انكمش نفوذ الفرنسيين في الساحل مما دعى جوليان إلى القول بأنّ معاهدة تافنا جعلت الأمير سيد أغلبية البلاد.[54]

52شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر 1982، ص: 113.

53أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، 1900-1930، ش و ن ت، الجزائر 1983، ص: 43.

54أنظر: Charles andré julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, T/I, P/317.

ونقض الفرنسيون معاهدة تافنا باجتياز طابور عسكري لجبال البيبان، فتجددت الحرب في نهاية سنة 1839 إلى أن عُيِّن الجنرال بيجو كحاكم عام للجزائر في بداية سنة 1841.

لقد حضر بيجو إلى الجزائر رفقة أبناء الملك الفرنسي لوي فليب، و اتخذ بمجرد وصوله، خطة الحرب الخاطفة ضدّ أعوان الأمير من القبائل المختلفة، وأغلق الحدود لمنع دخول الأسلحة والمتاجرة الخارجية. واستمرت القوات الفرنسية المتزايدة تتتبع خطوات الأمير الذي اضطر إلى دخول المغرب الأقصى، واحتجت فرنسا لدى سلطان المغرب.

وفي سنة 1843 تمكنت القوات الفرنسية بقيادة الدوق دومال وهو أحد أبناء الملك الفرنسي، من اكتشاف عاصمة الأمير المتنقلة في غيابه، وذلك عن طريق خيانة أحد أعوان الاستعمار المدعو عمر العيادي، واستولت عليها القوات الفرنسية، وكان الفرنسيون قد خدعوا حراس الزمالة "بإشارة من عمر العيادي المرتد وهي إلباس فرسانهم لباس الخيالة المسلمين".[55]

وفي سنة 1845، التجأ الأمير إلى الجنوب ونزل بين أولاد سيد الشيخ وتتبعته قوات الفرنسيين في هذه الجهة، وقد هاجمها أولاد سيد الشيخ في أوائل شهر ماي من السنة نفسها، لكنّهم هزموا، وعادت القوات الفرنسية إلى وهران مرورا بفرندة "وقد جاء الأمير بجيشه يطلبها بالصحراء فلم ينل منها".[56] مما اضطره إلى الالتجاء إلى المغرب مرة أخرى.

55محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الجزء الأول، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903، ص: 280.

56إسماعيل بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص: 222.

وتجمعت ضدّ الأمير عدة عوامل، منها سياسة بيجو (الأرض المحروقة)، ومقتل عدد من قادته المشهورين، ورفض سلطان المغرب استقباله، بل وجه إليه قوات لمحاربته، فما كان من الأمير إلاّ أن وضع السلاح وتقدم إلى الجنرال لاموريسيار سنة 1847 بعد اتفاق بينهما، وتم نقله إلى فرنسا حيث بقي مدة خمس سنوات ثمّ سمح له بالانتقال إلى المشرق، وبذلك انتهت مقاومة الأمير التي واجهت الإحتلال مدة خمسة عشر سنة.

وأمّا المقاومة المنظمة الثانية فهي التي تزعمها أحمد باي في قسنطينة. لقد رفض أحمد باي التعاون مع سلطات الإحتلال رغم محاولاتها استمالته إلى جانبها. وانضم إليه عدد من الجنود الفارين من العاصمة بعد احتلالها، كما اعتمد أحمد باي على العنصر الجزائري في مقاومته للإحتلال، وخاض عدة معارك ضدّ الفرنسيين وبخاصة ضدّ قوات يوسف الذي كان على رأس قوات فرنسية بمدينة عنابة. وعندما يئست سلطات الإحتلال من إستمالة أحمد باي، أرسلت إليه قوات ضخمة سنة 1836.

والتقى الجيشان في عقبة "العشاري"، ثمّ انسحب أحمد باي دون أن يتوقف عن مناوشة قوات العدو واستتراف قدراتها إلى أن دخل مدينة قسنطينة، ولم يتمكن العدو من دخول المدينة فانسحب بقيادة الجنرال كلوزيل عائدا من حيث أتى، وتتبعته قوات أحمد باي تناوشه من هنا وهناك واستولت على عدة عربات للتموين، ثمّ عادت قوات أحمد باي لترمم ما تهدم من حصون، كما تمت معاقبة بعض الخونة. وقد راسل أحمد باي السلطان العثماني يطلب منه العون والمساعدة، لكن باي تونس لم يسمح للقوات العثمانية بالمرور إلى قسنطينة.

وعندما وقّع الفرنسيون معاهدة تافنا سنة 1837 مع الأمير، وجهوا جل قواتهم لاحتلال مدينة قسنطينة، واستعد أحمد باي للمقاومة بعد أن استشار

مجلس ديوانه، واعترض طريق القوات الفرنسية خارج المدينة كالمرة السابقة ثم انسحب إلى المدينة. وحاصر الفرنسيون المدينة وتمكنوا من دخولها بعد ثمانية أيام، وبعد صمود كبير، حيث أظهر المدافعون شجاعة لا مثيل لها وحاربوا في كل شارع، وفي كل بيت إلى أن غلبهم تفوق العدو عددا وعدة، بعد أن فقد عددا من أشهر قواده كالجنرال دومريمون، القائد العام، والجنرال بريكو وغيرهما.

و"انتهت معركة قسنطينة بالاحتلال الفرنسي، ولم يحقق أحمد باي ما كان يأمله من انتصار، لكن روح المقاومة لم تضعف فيه، حيث قرر مواصلة الجهاد بأي ثمن، ورفض كل النصائح التي تدعوه إلى الاستسلام والتخاذل".[57] وخرج أحمد باي بجنوده من المدينة، حيث يذكر في مذكراته أنّه "لم يبق لي إلاّ أمتعة البادية، وكان أعيان قسنطينة قد اقترحوا عليَّ قبل الحصار بكثير أن آمر بإخراج الأشياء الثمينة، ولكني اعترضت بشدة على هذا المشروع اقتناعا منّي بأنّ مقاومة السكان تكون أكثر ضراوة كلما ازدادت الأملاك التي يحافظون عليها."[58]

وقد انسحب بعد ذلك إلى بلاد الزاب ثمّ أخذ مدينة بسكرة، ومن هناك عمل على محاربة الفرنسيين فانتصر في بعض المعارك وهزم في أخرى، وقد علق آمالا كبيرة على مساعدة السلطان العثماني دون نتيجة، وانتهى به الأمر بعد سنوات طويلة من التشرد والمصاعب إلى الإستسلام على اثر مراسلات بينه وبين السلطات الفرنسية على يد الضابط سان جرمان، وأُرسل إلى مدينة الجزائر في شهر جوان من سنة 1848 وبقي هناك إلى أن وافته المنية سنة 1850.

57محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، دار البعث، قسنطينة 1985، ص: 58.

58محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ش و ن ت، الجزائر 1981، ص: 75.

هكذا انتهت المقاومة المنظمة بعد عقدين من المقاومة الشديدة التي آزرتها مختلف الفئات الشعبية، ولكن تشتت جهود الزعيمين وعدم تعاونهما كان السبب في سقوط كل منهما على حده، لتمسك كل منهما بموقفه وعدم اعترافه بسلطة الآخر". وهكذا منعت الغيرة والصراع من أجل الحكم، بالإضافة إلى سياسة فرنسا التي كانت تقوم على أسلوب فرّق تسُد، تحالفا بين قوى الأمير عبد القادر وأحمد باي رغم بعض المحاولات من طرف الأمير".[59] وتمكنت السلطات الفرنسية من الانتصار عليهما الواحد بعد الآخر.

ب- المقاومات الشعبية المحلية:

رغم انتهاء مقاومة كل من الأمير عبد القادر وأحمد باي فإنّ شعلة الروح الوطنية بقيت ملتهبة في النفوس، فلم يتقبل الشعب الجزائري الأمر الواقع، وعبّر عن ذلك الرفض بالانتفاضات المتواصلة التي عمت مختلف أرجاء البلاد وغطت كل المراحل الزمنية، إلاّ أنّ هذه الانتفاضات على كثرتها وتفاوتها في الأهمية لم يكتب لها النجاح، ولئن لم تحقق نجاحا عسكريا فإنّها "حققت نجاحا أدبيا وطنيا بترسيخ الروح الثورية في النفوس وصمود الفكر الرافض للاحتلال وللوجود الفرنسي بجميع أشكاله"،[60] رغم أسلوب الإبادة الذي اتبعه الجيش الفرنسي ضدّ الجزائريين.

وسنقتصر هنا على ذكر مقاومتين شعبيتين هامتين هما: مقاومة أولاد سيد الشيخ التي اندلعت سنة 1864، والتي تعتبر حركة الشيخ بوعمامة امتدادا لها، لأنها اندلعت من المنطقة نفسها أي من الجنوب الغربي الجزائري وإن كانت تختلف عنها في بعض الخصوصيات. ومقاومة المقراني التي شملت مناطق واسعة

59أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص: 50.

60محمد الطيب العلوي، مرجع سابق، ص: 71.

في الشمال والجنوب الجزائري، وكانت لها آثار سيئة على الوضع العام في الجزائر.

فــفي سنة 1864 ظهرت مقاومة أولاد سيد الشيخ بالجنوب الغربي بزعامة ســـي سليمان بن حمزة،[61] الذي استقال من منصبه كباش آغا على المنطقة، وراسل القبائل المختلفة يدعوها إلى الجهاد، فلبت نداءه قبائل عديدة وناصره عمّه سي الأعلى الذي كان قائدا على ورقلة، وتجمع المجاهدون في نومراك بمنطقة متليلي، وكلفت السلطات الفرنسية العسكرية الضابط بوبريتر Beauprêtre ، حاكم قطاع تيارت، بالتوجه إلى المنطقة، والتحمت القوتان في شهر أبريل سنة 1864 في معركة ضارية بعوينة بوبكر بنواحي البيض (30 كلم شرقا)، كانت نتيجتها مقتل قائدي القوتين: سي سليمان وبوبريتر، وانهزمت القوة الفرنسية وانضمت فرق الصبايحية (السبايس) والقوم إلى المقاومين، وتمكن ثلاثة من الصبايحية فقط من الوصول إلى بلدة فرندة.[62] وبايعت القبائل سي محمد بن حمزة أخو سي سليمان، قائدا لها يساعده عمّاه سي الزبير والسي الأعلى، وانضم سي النعيمي، آغا قصر الشلالة، إلى المقاومة.

وفي الفترة نفسها ثارت قبيلة فليتة بنواحي غليزان بزعامة الشيخ بالازرق معلنة دعمها لمقاومة أولاد سيد الشيخ. وخاض المقاومون معركة ضدّ الجنرال مارنينيو في 27 أفريل كانت الخسائر فيها متبادلة، وبعد عدة معارك قتل سي بالازرق في 3 جوان سنة1864، وخلفه سي عبد العزيز الذي استسلم في 15 جويلية.

---

61 يذكر تريملي أن الياقوت أخت سي حمزة شرفت بالزواج من السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان سنة 1844. أنظر:
-Trumelet, Les Français dans le désert, challamel ainé éditeur, Paris 1886, P/85.

62 أنظر: Charles andré julien, Hist. De l'Alg. Cont. P/429.

أمّا أولاد سيد الشيخ فقد واصلوا هجوماتهم على العدو، واضطر سي الاعلى إلى الاتجاه شرقا نحو عين ماضي تحت ضغط القوات الفرنسية الملاحقة له، وتعاون معه أحمد التيجاني ممّا أدى إلى اعتقال هذا الأخير ونفيه.

وهاجم المجاهدون عدة قبائل مناصرة للفرنسيين، كما انضمت إليهم قبائل جديدة في منطقة الأغواط وجبال العمور. وفي جانفي سنة 1865 انضم ابن ناصر بن شهرة واتباعه إلى المقاومة، وتوجهت قوات فرنسية عديدة لملاحقة المجاهدين يساعدها قائد الأحرار قدور بن الصحراوي. وقد تمكنت القوات الفرنسية من إلحاق الهزيمة بهم، وجرح سي محمد الذي توفي على إثر ذلك، فخلفه أخوه سي أحمد بن حمزة، وهو ما يزال صغير السن، على رأس المقاومة.

وفي جانفي من سنة 1866 تمكن سي أحمد من تجنيد قبائل هامة في منطقة القصور من جنوبي فكيك إلى البيض، وخاض بهم عدة معارك. وأصبح قادة الجهاد يتمثلون في ثلاثة زعماء: سي أحمد بن حمزة، وسي سليمان بن قدور، والشيخ بن الطيب.

وعلى اثر ما سببته مقاومة أولاد سيد الشيخ للفرنسيين من اضطرابات وقَعت مفاوضات بين السلطات الفرنسية وسلطان المغرب، تعيّن على اثرها الحاج العربي بن الشيخ بن الطيب كزعيم لفرع أولاد سيد الشيخ الغرابة، الذين تعتبرهم "اتفاقية لالّة مغنية" لسنة 1845 مغاربة، وقد التحق بمنصبه في أكتوبر سنة 1867. أما سليمان بن قدور فقد انضم إلى الفرنسيين في جانفي سنة 1868، وفي أكتوبر من السنة نفسها توفي سي أحمد بن حمزة بتافيلالت، وخلفه أخوه سي قدور بن حمزة الذي تعاون مع سي الاعلى.

وفي السنة الموالية تعاون الزعماء الثلاثة (سي العربي، وسي قدور بن حمزة، وسي الاعلى) على مهاجمة القبائل المعارضة لهم، وواجهتهم القوات

الفرنسية بعدد من فرقها يساعدها كل من سي سليمان بن قدور والحاج قدور بن الصحراوي.

وعلى اثر هذا الإنتصار الذي حققه سي سليمان بن قدور على قدور بن حمزة، عيّنه الفرنسيون آغا على البيّض في أفريل سنة 1869، ثمّ أضافوا له أغوية حميان في جويلية من السنة نفسها.

حاولت السلطات الفرنسية التفاوض مع قدور بن حمزة دون نتيجة، ثمّ أرسلت عدة فرق فرنسية تحت قيادة العقيد دي ميلواز لملاحقة قدور بن حمزة واصطدم به في ماقورة في17 أفريل سنة1871وهُزم المجاهون،[63] الذين انسحبوا غربا إلى عين بني مطهر بالمغرب، ثمّ اتجه سي قدور بن حمزة، بعد ذلك، جنوبا إلى واد غيرْ، عند قبيلة دوي منيع، وازداد التوتر والخلاف بين زعماء أولاد سيد الشيخ مما أدى إلى عدة اضطرابات بجنوبي البنود في ديسمبر سنة1871.

وهُزم المجاهدون في معركة المنقوب، وأسرت عائلتا قدور بن حمزة وسي الاعلى. وعلى اثر هذه المعركة نقل الفرنسيون سليمان بن قدور إلى سهل ملاته قرب وهران ووضعوه تحت الإقامة الجبرية بعد أن شكواْ في ولائه لهم.

وفي سنة 1872 حاول سي الاعلى التفاوض مع الفرنسيين دون نتيجة. وفي فيفري سنة 1873 تمكن سي سليمان بن قدور من الفرار من مقر إقامته بضواحي عين تموشنت، والتجأ إلى المغرب ليعاود نشاطه الحربي ضد الفرنسيين. وفي سنة 1874 وقعت عدة اصطدامات بين سليمان بن قدور والفرنسيين، وتدخل شريف وزان لإنهاء الوضع المتأزم بين المجاهدين الجزائريين والفرنسيين، وتمكن من عقد اتفاق مع سليمان بن قدور الذي وضعه تحت الإقامة الجبرية في مكناس ثمّ فاس، واستمر الجهاد والمقاومة، وكان المجاهدون يشنون الغارات على

63إسماعيل بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ص: 264.

الفرنسيين ليلتجئوا بعد ذلك إلى الحدود المغربية. فقد هاجم قدور بن حمزة سنة 1879 الحاميات الفرنسية على الحدود المغربية الجزائرية لكنّه انهزم فعاد أدراجه.

واستمرت الحركة بين المد والجزر إلى أن تمكن الفرنسيون من عقد الهدنة مع أولاد سيد الشيخ الشراقة بزعامة قدور بن حمزة سنة 1883. وبذلك دخل هؤلاء في خدمة السلطات الفرنسية منذ ذلك التاريخ.

وهناك مقاومة تكتسي أهمية كبيرة لاتساع ميدانها وآثارها السيئة على السكان، تلك هي مقاومة المقراني التي اندلعت سنة 1871، فقد بدأت بتمرد المجندين في صفوف صبايحية زمالة عين قطار. يذكر سعد الله أنّه في جانفي 1871 تمرد جنود الصبايحية، وشاركوا السكان في اغتيال ضباطهم ونادوا بالإستقلال[64] في منطقة سوق اهراس، وتوسعت أعمال المقاومة إلى جهات أخرى كما حدث في تبسة، حيث أحرقت مزارع المعمرين وهوجمت ثكنات الفرنسيين. وفي هذه الأثناء قدّم باشاغا مقاطعة مجانة الحاج أحمد المقراني استقالته من منصبه، وأعلن الحرب على السلطات الفرنسية في مارس سنة 1871، وانتشرت المقاومة في بلاد القبائل ومنطقة قسنطينة ووصلت إلى مرتفعات القلّ شرقا، وإلى شرشال والمسيلة غربا، وتوقرت وبسكرة جنوبا.

لكن سرعان ما لقي المقراني حتفه إذ قتل في أوائل شهر ماي سنة1871، فخلفه أخوه بومزراق الذي واصل قيادة المقاومة إلى شهر جانفي سنة1872، حيث تم القبض عليه في الجهات الصحراوية. وقد دعمت الزاوية الرحمانية المقاومة ودعا زعيمها الشيخ الحداد أتباعه إلى الإنضمام إليها، فاكتست الحركة روحا معنوية جديدة وتعززت شعبيتها، لكنّ أبناء الشيخ الحداد لم يصمدوا

64أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، ص: 53.

طويلا واستسلم العديد من الرجال والقبائل، ومع ذلك فقد "قُدّر عدد المعارك التي دارت رحاها خلال هذه المقاومة بما يزيد عن 240 معركة".[65]

وكانت نتائج المقاومة قاسية على سكان المناطق التي كانت ميدانا لها، فقد فُرضت غرامات حربية ضخمة على السكان، وصودرت أملاكهم التي وزعت على مهاجري الألزاس واللورين الذين طردوا منها بعد الإنتصار الألماني على فرنسا. وصدر قانون المسؤولية الجماعية وتمت معاقبة المقاومين بالسجن والنفي إلى الخارج، وخاصة إلى المستعمرات الفرنسية الأخرى. يذكر المؤرخ ش. روبير آجيرون " ...أنّ انتفاضة 1871 لم تكن مقدمة، لكنّها كانت الأصل والسبب الأساسي لسياسة التسلط التي أعقبتها".[66]

هكذا قاوم الشعب الجزائري بكل ما أوتي من قوة وفي كل مكان حلّ به المستعمر. لقد أراد الفرنسيون احتلال البلاد كلّها فواجههم الشعب في كل سهل وفي كل جبل، يذود عن بلاده وكرامته. وإذا كان الفرنسيون قد قضوا على الزعامات الأولى، فإنّ الشعب كان يلد الزعيم تلو الآخر لمواجهة الظلم والقهر. لقد كانت المقاومة "تشتد وتزداد تنظيما، وكان البدو وهم على صهوات جيادهم ... يقاومون جيشا سحقته الشمس ولكنّه كان مزودا بالمدافع.[67]

لقد التجأ الناس إلى الرجال الأشراف و"المرابطين" ورجال الطرق الصوفية، ليقودوهم في حربهم الدفاعية ضد الفرنسي "الرومي"، لما لهؤلاء الرجال من مكانة لدى مختلف الطوائف تمكنهم من جمع الصفوف وتوحيد العمل، لذا فإن الفرنسيين كانوا يحسبون أن تحت كل عمامة قنبلة، وأن حبات

65بوعلام بسايح، الاحتلال والمقاومة، ص: 55.

66انظر: -Charles r. agéron, les Algériens… P/57.

67بوعلام بسايح، الجزائر: الاحتلال والمقاومة 1830-1954، ص: 44.

كل سبحة هي بعدد الرصاص الذي تملكه الطريقة، وأن الإخوان (المريدين) جنود مجندة وراء الشيوخ ينتظرون الإشارة لإلقاء الفرنسيين في البحر، فأعد هؤلاء العُدة وتنادوا يحذرون بعضهم البعض من الخطر الداهم المتربص بهم.[68]

لقد بذل الفرنسيون جهودا كبيرة للسيطرة على الجزائر، ولكن جهودهم واجهتها عدة عقبات أطالت من عمر الإحتلال، فهناك العوائق الجغرافية من جبال شاهقة وصحراء مترامية ومناخ قاس، وهناك العوائق البشرية المتمثلة في وجود شعب يختلف عنهم جنسا وعقيدة يقاوم من أراد سلبه أرضه ودينه، وهكذا إذن "كان احتلال الجزائر طويلا وصعبا"،[69] تطلب جهودا ضخمة من قبل الفرنسيين خلال عدة عقود من السنين.

68أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج:4، ص: 319.

69أنظر: -Charles andré julien, Hist… P/270.

الفصـــل الثـــاني:
المقاومـــة الشـــعبيـــة المسلحة
1881 - 1908

التوسع الاستعماري الفرنسي في الصحراء والأوضاع العامة قبيل اندلاع المقاومة محليا:

أ - التوسع الاستعماري الفرنسي في الصحراء ومشاريعه.

ب- الظروف المحلية عند اندلاع المقاومة.

ج- التحضير للمقاومة.

مـراحـل المقـاومـة:

أولا : مرحلة القوة 1881 - 1882.

ثـانـيـا : بين دلدول وفكيك 1883 - 1903.

ثـالـثـا : في المغرب الأقصى 1904 - 1908.

ملاحـظـات عـامـة

أ – التوسع الاستعماري الفرنسي في الصحراء ومشاريعه:

بعد أن استقر الوضع لفرنسا في الشمال الجزائري، اتجهت أطماعها نحو الجنوب لتنفيذ خطة كان يحلم بها الكثير من المغامرين والمستعمرين، وهي التوغل في الصحراء وربط البحر المتوسط، عن طريق الجزائر، ببلدان إفريقيا جنوبي الصحراء ووصل المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض.[70]

كانت الصحراء منطقة استراتيجية تفتح لفرنسا أبواب القارة السمراء على مصراعيها، خاصة وأن اتفاقية لالّة مغنية لسنة 1845 مع المغرب لا تربط الصحراء بأي بلد، فهي بلد لا حاكم لها. فاستغلت فرنسا تفوقها العسكري لمد نفوذها نحو الجنوب وربط هذه المنطقة بما سبق أن احتلته في الشمال.

لقد استقر لفرنسا الأمر في السنغال منذ الخمسينيات من القرن التاسع عشر، واحتلت مالي بين سنتي 1857 – 1894. وكانت مقاومة أولاد سيد الشيخ التي اندلعت سنة 1864 من أهم العوامل التي أخرت هذه السياسة لشدتها وطول فترة نضالها. وتنفيذا لهذه السياسة جال الصحراء عدد من المكتشفين الأوربيين لمعرفة طرق القوافل والمراكز التجارية، وعادوا بتقارير إلى السلطات الفرنسية التي ستستفيد منها في الوقت المناسب.

ومن أجل ذلك وقع التفكير في مد خطوط حديدية تسهل عملية التوغل في أسرع وقت. وهكذا أرسلت الحكومة الفرنسية عدة بعثات لاكتشاف المنطقة الجنوبية.

منها بعثة بويان Pouyane سنة 1879 المكلفة بدراسة تصميم للجنوب الوهراني في اتجاه توات، مهمتها الاختيار بين الخطوط الثلاثة المنطلقة من: تيارت وسعيدة ورَاسْ الْمَا، وقد اختارت البعثة خط رَاسْ الْمَا لأفضليته على

---

70 Djillali Sari, L'insurrection de 1881.1882, SNED, Alger 1981.

الخطين الآخرين اقتصاديا، وقد توصلت إلى وضع مشروع هدفه الوصول إلى مغرار والوتدْ ولا يتوغل في الصحراء.[71]

ومنها بعثة شوازي Choizy (1879 – 1880) المكلفة بدراسة مخطط: الأغواط – القليعة وبسكرة – ورقلة. وقد اختارت بعد رحلاتها خط: بسكرة – ورقلة، لأفضليته من جميع الجوانب.[72]

ومنها بعثة العقيد فلاتر Flatters سنة 1879 التي كلفت بوضع تصميم للخط الحديدي جنوبي قسنطينة، يمتد من ورقلة إلى بلاد الطوارق بأهقار لأنّ "دخول القطار إلى الصحراء سيضمن انتشار البضائع الفرنسية ومعها الحضارة الأوربية، في الوقت الذي يضمن فيه توغل الجيوش وإقرار النظام الاستعماري في منطقة لم يحلم الرومان بمد سلطانهم إليها".[73]

لقد فكر الفرنسيون في "وصل شمالي افريقيا بغربيها عن طريق سكة حديدية، وقام بعض المغامرين، كما ذكرنا سابقا، مثل العقيد فلاتر بالسفر في الصحراء الجزائرية في ذلك الوقت، رغم علمه بعداء الطوارق للدخلاء الأجانب وتحذيرهم إياه من القيام بمثل هذه المغامرة".[74] وقد انطلقت بعثة فلاتر سنة 1880 نحو الجنوب مارة ببسكرة فورقلة فتمسنين (فورفلاتر)، ثمّ بحيرة منغوغ. ثم عادت البعثة بعد أن كادت حمولتها من الزاد تنفد، وبعد أن مسحت حوالي 1200 كيلومتر من الطريق المخطط للسكك الحديدية عبر الصحراء.

71 أنظر: Augustin Bernard et N. Lacroix, La pénétration saharienne, imprimerie algérienne, Alger 1906, P/75.

72 IBID

73 إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص: 101.

74 جلال يحي، المغرب الكبير، ج:3، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص: 203-204.

وفي ديسمبر من السنة نفسها انطلقت البعثة ثانية تحت قيادة فلاتر يحرسها حوالي 78 عسكريا، واتجهت نحو الجنوب الغربي، فمرت بحاسي إيفل لتصل إلى أمجيد في 19 جانفي 1881، ولكن مالم يفعله الطوارق في المرة الأولى قاموا به هذه المرة، حيث كمنوا للبعثة في بير الغرامة، ووقعت اصطدامات بين الطرفين انتهت بهزيمة الفرنسيين ومقتل فلاتر، وفرار من بقي من البعثة على قيد الحياة دون زاد ولا متاع، مما أدى إلى موت الكثير منهم، وهم في طريق العودة. وتمكن عدد قليل من النجاة والوصول إلى بلدة ورقلة حيث قصوا مأساتهم على السلطات الفرنسية.[75] ويُعتقد أنّ "التنسيق لهذا الكمين قد دُبر في عين صالح في اجتماع تم بين الشيخ باجودة (مقدم الطريقة السنوسية)، وبين أولاد سيد الشيخ.[76]

ب- الظروف المحلية عند اندلاع المقاومة:

في سنة 1881 اندلعت مقاومة شعبية بالجزائر سميت لدى الفرنسيين بانتفاضة الجنوب الوهراني حينا، وبانتفاضة بوعمامة حينا آخر، كما نعتت بحركة 1881 فحسب، وتصب كلّها في المقاومة الشعبية التي قادها الشيخ بوعمامة في منطقة السهول المرتفعة الغربية والأطلس الصحراوي، وهي المنطقة التي تدعى حاليا بالجنوب الغربي الجزائري.

انطلقت هذه المقاومة من بلدة مغرار التحتاني، التي أصبحت تدعى منذ خريف 1995 بقلعة الشيخ بوعمامة، هذه البلدة التي تبعد عن مدينة عين الصفراء بحوالي 60 كيلومتر جنوبا، يفصل البلدتين جبل مكثر الذي يتجاوز

75إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 106-103.

76 أحمد العماري، مشكل الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830 إلى حوالي 1902، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1981.

ارتفاعه الألف متر. ومغرار التحتاني جزء من "قصور" المنطقة التي سميت الجبال باسمها؛ أي "جبال القصور"، الفرع الغربي لجبال الأطلس الصحراوي في الجزائر.

ينقسم سكان البلدة إلى "قصوريين"، وهم السكان الحضر الذين يشتغلون بالزراعة الحقلية من خضر وفواكه ونخيل، ومن بدو رحّل يتنقلون على أطراف البلدة بحيواناتهم من إبل وخيل وأغنام وماعز، ويقومون ببعض الزراعات الواسعة خلال سنين الرخاء كزراعة القمح والشعير. ويمتلك بعضهم أشجارا من النخيل في "القصر"، يأتون لقطع تمورها في فصل الخريف من كل عام، ويقوم بخدمتها بعض فقراء القصر بصفة خماسين.

وفي مقدمة هؤلاء البدو نجد أولاد سيد التاج، قبيلة الشيخ، الذين يستقرون ويترحلون على طول ضفاف وادي الناموس انطلاقا من فج حجاج شمالا إلى أطراف العرق الغربي الكبير جنوبا، تجاورهم فروع من قبائل العمور كأولاد التومي وأولاد عامر والمرينات وأولاد قطيب.

لم يكن الفرنسيون يعتقدون أنّه في إمكان الجزائريين القيام بمقاومة مسلحة بعد قضائهم على مقاومة المقراني (1871)، وواحة العمري (1876)، والأوراس (1879).

لقد كانت عشرية السبعينيات من القرن التاسع عشر، في نظرهم، نهاية تلك المقاومات الشعبية التي لم تتوقف منذ دخولهم إلى الجزائر سنة 1830. ويتضح ذلك الاعتقاد من تصريح الحاكم العام الفرنسي للجزائر آنذاك ألبيرغريفي Albert grevy في أكتوبر1879 حين قال: "إنّ عهد الانتفاضات قد انتهى". ولكن أحد الضباط الفرنسيين (تريمولي) كان قد نبه إلى هذه المسألة، وذكّر الفرنسيين بأنّ الصراع هنا ما هو إلاّ سلسلة من الحروب الصليبية بين الهلال والصليب، وأنّ الهدنة قد تقصر وقد تطول ولكن الصراع قائم، وأنّ

"الشعب الجزائري المسلم سيكون من اصعب قهره وإجباره على الاستسلام وخاصة سكان الصحراء. وأنّ الفرنسيين ليسوا أسيادا سوى على ساحل البحر، وأنّ الأهلي المسلم سيكون دائما العدو غير القابل للصلح"، وواصل تنبيه الفرنسيين إلى أنّ "الأهالي ورغم ما بذلنا لهم من مساعدات حضارية، فإنّهم بقوا على بربريتهم، وأن الأهالي المسلمين سيثورون كلما سنحت لهم الفرصة مهما كانت درجة مراقبتنا لهم".[77]

لقد كانت وسائل العنف والقوة -التي استخدمت لقمع المقاومين والانتقام من المدنيين العزّل وتوسع المعمرين هنا وهناك وانتشار القوات العسكرية الفرنسية في كل جهات البلاد- في نظر الفرنسيين، كلها عوامل قهرت الشعب "الأهلي" وأرغمته على الاستكانة والخضوع والقبول بالأمر الواقع. ولكن الواقع أنّ تلك السياسة هي التي كانت من أسباب قيام الانتفاضات الجزائرية المتتالية.

كان أوّل توغل للفرنسيين في منطقة الجنوب الغربي قد تم في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.[78] ولكن أول مركز أقامه العسكريون كان سنة 1853 في بلدة البيض (جيريفيل)، أمّا الاستغلال الاقتصادي لمنطقة السهول المرتفعة الغربية فقد بدأ في السبعينيات عن طريق منح السلطات الفرنسية للشركة الفرنسية الجزائرية الحق في استغلال نبات الحلفاء الموجودة جنوبي مدينة سعيدة، وذلك منذ 20-12-1873، وتكلفت الشركة بمد خط حديدي يربط

77 أنظر: Trumelet C. Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869, revue africaine N/23, 1879, P/253 à 257.

78 في عام 1845 وصلت قوة عسكرية إلى منطقة البيض تحت قيادة العقيد جيري، وفي عام 1847 وصلت قوة أخرى إلى منطقة القصور عامة تحت قيادة الجنرال كافينياك، تلتها قوة ثالثة عام 1849 تحت قيادة الجنرال بليسي. وقد قامت هذه القوات بالبطش بالسكان ونهب مدخراتهم. وفي عام 1852 وصل طابور جيري إلى البيض ثانية للشروع في بناء البلدة التي ستحمل اسم هذا الضابط الفرنسي (جيري-فيل Géry ville).

مدينة أرْزِيوْ الساحلية شمالا بمدينة سعيدة جنوبا، لاستغلال هذه المادة الأولية الصالحة لصناعة الورق بتصديرها إلى فرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية المتطورة آنذاك. وقد تحقق تنفيذ الخط المذكور ووصل إلى مدينة سعيدة فعلا في 28-09-1879، ومن سعيدة انطلق الخط الحديدي نحو الجنوب لتحقيق أهداف الاستعمار الاستيطاني والاستغلالي.

هكذا يتضح أنّ إنشاء الخطوط الحديدية في الجزائر كان الغرض منه استغلال المواد الأولية التي كانت الصناعة الأوربية في حاجة إليها، لشحنها عبر الموانئ الجزائرية إلى أوربا، ويتضح ذلك من اتجاه الخطوط الحديدية من الساحل إلى الداخل، عدا الخط الرئيسي الرابط بين شرقي البلاد وغربيها.

لاشك إذن أنّ ذلك التقدم الاستعماري نحو الجنوب الذي حاربه أولاد سيد الشيخ طويلا منذ سنة 1864، كان من أسباب اندلاع مقاومة الشيخ بوعمامة. هذا دون أن نهمل التأثر بما كان يعيشه عرب المشرق والمغرب من صراع ضدّ قوى الاستعمار الغربي، و من أوضاع داخلية مزرية نتيجة القهر الاستعماري.

ففي المشرق هناك حركة الجامعة الإسلامية التي ينادي بها السلطان العثماني، وهناك دعوة جمال الدين الأفغاني من أجل وحدة إسلامية قوية تقف في وجه المد الاستعماري الأوربي، وفي المغرب العربي هناك الحركة السنوسية التي كان مبعوثوها يجوبون الصحراء داعين إلى مواجهة الاستعمار، والتمسك بمبادئ الدين الأصيلة.

ويرى بعض المؤرخين الفرنسيين أنّ هذه الحركة الأخيرة كانت ذات تأثير كبير في افريقيا عامة، وبلاد المغرب العربي خاصة. إذ "يعزى إليها قيام

عدد هام من الانتفاضات، ولا تنسب إليها مذبحة فلاتر فحسب، ولكن أيضا، ولو جزئيا، مقاومة بوعمامة 1881".[79]

لقد توطدت العلاقات بين الجزائريين وبلاد المشرق والمغرب أكثر على اثر الهجرات المهمة والمتتالية للعائلات الجزائرية، سواء نحو سوريا وفلسطين أو إلى بلدان المغرب العربي المجاورة للجزائر[80] فكانت هذه العلاقات الجديدة عاملا لربط الجزائر بهذه البلدان وتسهيل انتقال الأخبار هنا وهناك.

كان الشيخ "بوعمامة" وهو يقيم في بلدة مغرار التحتاني منذ سنة 1875، يحس ويلاحظ ما يلاقيه الجزائريون من السلطات الفرنسية. ورغم أنّ الفرنسيين لم يكونوا قد سيطروا سيطرة فعلية على هذه الجهة، إلاّ أنّ الشيخ بتنقلاته في المناطق الشمالية وباتصاله بزوار الزاوية، كان على دراية تامة — باعتباره مثقف العصر في تلك الجهة آنذاك— بكل ما يحدث في الجزائر. لقد كانت الزاوية وأضرحة العلماء والأولياء ملاذا للمستضعفين والمشردين، حيث كانوا يجدون الأمن والاستقرار، وحيث كانوا ينفسون عن آلامهم اليومية، فيجدون من يستمع إليهم، وهم يبثون شكاويهم لبعضهم البعض، وكان أملهم، لاستعادة شرفهم المداس، كبيرا في هؤلاء "المْرابطين" للقيام برفع راية الحق ودفع الظلم عنهم.

لاشك إذن أنّ فكرة المقاومة كانت قد اختمرت في ذهن الشيخ منذ فترة السبعينيات، أي منذ استقراره في بلدة مغرار وإنشائه للزاوية الشيخية على بقايا آثار زاوية جده الأكبر سيد الشيخ. لقد كانت زيارات الشيخ إلى بلدة "الأبيض سيد الشيخ" لا تنقطع، وبخاصة سنتي 1878 و1879، كما زار مناطق عديدة في الشمال منها: مدينة تلمسان التي زار فيها ضريح العالم والولي الصالح

79 أنظر: Charles robert Agéron, Histoire de l' Algérie contemporaine, P/17.

80 أنظر: Djillali sari, IBID, P87.

"سيدي بومدين" للتبرك به، ويقال إنّه جاء خفية فذبح عجلا وزع على الفقراء، ثمّ غادر المكان بالطريقة نفسها، مما يدل على أن في الأمر سر،[81] وربما زار ضريح سيدي معمر بن سليمان العالية أول بوبكري استقر في الأراضي الجزائرية والمدفون بتلمسان.[82]

لقد رأى الشيخ أنّه أولى بقيادة الناس للخروج مما هم فيه من غم وهم، نتيجة الظلم الاستعماري الفرنسي وأعوانه من الجزائريين. ورغم أنّ الشيخ "بوعمامة" كان من فرع عادي من فروع عائلة أولاد سيد الشيخ الكبيرة، فإنّ نسبه إلى الجد المشترك "سيد الشيخ" يجعله في نفس المرتبة مع أولئك الذين يفتخرون بمآثرهم الماضية. لقد كان الشيخ يريد تلك "الزعامة الروحية بصفته وليا ملهما ومرابطا وارثا لبركة أجداده الصالحين وعلى رأسهم سيدي عبد القادر بن محمد، الشيخ الأكبر الذي تنتسب إليه جميع قبائل أولاد سيد الشيخ".[83]

كان من أهداف الشيخ أيضا، الحد من الخصومات الدائرة بين فروع أولاد سيد الشيخ، والتي كانت السلطات الفرنسية تعمل على إثارتها باستمرار، في إطار سياسة فرق تسد. لقد كانت أخلاقه وطبيعة نفسه الخيرة ترغب في لمّ شمل العائلة، والعودة بها إلى أيام وحدتها في عهد الجد الأكبر سيد الشيخ لمواجهة العدو الفرنسي في وحدة متراصة. وبالإضافة إلى ذلـــك فإنّ الرابطـــة

---

81 يقال إن حاجب الضريح آنذاك عاقبته السلطات الفرنسية بطرده واستبداله بغيره لعدم إعلامها بزيارة بوعمامة، وذلك حسب رواية حاجب الضريح الحالي: أبو بكر محمد بن مولاي أحمد المعصوم، 68 سنة، إمام متقاعد ووكيل الضريح، تلمسان 1995. توفي سنة 2002.

82 لهذا الولي ضريح بتلمسان بجوار المدرسة الفرانكو إسلامية التي بناها الفرنسيون في إطار المدارس الشرعية الثلاث، والتي حولت بعد الاستقلال إلى مقر لمديرية التربية والمتحف.

83 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، الجزء الأول، ص: 44.

الروحية التي تربط الشيخ بالناس عامة وبأتباع الطريقة خاصة، جعلت البعض من هؤلاء يدعونه إلى قيادتهم وإعلان المقاومة والتمرد على السلطات الفرنسية الاستعمارية، فكان يعدهم ويطلب منهم الصبر وانتظار الساعة و"باسم فكرة المجدد المنتظر، ظل باب الأمل مفتوحا أمام جمهور المسلمين في إصلاح آت لاشك فيه، وقد اتسمت فكرة المجدد بالواقعية التاريخية والحركة الدورية المستمرة".[84] كان الشيخ يخطط للحصول على التموين بالمؤن والذخيرة الحربية، هاجس كل الانتفاضات التي سبقته منذ مقاومة الأمير عبد القادر.[85]

كان الشيخ ينتظر نهاية فترة الحصاد ليحصل الناس على حاجاتهم من الحبوب اللازمة لمعيشتهم ومعيشة مواشيهم خاصة وأنّ المحصول كان ضئيلا، لأنّ سنة 1881 تميزت بجفاف كبير، وكانت شؤما على القطعان. ويبين الجدول التالي المعطيات المسجلة في إحصائيات 81 – 1882، وتناقص عدد رؤوس الحيوانات بين هتين السنتين.[86]

84عفت محمد الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، ب ت، ص: 326.

85 أنظر: Djillali sari, IBID, P/88.

86 أنظر: Empéranger, Etude sur les causes, les effets, les conséquences de l'insurrection de 1881.

نوع الحيوان / السنوات	إبل	أبقار	أغنام	ماعز	خيل	حمير
1881	14057	9830	226997	15928	1588	3112
1882	6785	3653	139534	11278	1096	2428
الفرق الناقص	7272	6177	87463	4650	492	684

ج- التحضير للمقاومة:

بدأ الشيخ يعِدُّ للمقاومة التي كان ينوي إعلانها في الوقت المناسب، وذلك بالتوعية السياسية وجمع الأسلحة وتعيين "مقدم" على كل قبيلة، يكلف بتنفيذ هذه التحضيرات. وبعد أن التفت حوله العديد من القبائل الراغبة في اتباع الطريقة الشيخية، بدأ يرسل مبعوثيه من مقدمي الطريقة إلى مختلف القبائل المجاورة له والبعيدة أيضا، يطلب منها الإستعداد "لأيام الفرح"، وإعداد ما يجب إعداده من مؤن وذخيرة، كما زار هو نفسه قبائل متعددة لإقناعها بضرورة إتباعه. فقد زار قبائل الرزاينة وأولاد خليفة وحميان والطرافي وأولاد التومي وأولاد أحمد. أما مبعوثيه فقد أرسلهم إلى القبائل التالية:

-المقدم مرزوق السروري: إلى قبائل الطرافي.

-المقدم الطيب الجرماني: إلى الأحرار الشراقة.

-المقدم العربي ولد الطيب: إلى الرزاينة.

-المقدم بلقاسم ولد لزغم: إلى أولاد زياد.[87]

يذكر أحد الفرنسيين أنّه "منذ سنة 1878 قام مقدمو بوعمامة بأعمال مشتبه فيها لدى القبائل البدوية جنوبي إقليم وهران، يبشرون بالجهاد ويسجلون الإخوان وينظمون جهودهم من أجل حركة عامة".[88] ويقال إنّ الشيخ كان يكرر في ظروف متعددة أنّه لن يطول الوقت حتّى يسمع عنه الكثير، وأنّ سلطته ستُعرف من قبل كل المؤمنين في الجنوب، وأنّ أيام فـــرح المسلمين ستعود قريبا.[89]

لقد قام هؤلاء المبعوثون بدور هام في التحضير للمقاومة أولا، وفي نشر أخبارها والاستعلام عن تحركات العدو ثانيا، وقد لمس ذلك الخطر كثير من المسؤولين الفرنسيين فراحوا يحذرون منه، يقول أحدهم: إنّ "للمسلمين وسيلتان لمحاربة فرنسا: وسيلة السلاح ووسيلة الدعاية الدينية. والثانية أخطر من الأولى. إنّ المفاجآت والاغتيالات وإقامة الكمائن والغارات، لا تمثل شيئا مهمّا بالمقارنة مع الحرب الخفية التي يقوم بها المبعوثون، الذين يذهبون إلى كل الجهات وينتقلون من منطقة إلى أخرى لتحريض المتعصبين. إنّ القبائل المنهزمة تهرب وتختفي في أعماق منيعة من الصحراء، وفي الواحات الأكثر بعدا، والتي تصلح لهم كملجإ. هناك يُعِدون، على مهل وبدون خوف، الانتفاضات بعد الانتفاضات لمواجهة الرومي."[90]

---

87 يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص: 249.

88 أنظر: Empéranger, Etude sur les causes les effets et les conseconces de l'insurrection de 1881, cercle de Tiaret, le 1e janvier 1883, archives de la wilaya d'Oran, N/4465.

89 أنظر: Bezy(le citoyen), Insurrection du sud Oranais, publié par le citoyen bezy, Oran collet, 1884 P/14.

90 أنظر: Duveyrier H. La confrérie religieuse de sidi es-senousi et son extension géographique, in l'Afrique par l. lanier, librairie classique Eugène, Berlin- Paris 1887, P/265.

لقد استقبل الاحرار الشراقة هذه الزيارات في مكانهم الشتوي الذي زارهم فيه المقدم بلقاسم بن لزغم. أما الطيب بن الجرماني فكان متواجدا عند الاحرار الغرابة.[91] و"عندما كانت مقاومة بوعمامة على الأبواب كانت قبائل منطقة تيارت من شاوية وأولاد زيان وأولاد قدور يمسكون سُبحة بوعمامة"ويترنمون كل مساء في تجمعاهم الكبيرة بهذه التعابير:

لا إله إلا الله　　وبوعمامة ولي الله

لا إله إلا الله　　وبوعمامة طير الصحرا

لا إله إلا الله　　وبوعمامة ضيف الله.[92]

لقد كان الشيخ يُظهر في وعظه وإرشاده ميولا استقلالية لم يرتح لها ضباط المكاتب العربية بالمنطقة، هؤلاء الذين اهموه بتحريض الشاب سي حمزة بن بوبكر، في نوفمبر 1878، الذي لقيه في بلدة "الأبيض سيد الشيخ"، للفرار إلى المغرب الأقصى، بعد أن كان محجوزا لدى السلطات الفرنسية، والتي سمحت له بزيارة جدّه سيد الشيخ. وقد اقترح ضباط المكاتب العربية سنة 1880 إيقاف الشيخ واعتقاله بسبب شعبيته والتفاف القبائل الصحراوية حوله. وفي هذا المجال أرسل قائد إقليم وهران حوالي مائة فارس من "القَوْمْ"[93] تحت قيادة الضابط دوكاستري Decastries سنة 1879 للإطلاع على أوضاع المنطقة الجنوبية الغربية، وخاصة مغرار حيث يستقر الشيخ. هذا الأخير الذي استقبل الضابط الفرنسي وأجاب عن أسئلته.

91يرى الضابط أمبرنجر Empéranger رئيس المكتب العربي لتيارت أن قدور بن الصحراوي قايد الاحرار لم يكن يخبر السلطات الفرنسية بهؤلاء المقدمين الذين يجوبون الجنوب داعين إلى الجهاد، وأنه هو وابنه خليفة يريان ولكنهما لايسمعان ولا يخبران بشيء، وأنه وعلى مسافة بعض الكيلومترات من خيمته كان اثنان من مقدمي بوعمامة يستمران في تحريض القبائل على الجهاد. وأنه ورغم الأوامر الصارمة لم يوقفهم و لم يخبر عنهم.

92أنظر: ...,Empéranger

93القوم: بتفخيم القاف حيما مصرية، هي فرق مجندة من الجزائريين تعمل تحت قيادة ضباط فرنسيين.

وبدل أن تكون العملية لصالح الفرنسيين جاءت على العكس من ذلك لصالح الشيخ وقضيته -معبرة عن المكانة التي يحظى بها الشيخ لدى مختلف الفئات الشعبية- حيث أظهر مرافقو الضابط الفرنسي من "القوم" إعجابهم بالزعيم الديني مما كانت له آثار خطيرة.[94]

أمّا الحاكم العام ألبير غريفي وبعض الضباط الآخرين فقد عارضوا إيقاف الشيخ خوفا من إثارة السكان الذين يحترمونه من جهة، واستهانةً بما يمكن أن يقدم عليه الشيخ من جهة ثانية.[95]

وفي بداية سنة 1881 قام الملازم الأوّل دوبانيير De Bannieres بزيارة لمنطقة القصور، فلاحظ العداء السائد تجاه الفرنسيين، وذلك بتشجيع من بوعمامة، وقد تبين له أنّ قبائل حميان جُمْبَة كانوا خدامه، أما الطرافي فكانوا يتقربون منه، وإذا كان أفراد قبائل حميان شافع يقاومون تأثيره، فإنّهم لن يذهبوا للقبض عليه إذا ما طلب منهم ذلك.

أمّا العمور والزوْا (أولاد سيد الشيخ) فكلهم موالين له، وأنّ "الخيام الكبيرة" من بني قيل وأولاد جرير ودوي مْنيع يقدمون له "الزيارة".[96] وأوضح الضابط الفرنسي في تقريره إلى الجنرال قائد ملحقة تلمسان، في 18 أفريل 1881، أنّ "العديد من البعثات القادمة من قبل قبائل الاحرار والرزاينة وأولاد سيدي خليفة وبني مطهر وكذلك الشعامبة، جاءت إليه (إلى الشيخ) خلال

---

94 يذكر "رين" في كتابه عن مقاومة المقراني سنة 1871 حادثا مشابها، حيث ركع القوم أمام الشيخ الحداد وقبّلوا رجليه، وذلك عندما أرسلوا سنة 1871 للقبض عليه.

95 أنظر: Geaule E. l'insurrection de Bouamama, Henri Charles lavauzelle, éditeur militaire, Paris 1905. P/13.

96"الزيارة": هي إكراميات أو هدايا يقدمها الزائر للولي المرابط الحي أو لخدام ضريحه و"مقامه."

فصل الشتاء تحمل إليه الهدايا والزيارات."[97] وقد لاحظ الضابط وجود بعض القبائل إلى جانبه مثل أولاد التومي والغياثرة وأولاد أحمد تأهبا لأي عمل عدواني قد تقوم به القوات الفرنسية، بل لقد اقترحوا عليه تزعمهم للهجوم على الفرنسيين، ولكنّه رفض ذلك طالبا منهم انتظار الساعة.

وفي المقابل شددت السلطات الفرنسية من مراقبتها للشيخ، فحاولت منع البدو من زيارته، وتمكنت بواسطة أعوانها —خاصة أحمد ولد القاضي باشاغا فرندة— من بث جواسيسها بين صفوف أنصاره.[98] وقد سارع هذا الباشاغا إلى إعلام السلطات الفرنسية، في 6 أبريل، بوجود مبعوثين من الشيخ إلى كل قبائل منطقة البيض وسعيدة وتيارت، إلى الطرافي والرزاينة والاحرار يدعوهم إلى الجهاد ويوصيهم بالاستعداد لحمل السلاح.[99] فعملت السلطات على منع هؤلاء المبعوثين من التحرك بحرية عن طريق حصارهم وتوقيف البعض منهم.[100]

---

97 أنظر: De lamartinière et lacroix, Document pour servir à l'etude du nord africain T/2, gouvernement général de l'Algérie, A. Jourdan, Alger 1897, P/ 336et 337.

98 هو ابن أخ مصطفى بن إسماعيل خصم الأمير عبد القادر وزعيم قبائل الدواير، حصل على عدة أوسمة من قبل السلطات الفرنسية.

99 أنظر: Bezy, Insurrection du sud Oranais, P35.

100 كانت الأوامر الفرنسية تدعو إلى القبض على أربعة مقدمين هم: الحاج حمزة بن مجدوب وعبد القادر بن مدني ومحمد بن عبد الحاكم وبلقاسم بن محمد وهم من الشاوية. كانوا يحملون رخصا للمرور ممضاة من قبل آغا الاحرار وليس من القيادة الفرنسية كما هي العادة. مكتوب عليها: " نسمح للحاج حمزة بن مجدوب واثنين من رفاقه من قبيلة الشاوية بالذهاب إلى بريزينة دائرة البيض للبحث عن جمل بني اللون أذنه اليمنى مشقوقة....الخ". وهي رخصة غير قانونية بالنسبة للسلطات الفرنسية. وقد سلم الابن الأكبر للأغا قدور بن الصحراوي الاثنين الأخيرين للسلطات الفرنسية. محمد بن عبد الحاكم يوم 29 جوي وبلقاسم بن محمد يوم 24 نوفمبر 1881.

وفي 22 أفريل سنة 1881 سار الضابط وينبرنير Weinbrenner نائب رئيس المكتب العربي للبيض (جيريفيل) إلى قبيلة الجرامنة[101] بواد الحجل بمكان يدعى اليوم رحّاب، شرقي الرقاصة بـ 13 كيلومتر، للقبض على بعض مبعوثي الشيخ كالطيب الجرماني ومرزوق السروري، لكن أهالي القبيلة رفضوا ذلك مما أدى إلى نشوب مشادات بين الطرفين، انتهت بمقتل الضابط الفرنسي وأكثر أعوانه من "القَوْمْ." فكانت هذه الحادثة هي الفتيل الذي أشعل نار الحرب وعجل بها، وانتقل الشيخ إلى العمل في ظروف خطيرة "ونادى بوعمامة بالجهاد الأكبر في شهر جمادى الأولى (أفريل 1881) وكتب إلى شيوخ القبائل المغربية والجزائرية وبعث إليهم رسله يحثهم على حمل السلاح لطرد النصارى من بلاد الإسلام."[102] وكانت الاستجابة كبيرة للشيخ المرابط، وأقبل الناس على الجهاد زرافات ووحدانا.[103]

101 هم فرع من قبائل أولاد زياد الشراقة.

102 عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء الثاني، ص: 74.

103قائد هذه المقاومة هو بوعمامة بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن محمد بن إبراهيم بن التاج بن عبد القادر بن محمد(سيد الشيخ). ولد حوالي سنة 1838. يختلف الناس في مكان مولده، فمنهم من يقول إنه ولد ببلدة فكيك، وقيل بل ولد في فرعة مستورة بالقرب من نخلات بن إبراهيم في واد زوزفانة، تعلم لدى بني عمومته وأخذ مبادىء التصوف عند شيخه محمد بن عبد الرحمن وهو من الزوا ببلدة بني ونيف، والذي أشار عليه بتكوين زاوية في بلدة مغرار الفوقاني سنة 1875.

مــراحل المقاومــة:

لقد خاض الشيخ بوعمامة حربا طويلة الأمد اختلفت مراحلها وأدوارها تبعا للظروف والأحداث، كان فيها الشيخ صابرا وصامدا، لم يقبل الاستسلام للعدو بل بقي بعيدا عنه إلى أن وافاه الأجل وهو حرّ طليق سنة 1908م.

ويمكن تقسيم مراحل مقاومة الشيخ إلى ثلاثة مراحل تبعا لطريقة المقاومة واختلاف الظروف المحيطة به.

المرحلة الأولى : مرحلة القوة 1881 –1882م

تبدأ هذه المرحلة بمقتل الضابط وينبرنير في عين الحجل في 22 أفريل من سنة 1881، حيث كانت هذه الحادثة هي السبب المباشر لإعلان المقاومة من قبل الشيخ بوعمامة، الذي كان قد أحس قبل ذلك بمحاولات السلطات الفرنسية الحد من نشاطه أو اعتقاله، فما كان منه إلاّ جمع قواته المتواجدة حوله في مغرار التحتاني (قلعة الشيخ بوعمامة)، وانطلق بها نحو الجهة الشرقية في اتجاه البيض، وانضمت إليه مختلف قبائل المنطقة كقبائل الطرافي وأولاد سيد التاج والعمور والشرفا وأولاد سيدي أحمد المجدوب وحميان جمبة، بالإضافة إلى أهالي مغرار(الغراريون) وأولاد سيد الشيخ وغيرهم...

وتعتبر هذه المرحلة مرحلة قوة ونشاط، أُرغمت فيها السلطات الفرنسية من عسكرية ومدنية، على توجيه جهودها نحو المنطقة الجنوبية الغربية أو الجنوب الوهراني، كما كانوا يسمونه، ودارت في هذه المرحلة معارك طاحنة ومواجهات عنيفة تكبد فيها الطرفان خسائر معتبرة.

في هذه المرحلة كان بقية زعماء أولاد سيد الشيخ ما يزالون في حالة مقاومة وتمرد على السلطات الفرنسية كالسي قدور بن حمزة وسي سليمان بن قدور وسي الأعلى، وقد جاء الشيخ بوعمامة ليعطي نفَسا جديدا لمقاومة أولاد

سيد الشيخ ويصبغها بصبغة دينية بأتم معنى الكلمة إلى جانب صبغتها الحربية. وقد أعطت هذه المقاومة الدليل القاطع على أنّ الشعب قادر على الانتفاضة والتمرد في كل حين رفضا للإحتلال والعبودية.

ويمكننا تقسيم هذه المرحلة إلى أربعة عناصر:

أ — معركة تازينة.

ب- المسيرة الكبرى.

ج- المسيرة الثانية.

د- بقية شهور سنة 1881 و سنة 1882.

أ — معركة تازينة:

انطلقت القوات الفرنسية من تافْرَاوَة جنوبي سعيدة متجهة إلى البيض للقضاء على الشيخ بوعمامة، وهي تحت قيادة الجنرال كولينيون دانسي Collignon Dancy الذي تخلى عن القيادة للعقيد إينوسنتي Innocenti على اثر مرض أصابه بمدينة البيض (جيرفيل آنذاك)، وتحرك العقيد إينوسنتي بقواته في اتجاه الشلالة صبيحة يوم 14 أفريل سنة 1881، وكانت تتكون من ثلاثة فيالق من المشاة وأربع سرايا من قناصة جيش إفريقيا وفرقة مدفعية وثلاث فرق من "القوم" (قوم الآغا الصحراوي وقوم الآغا قدور ولد عدة وقوم تيارت).

أمّا قوات الشيخ بوعمامة فقد انطلقت من مغرار التحتاني، حيث زاويته ومقر إقامته في اتجاه البيض، وفي تيورْطَلْت (على بعد 25 كيلومتر شمال شرقي عين الصفراء)، تجمعت القبائل من كل جهة، وانطلق طابور المقاومة في اتجاه الشلالة، حيث التحقت به طوائف أخرى من الطرافي[104] ومن غيرهم.

104انظر: De lamartinière et la croix : Document... Tome/2, P : 273-

وفي صبيحة يوم 19 ماي 1881م أقلع طابور الشيخ من الشلالة الظهرانية في اتجاه الشرق. وفي اليوم نفسه التقت القوتان: قوة الجيش الفرنسي النظامية المجهزة، وقوة الشيخ المعتمدة على الإيمان بالقضية والبسالة البدوية، وهي تتكون من2300 رجل،[105] وحسب مراسل، جريدة Le réveil de mascara، فإنّ قوات المقاومة كانت تنقسم إلى ثلاث فرق: فرقة من الفرسان على الميمنة وفرقة مماثلة على المسيرة أما المشاة فيغطون كل الوادي.[106]

كان اللقاء في أرض شبه مستوية إلى الشمال من "شبْكَة مزروع" وإلى الجنوب من عين تازينة وعلى بعد عشر كيلومترات شرقي الشلالة الظهرانية.[107] التحم الطرفان بعد هجوم المجاهدين على قوات إينوسنتي، والذين اندفعوا في اتجاه القوة الفرنسية غير آبهين بالمدفعية وبطلقات العدو التي كانت تصب عليهم من كل جهة، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن يربطوا برانيسهم ببعضها البعض، لتثبيت أنفسهم ورغبة في الانتصار أو الشهادة.[108]

وكان لمقدمي الشيخ دور كبير في الإقدام والبسالة، كمثال يتمثله بقية أفراد المجاهدين، إذ كانوا في مجملهم إما قادة وحدات أو حاملي اللواء يمثلون

105يقدر قرول عدد قوات الشيخ بـــ 1200 فارس و 1200 من المشاة. ص: 52.

106 أنظر جريدة:-Le réveil de mascara, N : 73, « Nouveaux détails sur le combat du 19-5-1881. ».

107 يسمي الكتاب الفرنسيون المعركة بـــ "مولاك" أو معركة الشلالة. أما سكان المنطقة فيسمونها بــ "معركة تازينة" ويسمون المكان بوبريط أو "مقيتلة بوبريط"، الذي يقولون إن قاتله هو أحد أفراد قبيلة أولاد سيدي أحمد المجدوب حين كانوا صحبة الشيخ بوعمامة. بينما الوقائع التاريخية تثبت أن الضابط Beauprètre قتل في معركة عوينة بوبكر سنة 1864 من قبل سي سليمان بن حمزة زعيم المقاومة الذي قتل هو بدوره في المكان نفسه.

108 رفيق حسن بن محمد، 61 سنة، بوشيخي وهران 1995 الذي يروي ذلك عن عدد من أسلافه. وكذلك رواية قاسمي بوعمامة بن محمد، 87 سنة، من الكرارمة فلاح وموال بالمحررة بالبيض 1995. ويذكر آخر: بوشيخي بوعمامة ولد بن أحمد، 65 سنة، تاجر بالسخونة 1995، أنه قتل لهم في ذلك اليوم 35 رجلا، وقد عقلوا أرجلهم كما تعقل الإبل، وقاتلوا حتى قتلوا في أماكنهم.

الروح الديني. وإذا كان المقدم غير مؤهل كمحارب فإنّ من السهل عليه أن يجد من بين المجاهدين رؤساء عسكريين مؤهلين لقيادة كل مجموعة للحرب، وفي هذه الحالة فإنّ المقدم يسير تحت إشراف هؤلاء الرؤساء ويعطي المثال في الطاعة في ميدان القتال.

وعلى اثر الاصطدام الأول تقهقرت قوات "القَوْم" التي كانت تتقدم قوات الفرنسيين أمام بسالة فرسان الشيخ، والتجأوا إلى الخلف، للإحتماء وسط الإبل المحملة بالأمتعة والذخيرة، مما أحدث اضطرابا في أوساط القوات الفرنسية.[109] وتقدم فرسان الشيخ يقتلون ويأسرون، أما المشاة فقد أوقفت المدفعية تقدمهم في أول الأمر.

انتهت المعركة بمقتل ستين جنديا فرنسيا واثنين وعشرين جريحا، وخسر المجاهدون حوالي مئتي قتيل[110] أمّا تقارير العقيد إينوسنتي فقد كانت تصل البيض لتنقل بواسطة فارس خاص إلى مدينة سعيدة من حيث تبعث تلغراما إلى وهران، كانت تذكر من المعلومات ما يلي: "الملازم الأول لانيري Lannyrie التابع لفرقة قناصة إفريقيا والجريح في معركة 19 ماي مات. لقد فقدنا 34 قتيلا منهم 24 من قناصة إفريقيا. و 26 مفقودين منهم 18 من قناصة إفريقيا. و20 جريحا منهم 10 من قناصة إفريقيا." ويقدر إينوسنتي خسائر خصومه بـ 400 قتيل. ويذكر أن عملية إعادة تنظيم الطابور لم تسمح لهم بالسير نحو بلدة الشلالة، وأن معسكرهم هوجم ليلة 20-21 دون خسائر. وأن الطابور المعاد تنظيمه لم ينطلق من تازينة سوى صبيحة يوم 21 ماي على الساعة السادسة

---

109 أنظر: -Gendre F. La region des ksour du sud oranais, revie tunisienne, N : 16, 1909. P : 456.

110 أنظر:.Graule, Insurrection de Bouamama, P : 48

صباحا في اتجاه الشلالة الظهرانية. وأن نيران مخيم بوعمامة تتراءى على بعد 12 كيلومتر في عين الحجر.[111]

لقد تم القضاء في هذه المعركة على كل القناصة، كما قتل الملازم الأول لانيري قائد مجموعة قناصة إفريقيا. أما الإبل المحملة بالمؤن فقد تفرقت وابتعدت عن مكان العمليات، ولم تتمكن القوات الفرنسية من استعادة سوى ثلثي عددها، بعد استنجاد القائد الفرنسي إينوسنتي برجال قبيلة الرزاينة، الذين كان عليهم الحفاظ على حيواناتهم حتّى يتمكنوا من الحصول على تعويضات من السلطات الفرنسية. ومما ورد في هذا المجال أنّ طابور إينوسنتي قد "هوجم على حين غفلة مما أدى إلى خسائر كبيرة، وانسحب بصعوبة وترك كل قافلة التموين للمتمردين، وأن حماس الانتصار أدى إلى انتشار حركة أولاد سيد الشيخ على نطاق أوسع".[112]

كانت هذه المعركة نصراً لقوات الشيخ رغم أنها لم تكن متكافئة، إذ أن إقدام المهاجمين وتحديهم للمدفعية أدى إلى تفكك صفوف الجيش الفرنسي وشل المدفعية، مما كان له أثر سيء على معنويات القوات الفرنسية التي انسحبت بعد أيام في اتجاه الخيذر، ورفضت الدخول مع قوات الشيخ بوعمامة في معارك أخرى لا تعرف نتائجها. أما قوات المقاومة فقد أخذت وجهة بلدة الابيض سيد الشيخ.

وقد واصل المجاهدون الجزائريون تحديهم للقوات الفرنسية بتتبع قسم منهم لمسيرتها بعد المعركة، وقد ذكر الضابط إينوسنتي في تقريره أن قوات بوعمامة كانت تتواجد يوم 21 ماي على بعد 12 كيلومتر من عين العرجة،

111جريدة Le réveil de mascara, ليوم 29 ماي 1881. تحت عنوان: "تجديد الغرب".

112 أنظر: -Michel carronges, Charles de foucauld, Editions du cerf, 1954, Paris, P : 31.

وأن دخان معسكره يتراءى للعيان، وهكذا تعرضت قوات الفرنسيين لهجوم المجاهدين الجزائريين في الليلة الفاصلة بين 21و 22 ماي،[113] كما تعرضت أيضا للهجوم وهي في طريقها إلى النعامة مروراً بالشلالة ثم عسلة، مما أدى إلى مقتل ضابط من قوات اللفيف الأجنبي هو الملازم إيسكاليي M.Escalier وأحد جنود فرقة "الزواف" Zouaves .

ومما يدل على تأثر معنويات الجيش الفرنسي سلبا، هو تغيير إينوسنتي بالجنرال ديتري -القادم من وهران- على رأس هذه القوات. وقد حاول الضباط الفرنسيون منع "القوم" من نشر خبر انتصار الشيخ بعد وصولهم إلى البيض، وأصدروا أوامرهم بنشر خبر انتصار الفرنسيين.

لقد صور الفرنسيون المعركة على أنها نصر لهم، ونوهوا بالجنرال إينوسنتي قائد القوات الفرنسية بهدف الرفع من معنويات أفراد الجيش الفرنسي والتقليل من حركة الشيخ في نظر السكان الجزائريين والمعمرين على السواء. والحقيقة أن "موقعة مولاق كانت نصراً لبوعمامة لم يحسن استغلاله كاملا، وهزيمة للجيش الفرنسي كانت له درساً قاسياً استفـــاد منه".[114]

وقد عُلِم، فيما بعد، أن رئيس الجمهورية الفرنسي قد مزق مرسوم تعيين إينوسنتي في رتبة جنرال، وهو ما يفسر علم السلطات العليا بمجريات الأمور، وهذا يعني أنه لايمكن تصديق ما سمي بانتصار الشلالة.[115]

---

113 أنظر: -Le réveil de mascara, 12 juin 1881, sous le titre : « Détail sur le combat du 19 mai. »

114عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، الجزء الأول، ص: 12.

115 أنظر: -Le petit fanal (Oranais), lundi 12 juin 1882, N° 377 , sous le titre : « Le sud ».

ومما يؤكد هزيمة الفرنسيين في تازينة ما كتبه "بيزي" Le citoyer Bezy محرر صحيفة Le petit fanal من وهران، بعد شهر ونصف من المعركة، حيث يقول: وصلتنا معلومات هامة وأكيدة، مؤداها أننا قد فدَيْنَا عددا من الأسرى الفرنسيين من خصمنا، وبذلك كنا على صواب، إذ لا يمكننا فعل شيء آخر، لكن ورغم ذلك فإن الأمر مخجل حقا، فقد أجبرنا على التفاوض مع "حضرة" بوعمامة الند للند.[116]

وقد تلا هذه المعركة الكبيرة، معركة تازينة، مفاجأة قوات الشيخ بوعمامة لـــ"قَوْمْ" المرابطين الغرابة، باش آغاليك فرندة، في الخضر elghodeur جنوبي البيض، وهم تحت قيادة القايد الطيب بن حمو المكلف بضمان مصلحة المراسلات مع طابور العدو. كان ذلك يوم 25 من شهر ماي 1881، فألقى القبض عليهم، ثم أطلق الشيخ سراحهم مما كان له أثر حسن على نفوس القوم وعلى قائدهم الذي أقسم على الوفاء للشيخ.[117]

ومن البيض اتجه الشيخ بقواته نحو واد سيد الناصر، وبذلك خرج من جبال القصور في اتجاه السُهول المرتفعة بعد أن تقوى بانضمام أعداد من سكان جبال العمور، وكانت المعلومات تصله عن تحركات العدو وعن عدده من قبل أعوانه وخاصة من قبل الطيب بن حمو السابق الذكر.

وقد ذكرت صحيفة :Le réveil de mascara- ليوم 11 جوان، أن العقيد إينوسنتي عاد إلى مدينة معسكر رفقة الأركان العامة وبعض ضباط القناصة، منذ أسبوع. وأن هذا الضابط استلم قيادة Subdivision وترك سريته كلها تقريبا في يد ضباط سامين آخرين.

---

116 أنظر: .IBID, mercredi 6 juillet 1881, sous le titre : « Bouamama »

117 أنظر: .Djillali sari, L'insurrection de 1881-1882, P :100 et 101-

ب – المسيرة الكبرى (جوان 1881):

قام الشيخ بوعمامة بمسيرة كبيرة أشار إليها الكثير من المؤرخين، كانت نصراً له ولأتباعه، حيث لم تتمكن القوات الفرنسية من الإمساك به، رغم استنفار أعداد ضخمة منها تحت قيادة أكبر قادتها آنذاك، وتمكن الشيخ من تنفيذ خطته والعودة إلى نقطة الانطلاق بسلام.

انطلقت المسيرة من الجنوب، ومن الأبيض سيد الشيخ بالذات، في اتجاه الشمال نحو تيرسين جنوب غربي فرندة، وشرقي مدينة معسكر لتعود ثانية إلى الجنوب في بوسمغون. وقد استغرقت مدة ثلاثة وعشرين يوما، أي من 30 ماي إلى 21 جوان 1881.

لقد تحاشت قوات المسيرة المرور بالمراكز الرئيسية لتواجد القوات الفرنسية فيها بكثافة كبيرة، والتي كانت في حالة استنفار قصوى طيلة زمن المسيرة، كما استعانت بما كان يأتيها من معلومات عن قوات العدو، "ففي الوقت الذي كان بوعمامة على علم بكل أعمالنا وتحركاتنا بقينا نحن في الجهل التام بكل تحركاته".[118]

لقد مرت المسيرة أولاً بارْبَوَاتْ (29 ماي) فعين العُراك (30ماي) فستيتن (31ماي) فسيد الناصر (3 جوان) فعقلة العسكورة (5 جوان) فسيدي عبد الرحمن (6 جوان) فتيرسين (7 جوان)، وهو طريق يقع إلى الشرق من الشط الشرقي، لتعود المسيرة من الجهة الغربية للشط نفسه، أي الإحاطة به دون أن تلتقي بالقوات الفرنسية.

---

118 أنظر: -Graulle, insurrection de Bouamama, P :54.

وعندما كانت قوات الشيخ متواجدة بين سعيدة وفرندة، وعلى بعد حوالي 50 كيلومتر فقط من مدينة معسكر، انتاب الفرنسيين في هذه المدينة الخوف والفزع، فلو علم الشيخ بخلو المدينة من الفرق الفرنسية لدمرها بقواته دون أن يجد أية مقاومة.[119]

ومن تيرسين انقسم المجاهدون، خلال عودتهم، إلى عدة فرق، اتخذت عدة اتجاهات لتلتقي بعد ذلك، بعد اجتيازها للشط الشرقي، وتعود إلى الجنوب مارة بذراع العود فمشرية فالتواجر (17 جوان) فالنعامة فمسيف فعسلة (20 جوان) فبوسمغون (21 جوان).

وخلال هذه المسيرة قامت قوات الشيخ بالاستيلاء على قطعان بعض أعوان الفرنسيين ومهاجمة أغوية فرندة، ولاحقت أولاد زيان والمرابطين في تيرسين، وهاجمت طوائف من قبائل الحساسنة واعتقلتهم. ومر جزء من قوات المسيرة ببلدة خلف الله فحطمت منشآت الشركة الفرنسية الجزائرية لاستغلال الحلفاء، بهدف التأثير على السكان الأوربيين، وذلك يوم 11جوان. وقد ابتدأ الهجوم على الساعة الواحدة زوالاً،[120] وتم القضاء على العديد من حراس وعمال الورشات. وقَطَعَ جنود المسيرة الخط الهاتفي الرابط بين فرندة والبيض، هذا ما أشارت إليه وأكدته إحدى الصحف الفرنسية آنذاك بقولها: "لا جديد عن الشلالة على اثر قطع التلغراف الرابط بين البيض وفرندة".[121]

---

119 أنظر: -Le réveil de mascara, N° 73, du 19 juin 1881, sous le titre : « depèches officielles. »

120 أنظر: -Echo d'Oran du 18 juin 1881 sous le titre : « Le massacre du sud. »

121 أنظر: Graulle, P :68. et –Le réveil de mascara N° 70 du 29 mai 1881 sous le titre : « nouvelle de l'ouest. »

وعموما فإن جنود المسيرة أغاروا على القبائل الموالية للسلطات الفرنسية في كل من نواحي البيض وفرندة وسعيدة وتيارت، مما أحدث هلعا في وسط الفرنسيين والقبائل الموالية لهم، فأفرغت مدينة سعيدة من سكانها الأوربيين بعد أيام، وحدث مثل هذا الهلع لكل المعمرين في القرى المحيطة، مثل سوقر "تريزيل"، والذين اتجهوا نحو مدينتي معسكر وسيدي بلعباس. أما القوات الفرنسية المستنفرة خلال المسيرة بهدف الحيلولة دون ولوج الشيخ المنطقة التلية بقواته، فكانت تتكون من عدة طوابير، حسبما ذكر قرول وهي:

- طابور الجنرال ديتري Détrie الذي خلف إينوسنتي، وكان هدفه البيض.
- طابور برنوتيار Brunetiere كان متمركزا في مدريسة لحماية فرندة وتيارت.
- طابور العقيد مالاري Mallaret متمركز في الخيذر.

بالإضافة إلى قوات أخرى متمركزة في سفيسيفة لحراسة نقط الماء في المنطقة وخاصة في قدرة وبدروس. إلى جانب قوات من القوم متمركزة في تافراوة وخلف الله، لحماية المركزين، وخاصة منشآت الشركة الفرنسية الجزائرية Compagnie franco- Algérienne، وقد حاولت القوات الفرنسية منع قوات الشيخ من الاتصال بالسكان، وإجبارها على السير بسرعة حتى تفتقر إلى التموين وخاصة المياه في فترة الصيف الحار والجاف. ولكن هذه القوات الفرنسية لم تحصل من ذلك على طائل، لقد انتابها الخوف من قوات الشيخ، "إذ مر المقاومون في 15 جوان بجوار طابور مالاري في الخيذر وكانوا في متناول بنادقه، لكنه لم يعط الأمر بالهجوم لأسباب غير معروفة"،[122] مما مكن الشيخ من البقاء في عين فكارين خلال أيام 16 و17 و18 جوان. أما العقيد مالاري

---

122 أنظر: IBID.

فلم ينطلق من الخيذر سوى يوم 19 جوان لملاحقة الشيخ حيث لم يكن باستطاعته اللحاق به آنذاك.

أما قوات أعوان الفرنسيين فقد قامت من جهتها بعمليات ضد القبائل العزل، وهكذا قام آغا الأحرار قدور الصحرواي، بدعم من طابور برونوتيير يوم 14 جوان، باعتراض قبائل الأغواط اكسل- من منطقة جبال العمور، الذين ثاروا معلنين ولاءهم للشيخ، وهاجموا أعوان الفرنسيين في كل من تاجرونة والغاسول، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق بالشيخ بوعمامة- وانتزع منهم في بلدة مادنة حوالي 1000 جمل و900 بقرة و4500 رأس من الغنم، كما اعتقل كل أفراد قبيلة أولاد سيد الناصر الذين التحقوا بالأغواط اكسل، وقتل منهم 85 شخصا، واتجهت قبيلة الأغواط اكسل بعد ذلك شرقاً حيث التقت بقوات طابور فرنسي في عين الخشب وتكبدت في المعركة خسائر هامة.

كما قام آغا فرندة وآغا سعيدة بالدعم نفسه لقوات الاستعمار، وقد اتجه آغا سعيدة بقوات من "القَوْمْ" تمثل نحو 800 فارس نحو الشط جهة البيض، حيث اشتبك مع قبائل الطرافي.

لقد كان الجيش الفرنسي يفوق جيش الشيخ عدداً وعُدَّة، ويمتلك وسائل متطورة للاستعلام والإطلاع، ومع ذلك فإن الشيخ بوسائله البسيطة والقليلة تجاوز الخط الفاصل بين التل والصحراء، وتمكن من غزو عدة قبائل موالية للفرنسيين والاستيلاء على عدة غنائم منها، و"خلال هذه المسيرة أخذت المقاومة حجما غير منتظر، لقد استغل بوعمامة معركة مولاق (تازينة) باعتبارها نصراً له، وضم إليه أنصاراً جدداً"[123] كالأغواط اكسل وسيد الناصر ومقنة.

123أنظر: -Noel H., Document pour servir à l'histoire des Hamyane et de la region qu'ils occupent actuellement, bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran, 1916 ; P :6.

هكذا فشل الفرنسيون في معرفة مصدر قوة الشيخ التي دوخت عساكرهم، وها هو أحد الصحفيين يتساءل عن الوسائل والطرق المستعملة من قبل الشيخ قائد الحركة في مقابل طرق ووسائل العساكر الفرنسية، وهي نفسها التي كانت للأمير عبد القادر في مواجهة وسائل القوات الفرنسية آنذاك، إنه "عبد القادر الثاني، وهو يمتلك الوسائل نفسها، كما أن جنودنا هم أيضا لهم الوسائل نفسها التي كانت لديهم منذ 36 سنة خلت".[124]

لقد فاجأت المقاومة الجزائرية السلطات الفرنسية، خاصة وأنها جاءت من زعيم ديني كانت تعتقد في بساطته ودنو شأنه. وتغير موقف الحاكم العام غريفي الذي اتخذ إجراءات عديدة لوقف هذا الزعيم "الصغير"،[125] كما قام وزير الحربية بإصدار أمر لإقامة مراكز عسكرية جديدة في الجنوب، وبخاصة في المناطق التي يتواجد بها الشيخ بوعمامة، وبوضع طابور متحرك في الاتجاه نفسه.[126]

ج – المسيرة الثانية (جويلية 1881):

في أوائل شهر جويلية سنة1881، عاد الشيخ بقواته إلى الشمال لإظهار قوته ولإخضاع بعض القبائل كالاحرار الشراقة، وتأديب قوم فرندة وقوم آغا إدريس. وقد اختار الشيخ موسم الحرارة لاختراق مراكز الجيش الفرنسي، فأرسل "العيون" للاستعلام عن الفرنسيين وأعوانهم.

وقد اتبع الخط التالي في سيره: فمن مشرية انطلق يوم 5 جويلية، مرورا بالبُيوضْ شمالا فالخيذر التي خاضت بها إحدى فرقه معركة ضدّ النقيب جاكي Jacquey يوم 5جويلية،وقد هاجمت قوات الشيخ الفرنسيين المتواجدين بمركز

---

124 أنظر: -Echo d'Oran, N° 4750 du 30 juin 1881 sous le titre : « Nouvelle de l'ouest. »

125أنظر: -Djillali sari L'insurrection, P : 90.

126أنظر: برقية مؤرخة في 6 جوان 1881. IBID.

الخيذر وأرغمتهم على الاكتفاء بالدفاع. يقول قرول عن قوات الشيخ: "إنّ فرسان بوعمامة قبلوا القتال بشجاعة".[127] ويذكر أنّ المجاهدين اتبعوا طريقة الكر والفر المعروفة عند البدو. أمّا عدد قوات الشيخ كلها فبلغت حوالي 400 فارس من الشعامبة وهم على المهارى، و2500 من المشاة شارك جزء منهم في معركة الخيذر.[128] وقد تمكنت قوات الشيخ من قتل ضابطين فرنسيين وإصابة ستة جنود آخرين بجروح متفاوتة. أما عدد قتلى المهاجمين فبلغ قتيلان وجريحان اثنان.

ومن الخيذر اتجهت قوات الشيخ إلى البترا، ثمّ مرت شرقي الشط الشرقي، ثمّ عادت إلى مدريسة في 14 جويلية، ثمّ مرت بجوار دار حمزة بن مجدوب شمال شرقي الشط، ثمّ عادت إلى بلدة مادْنَة يوم 15 جويلية فبَدْروس، وأخيرا وصل المجاهدون إلى بلدة التواجر جنوب شرقي المشرية التي انطلقوا منها أول مرة.

ولم تتمكن القوات الفرنسية المتواجدة في المراكز المستقرة بالمنطقة من اعتراض سبيل قوات الشيخ رغم عددها وعدتها الضخمة، حيث كانت السلطات الفرنسية قد أنشأت أربعة طوابير لحماية التل جيدا، ومراقبة النقط الهامة للدخول إليه مثل:

-طابور جانان Jannin في "رأسْ الْمَا" جنوب غربي الضاية.
-وزويني Zwiney في الخيذر.
-وبرونوتيير في تيارت.

---

127 أنظر: -Graulle, insurrection de Bouamama, P :92.

128 يذكر قرول ص: 92 أن عدد المهاجمين في معركة الخيذر هو 200 فارس.

-وتارديو Tardieu في البيض[129] في انتظار وصول العقيد نيقري الذي سيقوم بتفجير قبة الولي سيد الشيخ.

ولم تلتق قوات الشيخ مع الفرنسيين سوى في عين ولهاصي في 14 جويلية مع قوم الآغا صحراوي التي منعتها من التزود بالماء، حيث وقعت مناوشات بين الطرفين، لكن ظهور طابور برونوتيير جعل قوات الشيخ تنسحب متحاشية الوقوع بين نارين.

د – أحداث بقية شهور سنتي 1881 و1882:

كان هدف الفرنسيين البعيد هو ردع قوات الشيخ والوصول إلى معاقلها وقواعدها الخلفية في مغرار والجهات المجاورة لها. وقد أعدوا لذلك العدة، واستغلوا السكة الحديدية المنطلقة من المحمدية شمالا والمتجهة نحو الجنوب الغربي مرورا بسعيدة، لتجميع مخزونات المؤونة في كل من البيض ومشرية. وقد وضعت السلطات الفرنسية أعمال السكة الحديدية تحت حماية طابور قوي يقوده الضابط كولونيو Colonieu العارف جيدا بمشاكل المنطقة الجنوبية الغربية. وهو أحد الضباط الأربعة المكلفين من قبل مكماهون بدراسة مخطط عمل لتنظيم الجنوب الغربي الجزائري في نهاية الإمبراطورية الثانية،[130] مما يبين أهمية المنطقة في الإستراتيجية الفرنسية، المحاذية للمملكة المغربية، والتي تمثل أحد أبواب الصحراء الكبرى المتصلة بمختلف البلدان الإفريقية مطمح الاستعمار والرأسمالية العالميتين.

129انظر: -Noel H. Document pour servir à l'histoire des Hamyane, P :8 et –Graulle, Insurrection… P ; 91.

130 انظر: -Djillali sari, l'insurrection de 1881-1882, P :122.

في هذه المرحلة من نهاية سنة 1881، كلفت السلطات الفرنسية الجنرال دي لبيك Délébecque باختيار مركز جديد للتحكم في المنطقة الجنوبية الغربية، فوقع اختياره على بلدة عين الصفراء التي تتحكم في مدخل جبال القصور، كنقطة ذات موقع جيد لمراقبة كل المنافذ وسط جبال القصور بين السهول المرتفعة شمالا والصحراء جنوبا، وتتوسط المراكز الحضرية في المنطقة، وتقع بين بلدتي سفيسيفة وتيوت، هذه الأخيرة التي كان الملازم بانيير Bannière من المكتب العربي لسبدو، قد أشار إليها كمركز جيد ومناسب، وقد وقع اختاره على هذه البلدة؛ في رحلته خلال شهر فيفري من سنة1881.

وقد أجل الفرنسيون البت في الأمر آنذاك، لكن أحداث مقاومة 1881 عجلت باختيار الموقع القريب من مواقعها وهي عين الصفراء، والاقتراب أكثر من الجنوب للسيطرة عليه، حيث وصلت الطوابير الفرنسية التي كانت مكلفة بمطاردة قبائل العمور، إلى عين الصفراء في 14 ديسمبر 1881 للاستقرار بها، وقد بدأ الجند حينا في إنشاء جدار خارجي مؤقت من الأحجار الجافة، والذي أصبح فيما بعد ثكنة عسكرية.[131]

لقد أدى اندلاع هذه المقاومة سنة 1881م إلى التعجيل بتنفيذ مشروع السكة الحديدية المنطلق من أرزيو والمحمدية في اتجاه الجنوب الغربي، لاستغلال الحلفاء بالدرجة الأولى، وهكذا قدّم وزير الحربية الفرنسي قانون توسيع خط أرزيو – سعيدة (171 كلم) حتّى الخيذر وإلى مشرية.[132]

131أنظر: -De lamartinière et La croix, Document pour servir… P !144.

132أنظر: -Maurice-antoine bernart, Les chemins de fer Algérienne, adolphe jourdan éditeur, Alger 1913, P : 19.

وصل الخط الحديدي إلى الخيذر في نهاية سنة 1881 وإلى مشرية سنة 1882.

وتحت ضغط الرأي العام الفرنسي، بعد هزيمة 19 ماي وما أصاب المعمرين وأعوان السلطة الفرنسية من فزع، قام الجنرال نيقريي قائد طابور البيض بتفجير قبة سيد الشيخ المتواجدة في بلدة الأبيض سيد الشيخ،[133] بعد أن استخرج بقايا عظام الجثة وتم إرسالها إلى البيض، كما أحرق القرية بمساكنها، تلك القرية ذات القباب السبع -كما وصفها مراسل جريدة " Le réveil de mascara" الذي رافق الطابور— حدث ذلك التفجير في الليلة الفاصلة بين 15 و16 أوت سنة 1881، انتقاما من المقاومين ومحاولة منه القضاء على مثل هذه الحركة، "لأنّ المقاومين من أولاد سيد الشيخ ومن لف لفهم، كانوا يتعهدون تحتها على قتال الفرنسيين".[134]

وقد نوهت الصحافة الاستعمارية بهذا العمل الذي اعتبرته انتقاما لقتلى معركة الشلالة(تازينة)، وقامت حملة كبيرة لجمع التبرعات من الفرنسيين لاهداء "سيف شرفي" لهذا "البطل الباسل"، وكان للصحافة في هذا الأمر دور الريادة.

وظهرت حملة فرنسية عارمة تحذر من خطرٍ مصدره الشرق (عربي وعثماني)، فقد أخطر وزير خارجية فرنسا الحكومة العامة، في سبتمبر1881، بأنّ هناك كتيِّبات مطبوعة في القسطنطينية تحرض الجزائريين على الثورة ضدّ الكفار وأنّها دخلت سرا إلى الجزائر. وأنّه قد اكتشفت نداءات غامضة في "بلدية سبدو المختلطة" في شهر أكتوبر سنة 1881 تتنبأ بدخول شريف يقود الناس نحو التحرر.

133يذكر الضابط نيقري في تقريره إلى الجنرال قائد ملحقة سعيدة بتاريخ 28-8-1881، أن "هذه القبة هي التي جاءها بوعمامة، ونادى فيها بالحرب في شهر فيفري، وأنها مكان مفتوح للإعلان عن الجهاد، وقد قامت سنة 1864 بالدور نفسه."

134 عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط 1979، ص: 76.

كما حذر وزير خارجية فرنسا مواطنيه من السنوسيين الذين يتنقلون في كل مكان للدعوة إلى مواجهة الاستعمار، وأنّ السلطات الفرنسية في الجزائر اكتشفت طرودا بريدية في مكاتب البريد، موجهة من تركيا، ومكتوب عليها "لجنة الدفاع عن حقوق الشعوب العربية"، نحو بعض أعيان الجزائر.[135] وقد كان الغرض الأساسي من هذه الحملة هو دفع السلطات الاستعمارية إلى مواجهة مقاومة الشيخ بوعمامة بكل حزم وأن لا تستهين بها.

وقام الفرنسيون بهجوم شامل على القواعد الخلفية للمقاومة، كما ذكرنا سابقا، ففي شهر أكتوبر من سنة1881 اتجهت ثلاثة طوابير نحو عين الصفراء واستقرت بها، وكانت تحت قيادة الجنرال دي لبيك Délébecque وبمساعدة Colonieu وLouis و Négrier. وكان الغرض هو حصار قبائل العمور. خرجت هذه الطوابير لتمشيط المنطقة الجبلية غربي عين الصفراء. وقد هوجمت إحدى هذه الطوابير التي كان يقودها الجنرال Colonieu، إلاّ أن أكثر المهاجمين أجبروا على الانسحاب نحو فكيك.

أمّا بعض الفروع من العمور فقد اعتصموا بالجبال الشامخة في المنطقة في انتظار ما يجدّ في الأمر، وقد تتبعتهم القوات الفرنسية السابقة الذكر، ممّا أدى إلى نشوب معارك بين الطرفين في جبال: مِيرْ الجّبَالْ ومْزِي وبْنِي سْمِيرْ جنوب غربي عين الصفراء، وقد قاوم هؤلاء بعناد وإصرار. وكان يوم 5 نوفمبر يوما دمويا وفاصلا، ففي المنحدر الشرقي من جبل بْنِي سْمِير خاض المجاهدون المعتصمون بالجبل، معركة شديدة صمدوا فيها وواجهوا القوات الفرنسية بكل عنف،[136] وكانت النساء تشجعن الرجال على القتال "إنّها ملحمة، الموت

---

135 أنظر: -Echo d'Oran N° 4821 du 15 décembre 1881 sous le titre : « dans le sud. »

136 يقدر قرول ص: 11 عددهم بـــ 600 رجل.

يحصد صفوفنا –كما يقول أحد الصحفيين المرافقين للحملة– ولْوَلة العدو تختلط بصياح جرحانا. دامت المعركة ساعتين، كان المشهد حزينا يفجع الحاضرين، انتهت المعركة بسبعة قتلى واثنا عشر جريحا من الفرنسيين منهم اثنان برتبة مساعد."[137] لكنّ عدة العدو التقنية كانت شديدة وقاسية على هؤلاء الذين فقدوا عددا هاما من الرجال منهم سي الشيخ بن محمد قائد أولاد سيد التاج.[138] واستولى الفرنسيون على حوالي 150 جملا و200 بقرة و600 شاة وعلى عدد من الخيام. وقد أجبر المجاهدون على الانسحاب إلى ما وراء الحدود الجزائرية.

ويذكر مراسل الجريدة –المصاحب للطوابير– أنّ المقاومين المحميين بطبيعة الأرض لم يتقهقروا، لقد استفادوا من طبيعة الأرض الوعرة التي تعيق استخدام التفوق التقني حتّى حدوده القصوى، لقد خاضت القوات الفرنسية المعركة في ظروف صعبة.

وفي 08 نوفمبر وصل أحد هذه الطوابير إلى حواف واد درمل في مكان يدعى الحاج ميمون، هناك قام "قوْمْ" الفرنسيين بالاستيلاء على حوالي 2000 شاة لسكان المنطقة، ويذكر مراسل الجريدة دائما أنّه رغم كل الاحتياطات المتخذة فإنّ العدو يحيط بنا، وهكذا وفي وضح النهار تم اغتيال أحد الحراس وأحد جنود "الزواف"، كما قتل عسكري آخر ذهب للتزود بالماء وجرح حصان جرحا بليغا في الظروف نفسها.[139]

137أنظر: -Le réveil de mascara N° 103 du 15-1-1882.

138 أنظر: -De la martinière et la croix, P : 321.

139 أنظر: -Le réveil de mascara N° 105 du 29-1-1882.

إنّها حرب الكر والفر، الحرب العربية القديمة، إنّ تفوق العدو لم يسمح للمجاهدين بحرب المواجهة، ولكن هذا لم يمنعهم من مناوشته هنا وهناك وإعاقة تقدمه وإقلاقه ليعيش على أعصابه، واغتنام فرص انشغاله وتشتت قواته لمهاجمته، يقول أحد منظري حرب العصابات موجها ومخططا: "هاجموا عدوكم بصورة مفاجئة عندما تكون قواته مبعثرة، واعملوا بشكل تحققون معه انتصارات جديدة مهما كانت صغيرة.[140]

إنّ معرفة المجاهدين بالأرض جعلتهم قادرين على تحقيق الهجمات المفاجئة والظهور على حين غرة حين لا ينتظرهم العدو، وخاصة خلال العمليات الليلية، حيث يسهل الاختفاء بعد الفشل لإعداد عملية جديدة في مكان آخر، "إنّ المفاجأة هي أساس التكتيك الهجومي لجماعات التحرير المدربة التي يجب أن تتجنب الحروب الثابتة".[141] لقد كان التكتيك لدى المجاهدين البدو عفويا وفطريا، ولكنّه متماش مع ظروفهم في مواجهة عدو متفوق ماديا وبشريا.

في هذا الوقت عمل الفرنسيون على إنشاء حاميات عسكرية وتقويتها في كل من رأسْ الْمَا والعريشة والمشرية وعين بن خليل وعين الصفراء والبيض، وتدعيم حاميات سبدو والضاية وسعيدة والخيذر وفرندة وتيارت لمواجهة أية حركة من الجنوب، الذي أصبح يشكل خطرا أمام الفرنسيين.[142]

في هذه الفترة أيضا –أي خريف 1881– عاد سي سليمان بن قدور آغا أولاد سيد الشيخ الغرابة الذي كان قد فر إلى المغرب، فهاجم بعض القبائل

140 نيوبرغ أ. الإنتفاضة المسلحة، ترجمة الهيثم الأيوبي، دار الطليعة، بيروت 1971، ص: 91.

141 أحمد حمروش، حروب العصابات، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967، ص: 46.

142 أنظر: -Graulle E., Insurrection de Bouamama, P : 112.

الموالية للفرنسيين، ثمّ اتجه جنوبي عين الصفراء ولاحقته القوات الفرنسية في شهري نوفمبر وديسمبر.

وفي 20 ديسمبر من سنة1881 وصلت القوات الفرنسية –السابقة الذكر– إلى مغرار الفوقاني فدمرت القصر يوم 22 ديسمبر، واتجهت إلى مغرار التحتاني حيث تم استنطاق سكان البلدة وحجزت أشجار نخيلهم ثمّ بيعت لغيرهم، وتمّ تدمير مسكن الشيخ وزاويته ونخيله وصودرت ممتلكاته وحملت أشياء ثمينة وعجيبة أيضا، وسيقت حيوانات عديدة، وبذلك أعادت قوات الاحتلال السيناريو نفسه، وهو الانتقام من المدنيين بتدمير القرى وقتل الأبرياء والاستيلاء على الممتلكات العينية والحيوانية.

وقد زعم الفرنسيون أنّ الشيخ بوعمامة أرسل قافلة إلى شاطئ النيجر لجلب المؤن والذخائر والأسلحة، وأنّ الفرنسيين لن يتفاجأوا إذا صحب كل ذلك متطوعون من القبائل التائهة في الصحراء.[143]

إنّ تجنيد السلطات الفرنسية لقوات ضخمة لمتابعة قوات الشيخ بوعمامة والحيلولة دون اتصاله بالمناطق التلية، وإرغامه على الاتجاه جنوبا، بالإضافة إلى تجنيد قوات من السكان الذين كان "قومهم" يخدمون تحت راية فرنسا يتزعمهم أغوات وقياد مثل: الآغا صحراوي والباشاغا أحمد ولد القاضي وغيرهما، كان له أثر سيئ على قوة الشيخ بوعمامة وإضعافها، وهكذا اضطر الشيخ إلى الانسحاب لتجميع قواته، وكانت التقارير تفيد بوجوده في تابلبالة في شهر ديسمبر من سنة 1881، ومن هناك كانت قواته تقوم بمناوشة الجيش الفرنسي.

في هذه الفترة من نهاية سنة 1881 وجهت المفوضية الفرنسية بطنجة (برتليمي سان هيلان) رسالة إلى محمد برقاش ممثل السلطان في طنجة، تستفسره

---

143 أنظر: -Echo d'Oran N° 4776 du 30 aout 1881 sous le titre : «Les évènements du sud. »

فيها عن أخبار وردتها مفادها تعاون سكان منطقة تافيلالت مع الشيخ بوعمامة، لكن هذا يرد بالنفي ويتظاهر بالدهشة من هذا الخبر.

وفي شهر فيفري من سنة 1882 قامت قوات فرنسية تحت قيادة النقيب مارمي Marmet بمهاجمة جماعة من قبائل العمور قرب بلدة فكيك وأرغمتهم على الانسحاب غربا، كما هاجم طابور عين الصفراء أنصار الشيخ في نهاية شهر مارس من سنة 1882 بواد زوزفانة.

وفي الثاني من شهر أفريل سنة 1882 التقت قوات المقاومة بقوات فرنسية قادمة من عين الصفراء، التقتا في بلدة فندي[144] جنوب غربي بني ونيف على بعد 50 كيلومتر، وكان الصدام قويا شديدا تكبد فيه الطرفان خسائر هامة. وكان الشيخ يقود العمليات بنفسه رفقة حوالي 800 مقاتل. ولقد قاتل الشيخ بشجاعة نادرة —كما يقول أحد الضباط الفرنسيين— الذي أضاف يقول: "رآه جنودنا ولمدة طويلة وهو في أقصى المؤخرة يقاتل كبطل أسطوري لتغطية فرار النساء والأطفال والمواشي. كانت القذائف تتساقط من حوله كالمطر دون أن تصيبه بأذى. لقد بقي هذا الحدث جد مشهور، ومنذ ذلك اليوم والعرب يزعمون بأنّ المرابط محمي من الله حتّى لا تصيبه أية إصابة".[145]

لقد قام المجاهدون بإبعاد نسائهم وأطفالهم بعد المفاجأة التي فاجأهم بها الفرنسيون صبيحة ذلك اليوم، ثمّ واجهوا تقدم الفرنسيين بتحكمهم في فج الجبل، مما سهل لهم إبعاد عائلاتهم والكثير من أمتعتهم وخيامهم، وقد قتل عدد هام من جانب قوات الشيخ وخاصة من قبيلة أولاد سيدي أحمد المجدوب، وقام

144يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط:1، ص: 254.

145 أنظر: -Guillaume (lieutenant), Conquète du sud oranais, la colonne d'igli en 1900, édition militaire, Paris sans date, P : 218.

سكان بني ونيف بدفن شهداء المعركة بعد مرور حوالي أربعة أيام.[146] ويقول قرول: "استطاع الثوار المقاومة بكل سهولة بسبب القوة العددية، وخاصة بسبب طبيعة الأرض الصعبة التي لم تمكّن قواتنا من تطوير كل وسائل حركتها".[147]

ومن هنا يظهر أنّ المجاهدين أبلوا البلاء الحسن في هذه المعركة وأنّ الفرنسيين لقوا صعوبة في مواصلة المجابهة. ويذكر قرول نفسه أنّ الفرنسيين كانوا متعبين بسبب السير المتواصل خلال الليلة السابقة للمعركة، ممّا منعهم من ملاحقة قوات الشيخ. ويقال إنّ الشيخ بوعمامة أصيب في ذلك اليوم في ذراعه الأيمن، وكاد أحد جنود "السبايَس"[148] أن يقبض عليه لولا أنّ خادمه بو سالم ذكّره بالمسدس الموجود تحت اللثام في رقبته –بعد أن نفذت ذخيرة بندقيته– وصاح به: "اللثام اللثام!! يا سيدي". فانتبه الشيخ وأخرج المسدس وأصاب السبايسي في جبهته.[149]

انتقل الشيخ بعد هذه المعركة إلى فكيك وطلب من سكانها مساعدته، لكنّهم أجابوه بالرفض، قائلين له: "الحَيْط حَيْط والخَيْط خَيْط"، أي أنّ أهل فكيك حضر لا يمكنهم الفرار إذا تغلب عليهم العدو، وأمّا الشيخ ورفقاؤه فهم بدو يسكنون الخيام ويمكنهم الانسحاب في أي وقت.

---

146 حسب شهادة بعض الرواة وبخاصة قديدير بوعمامة بن الشيخ 87 سنة حمياني سنداني، تاجرونة 1997.

147 أنظر: -Graulle insurrection de Bouamama, P : 118.

148هم الصبايحية منذ العهد العثماني، وهي فرق مجندة من الجزائريين تحت الراية الفرنسية.

149 رواية كل من: –حمدوني فراجي، 117 سنة، شاهد عيان، جريدة الشعب ليوم 19 ماي 1981، وقد أجري الحوار من قبل صحفي الجريدة في بلدة فندي.

–عبد العالي محمد بن أحمد، 95 سنة، عموري، عينالصفراء 1995.

–مزراق الشيخ بن محمد، 70 سنة، فندي 1995.

والمعروف أنّ بلدة فكيك مدينة قديمة مثلها في ذلك مثل المراكز الحضرية في جبال القصور التي تعود نشأتها إلى عصور ما قبل الفتوحات الإسلامية، وهي تتكون من سبعة قصور تسكنها عدة طوائف، منها صنهاجة وزناتة والشرفا الأدارسة وبني هلال وغيرهم.

كان السلطان المغربي يعيّن بها عاملا، إلاّ أنّ سلطة هذا العامل كانت تقوى وتضعف تأثرا بوضع السلطة المركزية، وقد اعترفت اتفاقية 1845 بين فرنسا والمغرب على أنّ بلدة فكيك مغربية. وكان الأمير عبد القادر قد راسل سكانها عندما قام لمحاربة الاستعمار الفرنسي لمساعدته فأجابوه بالقبول، وساهموا بالمال والرجال، ولاسيما المختصين في صناعة الألغام والبارود، حيث كانت لأهل فكيك دراية وحنكة في هذا الميدان.[150]

كما وصلت رسائل مماثلة في الموضوع نفسه بعث بها زعيما أولاد سيد الشيخ الشراقة والغرابة (سي حمزة بن بوبكر وسيد الشيخ بن الطيب) إلى أعيان "الوْدَاغِيرْ" بفكيك –بطلب من الأمير عبد القادر نفسه– يستحثانهم ويرغبانهم في المسارعة بتجهيز أهل قصرهم للجهاد، ويعدانهم بكل المغريات المادية من مؤونة وأدوات النقل ووسائل صناعة الألغام وأن لكل رجل محارب يفد عليه (أي على الأمير عبد القادر) مائة ريال.[151]

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ازداد الضغط الفرنسي على بلدة فكيك، أي منذ ظهور مقاومة الشيخ بوعمامة، وطالب مختلف ضباط وعسكريو الجيش الفرنسي باحتلالها لما تمثله من موقع استراتيجي، ولأن ثوار الجزائر يلتجئون

---

150 العربي هلالي، فجيج تاريخ وثائق ومعالم، طبع على نفقة المؤلف بالمطابع المغربية والدولية، طنجة 1981، ص: 56.

151 أحمد مزيان، فكيك، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر، مطبعة فجر السعادة، المغرب 1988، ص: 120. يستنتج من خلال التحريات أنه من الأرجح أن زعيمي أولاد سيد الشيخ قد بعثا برسائل مماثلة إلى مختلف أعيان قصور فكيك الأخرى.

إليها. وقد قام سكان فكيك بشن هجمات على طلائع جيش الإحتلال جنوبي وشرقي فكيك مما أجبر السلطات الفرنسية على التدخل لدى السلطات المغربية لخلق جو من حسن الجوار.[152]

لكن المعارك لم تتوقف، سواء من جانب مقاتلي الجزائر الملتجئين إلى فكيك ونواحيها، أو من بعض سكان المدينة نفسها (زناقة مثلا)، كما استمرت التحرشات الفرنسية على المنطقة التي أصبحت تشكل تهديداً لمصالحهم، وصارت تنعت في جميع الكتابات الفرنسية بأنها مأوى العصاة أو أنها ملجأ لقطاع الطرق والسراق، وهذا منذ اندلاع مقاومة أولاد سيد الشيخ سنة 1864، وقد كاتب أهل فكيك السلطات المغربية لتقديم العون المادي في صراعهم مع الفرنسيين دون نتيجة.[153]

وقد جرت محاولة لاعتقال الشيخ بوعمامة من قبل المخزن المغربي، كما تعرض مجلس جماعة فكيك إلى ضغط من السلطان المغربي بعدم السماح لبوعمامة بالاستقرار في المدينة (رسالة السلطان المؤرخة في 15 شوال 1300هـ / 1883م)، وهذا نتيجة الضغوط الفرنسية على البلاط الملكي. وكانت السلطات الفرنسية وراء هذه المحاولة على اثر الإتصال الذي قام به الحاكم العام (تيرمان) في الجزائر، بالمفوض الفرنسي في طنجة الذي اتصل بدوره بالقصر الملكي.[154]

أما في الجنوب الغربي من الجزائر، فقد نزلت عدة طوابير عسكرية ببلدة عين الصفراء في نهاية سنة 1881، وذلك في إطار التوسع الفرنسي، وبدأ العمل

---

152 العربي هلالي، فحيج، ص: 60.

153 عندما يئس سكان فكيك من مجيء تلك المساعدة انضموا إلى الثائر الروقي/بوحمارة، اعتقادا منهم أنه مولاي امحمد أخو السلطان، وقد عين عليهم الحاج محمد بن مرزوق عاملا سنة 1903. عن أحمد مزيان، المرجع السابق، ص: 518.

154 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج: 2، ص: 31.

لإنشاء ثكنة عسكرية. وفي شهر مارس من سنة 1882 تم انشاء مركز إداري في البلدة نفسها، وذلك في إطار تثبيت أقدام سلطات الاحتلال.[155]

وفي 26 أفريل من سنة 1882 خاض المجاهدون من جزائريين ومغاربة – متحالفين معهم– معركة تيقري بمشاركة بني قيل ضد بعثة عسكرية تتكون من 350 جنديا، تحت قيادة الضابط دوكاستري، وتحت ستار القيام بعملية مسح طبوغرافي، ولكن الهدف الحقيقي هو التعرف الجيد على منطقة شط تيقري (المغربية)، وخلال المعركة قامت النساء بدور إيجابي حيث كن، وهن يمتطين ظهور الخيل، يشجعن المهاجمين بأصواتهن، وكانت الضجة كبيرة.[156]

وقد هزمت القوة الفرنسية التي أبيد نصف عدد أفرادها وقتل ضابطان هما Massone وBarbier وجرح ثالث هو Lacroix. واستعاد المقاتلون ما كانت قد استولت عليه هذه الفرقة العسكرية من أغنام ومواش قبل ذلك. كما خاضت قبائل بني قيل –أنصار الشيخ– معركة في واد الشارف وهم في موقف دفاعي في شهر ماي من سنة 1882 ضد قوة فرنسية تحت قيادة المقدم Dushesne، قائد طابور العريشة وبعض القوم، جاءت هذه القوة العسكرية بغرض الانتقام لقتلى شط تيقري. وقد خلد الشاعر الشعبي المهناني معركتي فندي وتيقري بهذا البيت في قصيدته الخاصة برثاء الشيخ بوعمامة في قوله:

لَوْ شَتّو مَا فْعَل بشَيْنِينْ الديّوان   لَو كُنْتُم يَوْم تيقْري وخْبَرْ فَنْدي.

وقد ضعف أمر المقاومة منذ صيف 1882 وتحرج موقف الشيخ بوعمامة، وأُجبر المجاهدون على التفرق لهذا السبب أو ذاك، وانضم قسم منهم إلى سي سليمان بن قدور وانضم آخر إلى سي قدور بن حمزة، وبقي البعض

---

155 أنظر: -De la martunière et la croix, Document pour servir.. P : 300.

156 أنظر: -Noel, Document concernant l'histoire des Hamyane… P : 19.

الآخر مع الشيخ بوعمامة في واد زوزفانة.[157] وهذا على اثر قيام زعماء أولاد سيد الشيخ الآخرين (قدور بن حمزة وأخوه سي الدين وسليمان بن قدور وعلال بن الشيخ) بمحاولات للضغط على الشيخ بوعمامة للتخلي عن الزعامة والتزام زاويته، إذ كانت طموحاتهم وأهدافهم هي الزعامة واصطناع أكبر ما يمكن من الخدام والأنصار من بين القبائل التي كانت تدور في فلك أولاد سيد الشيخ.[158] إلا أن الشيخ كان بعيداً كل البعد عن مثل هذه الأهداف الدنيوية، بل كان رجلا تقيا ورعا هدفه أسمى من ذلك، وهو الجهاد لطرد "الكافر"، ولا يهمه من مطامع الدنيا شيء.

لقد ظهرت مقاومة الشيخ بوعمامة في الوقت الذي خمدت فيه مقاومة الفرع البكر من أولاد سيد الشيخ، وتعدد فيه الزعماء الذين أجبروا في نهاية الأمر على وضع السلاح.

لقد قال سي قدور بن حمزة للشيخ بوعمامة عندما التقى به ذات مرة مايلي:

"لماذا لم تساندنا حينما كنا في حاجة للمساعدة؟

هل تريد سلبنا الزعامة لصالح عائلتك؟

ثم استطرد: لماذا أعلنت الجهاد؟ من قال لك ذلك؟ أنت لست أهلاً لزعامة كهذه، فنحن المدافعون عن راية سيد الشيخ ولست أنت. إن الحرب مسألة جدية. لماذا انتظرت حتى فشلنا لتنهض أنت؟ ليس هذا جيد منك. لقد كوّن العرب (من غير البوشيخيين) قوما لمحاربتنا، وكل أهل التل خدعونا، وسلطان المغرب خان الإسلام بخيانته لنا....."[159]

---

157 أنظر: -Charles robert agéron, Les Algériens musulmans.. P : 65.

158 أحمد مزيان، فكيك..، ص: 488.

159 أنظر: -Si hamza boubakeur, un soufi Algérien sidi cheikh : sa vie, son oeuvre, son role historique, ses déscendants (ouled sidi cheikh) édition maisonneuve et la rose, Paris 1990, P :251.

وهكذا افترق الرجلان دون اتفاق. أما الشيخ بوعمامة فقد جمع أتباعه وخيّرهم بين مواصلة الحرب معه أو التخلي عن ذلك، فلم يتبعه إلا ذوو العزم والثبات من العناصر المخلصة التي لم تؤثر فيها الدسائس الفرنسية.[160]

وكان من نتائج وانعكاسات هذه الحركة أن قامت السلطات الفرنسية بإلغاء الوضع الخاص الذي كان يعيشه سكان وادي ميزاب بموجب اتفاقية راندون سنة 1853، وتم إلحاق المنطقة بالنظام الاستعماري، لأن سكان ميزاب خرقوا الاتفاقية لقيامهم بتموين حركة الشيخ بوعمامة بالذخائر والأسلحة التي حملها الشعامبة "خُدّام" الطريقة الشيخية، وهكذا وصل الجنرال De la tour d'Auvergne إلى منطقة ميزاب بطابور في شهر نوفمبر من سنة 1882، وأعلن إلحاق المزابيين بالحكم الفرنسي وأنشِئ حصن قرب غرداية، أهم مدينة في المنطقة، وكان الجيش الفرنسي الذي يبني الحصن "يجند الجمال إلى متليلي وورقلة بالسُّخرة لنقل حطب الرتم الضروري لإنتاج تسعة أمتار مكعبة من الجير يوميا".[161] مما يبرز الاستغلال الفاحش الذي كانت تمارسه السلطات العسكرية على سكان الجزائر لاقتصاد مواردها على حساب الشعب الفقير، الذي لا يجني من وراء تلك الأعمال سوى الفقر والقهر والمرض.

وقد تمركزت بمدينة غرداية حامية عسكرية، وأنشيء بها "مكتب عربي" يدير دائرة ميزاب التي تشمل أغاليك ورقلة وشعامبة متليلي وشعامبة القليعة،[162] وتبع ذلك إقامة مركز عسكري دائم في ورقلة سنة 1883 على رأسه الملازم الأول Alfred le chatelier الذي تمركزت فصيلته في الرويسات.

---

160 أحمد العماري، مشكلة الحدود... ج: 3، ص: 822.

161 دنيس بيلي، معالم لتاريخ ورقلة 1872-1992، ترجمة علي إيدر، مطبة هيوركوم 1995. ص: 22.

162 أنظر: -Henri garrot, Histoire générale de l'Algérir, imprimerie p. crescenzo, Alger 1910, P : 999.

كما اتصلت السلطات الفرنسية بسي قدور بن حمزة المتواجد آنذاك في الجنوب، وكلفت بوحفص الأغواطي قايد الرزاينة للقيام بمهمة التفاوض معه من قبل الجنرال طوماسان قائد إقليم وهران، وذلك في ماي سنة 1883، وكان الهدف البعيد هو تشتيت كلمة زعماء أولاد سيد الشيخ وأخذهم واحداً واحداً. وقد تم الإتفاق النهائي على ما يلي:

أ — أن تقوم السلطات الفرنسية بإعادة بناء قبة سيد الشيخ التي هدمها الجنرال نيقري في أوت 1881.

ب — أن تقدم السلطات الفرنسية تعويضا ماليا لسي قدور وأفراد عائلته لكل ما لحقهم من مصادرة خلال مقاومة 1864.

ج — تعيين عدة زعماء من أولاد سيد الشيخ على رأس قيادات عديدة، في مقدمتهم سي قدور بن حمزة.

د — قيام سي قدور بن حمزة بإقناع بقية أولاد سيد الشيخ بالعودة من المغرب إلى أوطانهم.

وقد عاد سي قدور بن حمزة، فعلا، هو وعدد من أفراد عائلته إلى الأراضي الخاضعة للسلطة الفرنسية خلال سنتي 1883 و1884، بينما لم يخضع سي سليمان بن قدور لهذا الاتفاق، وقد قُتل من قبل البرابر في حادث خطط له من قبلهم سنة 1883.[163]

163كان سي سليمان قد قتل بعضا من البرابر آيت أوش شاون، المتواجدين في جبل الثلج بالمغرب، فاتفقوا عى خطة للثأر منه، ودعوه إليهم للضيافة، وجاءهم رفقة 12 فارسا في النصف الثاني من سنة 1883، وخلال الوجبة وبإشارة متفق عليها تم قتل الضيوف.

تقييم المرحلة الأولى:

كانت سنتا 1881 و1882 تمثل قمة أوج المقاومة المسلحة. حيث خاض الشيخ "بوعمامة" والقبائل الموالية له عدة معارك ضارية ضد القوات الاستعمارية، ثبت من خلالها أن الشعب الجزائري لم يستكن، بل كانت ما تزال جذوة المقاومة تتقد هنا وهناك معلنة رفض الاحتلال والقهر والعبودية.

وإذا كانت القوات الفرنسية قد انتصرت عسكريا آخر الأمر وأجبرت قائد المقاومة على مغادرة المنطقة التي ثار فيها، فإن ذلك لا يعود إلى قوتها الذاتية في كل الأحوال، بل إن سلطات الاحتلال استغلت، في مختلف عملياتها وتحركاتها نحو الجنوب، أياد ووسائل جزائرية، فهناك الأغوات والقياد الذين دعموا صفوفها بما كانت لديهم من سلطات على القبائل والقوم، وبما كانوا يبعثونه من جواسيس داخل صفوف المجاهدين،[164] وبين القبائل الموالية للشيخ، يأتون بكل كبيرة وصغيرة تفيد العدو الفرنسي.

وهناك وسائل التموين والنقل المفروضة على القبائل المستقرة في الأراضي التي كانت تسيطر عليها القوات الفرنسية فيما يدعى بـــ "السُّخرة". لقد كان على كل قبيلة أن توفر حاجات القوات الفرنسية من الحيوانات الصالحة للنقل بتجهيزاتها المختلفة وبحراسها وأتباعها من تلك القبيلة.

وهكذا جندت القوات الفرنسية عدداً كبيراً من وسائل هذه القبائل من بغال وخيل وإبل لنقل مؤونتها ومن رجال يرافقون قواتها المحاربة. واستغلت هؤلاء الجزائريين السائرين معها، عن رضى أو إكراه، لمعرفتهم بالأرض والسكان، فسهلوا لها التنقل والتوغل في مختلف الجهات الجنوبية، كما استعملت فرق "القَوْمْ" كمحاربين في الصفوف الأولى، وبذلك وقع الإقتصاد

---

164 أنظر : -Djillali sari, l'insurrection de 1881-1882, P : 81.

في الوسائل بشريا وماديا. وأصبحت مواجهة المقاومة بوسائل جزائرية أكثر مما هي بوسائل فرنسية في أغلب الأحوال.

ولكن هذه السلطات لم توفر لهؤلاء حاجتهم، اعترافا لهم بالجميل. يقول أحد الفرنسيين: "إن العرب الذين نهددهم بالمسؤولية الجماعية قد لاحظوا هم أنفسهم بأن هذا القانون العام غير عادل، إنهم الوحيدون الذين قدموا الحَلَس (وسائل النقل)، وكانوا مرافقين للحراسة وقدموا الإبل والفرسان، وبكلمة واحدة تحملوا كل النفقات".[165]

فلم تكن السلطات العسكرية تهتم بأحوال هؤلاء المرافقين ووسائلهم مثلما تهتم بجنودها وفرقها العسكرية. لقد كانت أحوال هؤلاء المرافقين الجزائريين جد مأساوية، فكانوا كثيراً ما يضطرون إلى سد رمقهم عن طريق الحيوانات الجيفة التي كانت تعترض سبيلهم.[166] هذه الحيوانات التي كانت تحمل من الأثقال ما لا تطيق، ويفرض عليها السير الطويل الذي يتجاوز الحد الأقصى لسيرها مما يؤدي بها إلى التعب والموت المحتوم. أما القبائل التي كانت تقف على الحياد وترفض المساهمة في تقديم مثل هذه الوسائل، فإنها تتعرض للغزو والغرامة الباهضة ويضعها الفرنسيون ضمن القبائل المعادية.

لقد كان الفرنسيون يستعملون كل الوسائل لتحقيق أهدافهم، وكان من أهدافهم التوغل في الجنوب وتتبع قوات الشيخ المنسحبة وإقامة حد بين الشمال والجنوب لتأمين استيطانهم. يقول أحد الضباط الفرنسيين (واشي): "نحن نقاتل

---

165 انظر: -Wachi P. Notes itinéraires et souvenirs pour servir à l'histoire de la province d'Oran, insurrection de Bouamama 1881-1882, revue tunisiènne N° 22, janvier 1902, P : 306.

166 انظر: -Dans l'extrême sud oranais, un poste dans le bled, en escorte de convoi au sahara, manuscrit d'un officier anonyme, Paris 1900, P : 99

خصما لا يعرف غير القوة قانوناً، ولن نصل إلى ضمان أمن المعمرين ومستقبل المستعمرة إلا بثمن جهود ضخمة ... وعندما نؤسس، على حدود الصحراء، منطقة حماية جد واسعة تكفينا شر المفاجآت، حينئذ فقط سيمكن زراعة التل واستثمار السهول المرتفعة في أمن... إن البعثات التي ستذهب (جنوبا) تتطلب كثيراً من الرجال والمال، يجب أن لا نخطيء، إنه الاحتلال النهائي للجزائر الذي نباشره، إنه كفاح المسيحي ضد المسلم.[167]

لقد ضجرت الحكومة الفرنسية من هذه الحرب التي تتميز بالمناوشات الدائمة والتي يمكن إعادة بداياتها إلى سنة 1864، والتي كلفتها رغم كل شيء نفقات باهضة ودائمة مما يتطلب رعاية دائمة وتسليحا كبيرا لفرقها والدفاع عن مراكزها الجديدة في الجنوب الغربي الجزائري(في البيض – المشرية – عين الصفراء – عين بن خليل – العريشة – الخيذر)، وتمديد خط السكة الحديدية أكثر نحو الجنوب، ومحاولة إعادة إسكان الأراضي الجنوبية بطرق سلمية إن أمكن، بعد أن تخلت عنها القبائل المقاومة في المنطقة.

ويدخل في هذا المجال ما توصلت إليه السلطات الفرنسية من اتفاق مع أكبر قسم من أولاد سيد الشيخ الشراقة سنة 1883. وهكذا رأى الفرنسيون، بعد هذه الاتفاقية، أنهم أصبحوا أسياد الموقف وأنه يمكنهم مهاجمة الشيخ في أي وقت إذا ما مثّل لهم خطراً. وأنهم سيعملون على "محو شخصيته من الساحة؛ لأنه قد يرفع راية المقاومة يوما ما".[168]

167 أنظر: -Wachi P. Notes itinéraires et souvenirs.. P : 102.

168 أنظر: -De lamartinière et la croix ; Document pour servir… P : 117.

تأثير الوضع على العلاقات الفرنسية الاسبانية:

على إثر الحوادث التي وقعت في خلف الله، حيث كان يتواجد عدد من العمال الاسبان للعمل في ورشات قطف الحلفاء، بعد أن أغارت قوات الشيخ بوعمامة عليها، مما أدى إلى مقتل عدد من الإسبان وأسر عدد آخر وإلى وقوع خسائر مادية متعددة لهؤلاء؛ قامت حملة صحفية إسبانية موجهة ضد جهتين: تأليب الحكومة الإسبانية للمطالبة بتعويض الإسبان العاملين المتضررين في القطاع الوهراني من قبل الحكومة الفرنسية من جهة، والذين بسواعدهم كانت فرنسا تجني الأرباح الطائلة سنويا، لم يقابل ذلك سوى بالنكران والجحود. وضد الحكومة الإسبانية التي قصّرت في حماية رعاياها المغتربين في الجزائر، مما أدى إلى هجرة معاكسة من الجزائر نحو إسبانيا، بلغ عدد أفرادها في نهاية شهر جوان من سنة 1881 عشرون ألف شخص.[169]

وعلى إثر تلك الأحداث أيضا، قامت السلطات الفرنسية بوهران بتنظيم نجدة سريعة للسكان المتضررين، كما قامت بلدية سعيدة بتكوين لجنة إنقاذ، وتم توزيع إعانات مادية سريعة على المنكوبين الأوائل. وقامت الحكومة الإسبانية بالعمل نفسه بحملة نجدة سريعة. وقد تقدمت القنصلية الإسبانية بوهران بتقرير من عشر صفحات يتضمن في مجمله خسائر الإسبان في الجزائر وطلب التعويض العاجل من الحكومة الفرنسية، وقام سفير إسبانيا في باريس بتقديم تقرير في الموضوع نفسه. وقد وقع سوء تفاهم وتشنج في العلاقة بين البلدين لاختلاف وجهات النظر بين البلدين فيما يخص عدد القتلى وعدد المتضررين الإسبان، وحول تسوية بعض القضايا العالقة منذ مدة بين البلدين،

169أنظر: JUAN BTA. VILAR, Los Espagnoles en la Argelia Francesa (1830-1914), Centro de estudios historicos. Universidad de murcia 1989. PP: 145-153.

وقد استمرت الأزمة مدة من الزمن، ولم تسوَّ قضية التعويضات إلا بعد تسوية مختلف القضايا العالقة بينهما.[170]

ورغم انسحاب الشيخ بأعوانه ورفقائه من المحاربين والقبائل المختلفة من الأراضي التي نشأوا فيها وحاربوا عليها، فإن آثار الحركة بقيت في وجدان الشعب تذكّره ببطولة الرجال، وتحتفظ بذكرى تصديهم للعدو في الذاكرة الجماعية للشعب المقهور، لقد "كانت حركة بوعمامة هي السبب الحقيقي الذي يخشى (منه) أن يعطي للمسلمين أملا محرما."[171] ولكن الأمل ظل قائما في النفوس من خلال أخبار الشيخ التي كان الناس يتداولونها ويتوارثونها أبا عن جد في تجمعاتهم المختلفة.

170أنظر: JUAN-HACQUES JORDI, Espagnol en oranie, histoire d'une migration 1830-1914., éditions jacques gandini, NICE 1999. P : 145.

171 أنظر: -Charles robert ageron, Les algériens musulmans et la France, P : 310.

المرحلة الثانية: بين دلدول وفكيك 1883 – 1903

أ – في دلدول: 1883 – 1894

ب – العودة من دلدول: في الطريق إلى المغرب 1894 – 1903

أ – في دلدول: 1883 – 1894

عملت القوات الفرنسية على منع تسرب أخبار المقاومة نحو المناطق التلية بإقامة حاجز من النقط العسكرية المتحركة، كما عملت في الوقت نفسه على الضغط على الشيخ لدفعه نحو الجنوب بعيداً عن المنطقة التي اندلعت فيها مقاومته، وخاصة بعد انطلاق خط السكة الحديدية الرابط بين الشمال والجنوب، حيث وصل الخط بلدة مشرية سنة 1882.

وبذلك سهل نقل المؤن والذخائر والجنود بسهولة نحو المناطق الجنوبية لاستغلالها وطرد كل من تسول له نفسه مقاومة الاحتلال، ثم الإعداد للتوسع في هذه الجهات.

في هذه الظروف بحث الشيخ بوعمامة عن ملجإ له بعيدا عن الفرنسيين فاختار قورارة بعد أن رفض سكان فكيك استقباله في بلدهم. وهكذا غادر حوض وادي غير بعد ما التقى بقافلة لقبائل ذَوْي مْنِيعْ فرافقها إلى هناك.

وقد راسل الشيخ أهل تينركوك وأهل دلدول طالبا اللجوء إليهم،[172] فقبل هؤلاء الأخيرون استقباله، وكان قصر أولاد عبو هو المكان الذي استقر به، حيث كان السكان خداماً لسيدي بحوص الحاج.[173] ونزل الشيخ عند زعيم البلدة داخل قصبتها حيث خصص له منزل في بيت لائق به هو ورفقاؤه

---

172 دلدول منطقة تتكون من عشر قصور يقع مقر بلديتها في قصر أولاد عبو، والمنطقة جزء من دائرة آوغروت ولاية أدرار.

173 بحوص أو بوحفص الحاج هو حفيد سيد الشيخ من ابنه عبد الحاكم.

القليلون،[174] وعندما التحقت به قبائل عديدة من السهول المرتفعة والأطلس الصحرواي ضاق بهم المكان فخرجوا على أطراف القصبة وبنوا خيامهم وزرائبهم هناك.[175] وهم ينتسبون إلى أولاد زياد الشراقة (الجرامنة) وأولاد سيد الشيخ الشراقة والغرابة وبعض الشعامبة (54 خيمة)[176] إلى جانب أولاد سيدي أحمد المجدوب.

-نشاطات الشيخ محليا:

هناك في ذلك المكان الهادئ –في دلدول- بنى الشيخ زاويته وعمل على نشر الطريقة الشيخية وتعليم القرآن ومختلف الفروض الدينية بين سكان الجنوب الذين كانت أغلبيتهم على الطريقة الطيبية، كما عمل الشيخ على نشر نفوذه في الجنوب المغربي فكسب إلى جانبه الصوفي الدرقاوي سي محمد العربي العلوي المدغري. يذكر المؤرخ المغربي بن منصور أن الشيخ "كان يتعاون في أعماله هذه مع صوفي آخر ظهر في منطقة تافيلالت اسمه محمد العربي العلوي المدغري"[177] هذه المنطقة التي ستحمل هي الأخرى لواء الجهاد ضد "الكفار"، والتي ستنتقل إليها بعض القبائل الجزائرية التي رفضت الخضوع للاستعمار الفرنسي كأولاد جرير وأولاد زياد ودوي منيع والعمور والشعامبة. يذكر أحد الرواة[178] أن والده (الجريري) كان يحارب إلى جانب الشيخ بوعمامة، وعندما انتقل الشيخ إلى المغرب اتجه أبوه مع غيره إلى تافيلالت بعيداً عن الفرنسيين، من

174رواية عدد من مسني وأعيان بلدة أولاد عبو، في زيارتنا للمنطقة سنة 1995. ويسمى هذا الزعيم: الحاج عمار بن الحاج أحمد لو عمار ولد عبد المولى في حوالي الخمسين من العمر (1893) وهو تابع للطريقة الطيبية ومقدم سيد الشيخ، أصبح صديقا للشيخ بوعمامة. (De lamartinière et Lacroi,Document..T/4. P/385.)

175 يتواجد في المكان "مقام سيدي بوعمامة"، وهو عبارة عن قبة أقيمت فوق قبة سابقة ردمتها الرمال.

176 أنظر: -Noel A. H. Document concernant l'histoire des Hamyane.. P : 32.

177أنظر: عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ج.2، ص: 78.

178هو عبد الحق بالحسين، 62 سنة، تاجر، بشار 1995.

حيث كانوا يغيرون على القوات الفرنسية، وأن أباه حارب بعد ذلك إلى جانب عبد الكريم،[179] حيث قطعت يده، ولم يعد إلى الجزائر إلا بعد عشرين سنة. ويذكر راو آخر[180] أن جده توفي في تافيلالت لأنه رفض البقاء تحت سيطرة الفرنسيين، وقد طلب من ابنه (والد الراوي) أن يبقى إلى جانبه حتى يدفنه هناك، وهذا ما حدث.

كل هذا يؤكد عدم خضوع الجزائريين للسيطرة الفرنسية اختيارا، وأن من استطاع منهم الابتعاد هاجر. ومن هناك، من تافيلالت استمرت المقاومة والجهاد من قبل الجزائريين والمغاربة معا. يقول أحد الفرنسيين إن "تافيلالت أكثر عداوة لنا، هناك يعيش أولاد جرير ودوي منيع المتمردون، ومن تافيلالت تخرج الحرْكاتْ الكبيرة[181] الموجهة ضد مراكزنا وضد الخاضعين لسلطتنا".[182]

أما في قورارة فقد استقبل الشيخ عدداً من قبائل الْبرابرْ القادمين من الأطلس الكبير بالمغرب الذين طلبوا منه الانتقال إليهم والاستقرار بينهم. كما جند عدداً من المناصرين من دوي منيع وأولاد جرير وغنانمة الساورة والبرابر وأولاد سيد الشيخ الغرابة والمهاية.[183] كما وردت عليه في سنة 1883 وفود من واحة تيمي بتوات لتأخذ دورها في الحركة، وكانت تضم الشيخ ابَّ حسون الذي سار رفقة أخيه محمد عبد الرحمن وهما من الشخصيات البارزة في المنطقة، وكذلك الشيخ ابَّ الصديق بن علي من أولاد عروشة والحاج محمد

---

179 لعله عبد الكريم الخطابي الزعيم المغربي الريفي الذي قاوم الاستعمار الإسباني في بداية القرن العشرين.

180هو: دقيوس التاج بن الأمين، 54 سنة، من العمور، بلدة فندي 1996.

181الحركة هي مجموعة كبيرة من الجند، لعلها تماثل الفيلق في العرف العسكري المعاصر.

182 أنظر: -René pinon, L'empire de la meditérranée, librairie académique, Paris 1912, P :164.

183 أنظر: -Noel A. H. Document… P : 32.

ابٌ خيِّي من بني تامرت ومولاي الصديق بن العربي من أدغاغ والشريف سيدي محمد بن هاشمي من تيمي ومن أفراد آخرين اكتمل بهم الوفد الصحراوي المتكون من أربعة وعشرين فردا، وقد استقبلهم الشيخ أحسن استقبال، مثلما يذكر أحد أفراد الوفد وهو الشريف سيدي محمد بن هاشم، الذي يذكر أن مخيم الشيخ كان يتكون من أربعمائة رجل يتناولون كلهم قهوة الصباح وغذاء منتصف النهار بالكسكسي والشاي ويشربون القهوة في المساء من جديد.[184]

وقد راسل الشيخ بوعمامة مولاي الحسن سلطان المغرب ليمده بالمال والسلاح للوقوف في وجه الزحف الاستعماري، لكن مولاي الحسن رفض ذلك تحت الضغط الفرنسي وتجنبا للمشاكل.[185] وهذا الموقف الملكي لا يعبر عن الموقف الشعبي الذي كان مؤيدا لحركة الشيخ ولغيره من مجاهدي الجزائر لمواجهة الاستعمار. وقد دعا بعض الفقهاء المغاربة الناس إلى الوقوف ضد عدو الدين الذي قارب البلاد المغربية، واستجاب لذلك العديد من القبائل المغربية التي لعبت دوراً حاسما في تأجيل الاحتلال الكلي للبلدين واستغلال خيراتهما.[186] أما السلطان المغربي فقد كان مقيداً باتفاقية لالة مغنية سنة 1845 الخاصة بتأمين الحدود، وحفاظاً على ما التزم به مع جيرانه الفرنسيين.

والواقع أن استسلام زعماء أولاد سيد الشيخ سنة 1883 بعد قبولهم للهدنة مع السلطـــات الفرنسية –الشيء الذي أعقبه هجرات العودة لعدد من

---

184 أنظر: -Martin A.G.P. Trois siècles d'histoire marocaine, librairie felix alcan, Paris 1923. P : 215.

185 زكي مبارك، المجاهد بوعمامة من خلال بعض المصادر التاريخية المغربية المعاصرة، مجلة الثقافة (الجزائرية)، العدد 83، سبتمبر-أكتوبر 1984، ص: 420.

186 نفسه، ص: 416.

خيام أولاد سيد الشيخ وحميان شافع إلى داخل الجزائر- قد أثر، بدون شك، على جذوة الحماس التي قوبلت بها مقاومة الشيخ بوعمامة، وهذا ما سيجبره على اللعب بأوراق مختلفة إزاء القوات المتربصة به، وخاصة منها قوتي السلطة المغربية والسلطة الفرنسية، ولهذا اتسمت مواقفه بالتذبذب تجاههما أملا في كسب الوقت وانتظارا لما يمكن أن تسفر عنه الأحوال المضطربة في المنطقة من ظروف يستغلها لصالحه، وتفسر الرسائل المتبادلة بين هذه الأطراف هذا الموقف السياسي.[187]

وفي دلدول، حيث استقر الشيخ بوعمامة، أصبحت الزاوية التي أنشأها هذا الأخير ملجأ لكل مسافر عابر سبيل، ولكل طالب حاجة، يأوي إليها فيجد المأكل والمشرب والأمان، إلا أن حريقا شب فيها وأحرق كل ما كان بها من أمتعة ومؤونة. وقد قام سكان المنطقة بتعويض كل الخسائر التي أصابت الزاوية بالتبرع لها كل بما استطاع، وعادت الزاوية إلى نشاطها المعتاد.[188]

ومن دلدول عمل الشيخ بوعمامة على توسيع اتصالاته، فراسل الطوارق سكان الهوقار وتلقى منهم الإجابة. وقد أشار أبو القاسم سعد الله إلى رسالة للضابط الفرنسي فورو، كان قد بعثها إلى محمد العروسي شيخ الزاوية التيجانية ببلدة قمار في 12 جوان 1895 يمدحه فيها ويخبره عن رحلته إلى بلاد الهوقار،

---

187 تبودلت عدة رسائل بين الشيخ بوعمامة، منذ اتجاهه إلى الجنوب، وبين الحكام الفرنسيين سواء كانوا حكاما للمقاطعات المحلية والجهوية أو حكاما عامين وحتى مع رئيس الجمهورية الفرنسية ووزير حربيته، وهذا منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين، وهي إما لطلب الأمان أو للمطالبة بالمعاملة الحسنة للأتباع أو للإحتجاج على بعض التجاوزات من قبل الفرنسيين. وقد استجابت السلطات الفرنسية وأصدرت عهد الأمان للشيخ، إلا أنه لم يلب رغبة هذه السلطات وظل بعيدا عنها متعللا بمختلف العلل، إلى أن وافاه الأجل سنة 1908 بالمغرب الأقصى.

188 يُذكر أن زاوية الشيخ قد تعرضت للتدمير ثلاث مرات: مرة عندما دمر الفرنسيون زاويته بمغرار بأمر من الجنرال دي لبيك سنة 1881، ومرة عندما حاصره سي سليمان بن قدور فتخلى له الشيخ عنها منعا لإراقة دماء الإخوة، ومرة عندما تعرضت الزاوية للحرق في دلدول عندما كان لاجئا هناك.

وما تعرضت له تلك المنطقة من فتن بسبب هجوم أنصار بوعمامة عليها.[189] وقد أصبح للشيخ تأثير كبير على الطوارق وأصبحت له علاقات طيبة معهم وتوصل من سكانها على عدد من "الزيارات"[190]

كما كان مبعوثو الطريقة السنوسية يمرون بالشيخ فيزورونه، ولا شك أن الشيخ كان يعرف عن طريقهم أحوال منطقة شمالي افريقيا والمشرق العربي والإسلامي. وقد كاد أن يتجه إلى ليبيا أول الأمر إلا أنه عدل عن ذلك. ويذكر المؤرخ شارل روبير أجيرون أن الشيخ اللاجئ في توات كان على علاقة بشيخ السنوسية في فيفري 1885. كما كانت له علاقة طيبة مع الحاج المهدي ولد باجودة مقدم هذه الطريقة في عين صالح، حيث كان يرجو مساعدته والوقوف معه في الجهاد.[191] وقد أبدى هذا الأخير موافقته لعدة أسباب منها: مواجهة الطريقة التيجانية التي كانت تعمل لخدمة الاستعمار الفرنسي، وكان ممثلوها يسعون للتوغل في الهوقار ومالي،[192] مما كان يشكل تهديدا لتواجد الطريقة السنوسية ولأهدافها الرامية إلى تعبئة الجماهير لمواجهة الخطر الاستعماري.

ورغم الترحيب الذي لقيه الشيخ بوعمامة في قورارة إلا أن الظروف كانت أقوى من ذلك، فالتوسع الفرنسي نحو الجنوب كان على أشده تنفيذا للسياسة الاستعمارية الهادفة إلى ربط المستعمرات الفرنسية الإفريقية ببعضها. أما السلطان المغربي الذي كان يرى أن هذه المناطق الجنوبية جزء لا يتجزأ من

---

189 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص: 345.

190أنظر: -Si Hamza Boubakeur, Un soufi algérien : sidi cheikh, sa vie, son œuvre, son role historique, ses déscendant(ouled sidi cheikh), édition maisinneuve et larose, Paris 1990, P : 249

191. IBID

192 أنظر: -Si hamza boubakeur, Origines de la guerre du sud oranais(1964-1900), revue d'histoire maghrébine, N°6 Tunis, juin 1976.

بلده، فإنه كان يرى في تواجد الشيخ هناك ذريعة للتغلغل الفرنسي. لذلك سعى إلى أن يطلب منه مغادرة المكان، ولم يستجب له في مده بالعون لمواصلة جهاده.

وقد قامت حملة كبيرة في الصحافة وفي الأوساط الفرنسية في الجزائر خوفا من أن تكون لمقاومة 1881 ارتباط وثيق بالحركة السنوسية. ففي سنة 1884 افتتح ديفيريي Duveyrier عهده بمواجهة السنوسية، وصرح الحاكم العام تيرمان لصحيفة "الصباح" le matin الصادر في 23 ماي 1885 أن الحركة السنوسية تمثل أكبر خطر يهدد الجزائر.

ومما زاد من هذا الاعتقاد اكتشاف الفرنسيين لرسائل موجهة من اسطنبول إلى بعض أعيان الجزائر يدعونهم فيها إلى الثورة، كما ألقي القبض على بعض المسلمين من غير الجزائريين.[193]

واستقبل الشيخ بعض الفرنسيين وهو في دلدول، ومن هؤلاء الملازم بالات Marcel palat المكلف باكتشاف الصحراء الذي زار الشيخ سنة 1885 رفقة محمد بن سي قدور، بعد أن تجول في منطقة توات ثم عاد إلى بلدة آوغروت. وقد تم اغتياله هو ومترجمه بلقاسم في نقطة تادمايت شرقي عين صالح في شهر فيفري من سنة 1886[194] وكان اغتياله على يد بن باجودة الذي كان من زعماء عين صالح.

---

193 أنظر: -Charles. r.a. Les algériens musulman... P : 310.

194أنظر: -Auguste et lacroix, la pénetration.. P : 101.

علاقة الشيخ بالمنطقة الجنوبية الغربية(منطقة القصور):

في هذه المنطقة، منطقة قورارة، لم ينعزل الشيخ عن أتباعه ومريدي الطريقة الشيخية في المناطق الشمالية من الصحراء، بل ظلت القوافل التجارية ذاهبة آيبة بين منطقة جبال القصور وقورارة، وكان هؤلاء التجار يحملون إلى الشيخ أخبار مناطقهم ويتلقون منه تعليماته ونصائحه. وكان اهتمام الشيخ بالقبائل التي لم تؤيده في حركته، مثل اهتمامه بالقبائل التي ناصرته، يسدي للجميع النصح ويحاول حل مشاكلهم ويؤاخي بين المتخاصمين ويدعو الجميع إلى الصبر والتعقل.

لقد كان من العادة أن تقوم قبائل جنوبي السهول المرتفعة وشمالي الصحراء برحلة تجارية سنوية نحو الجنوب، حيث "تنتظم في الابيض سيد الشيخ وبريزينة ومغرار، في قوافل تحمل نحو الجنوب مواد غذائية كالأغنام والأصواف والقمح والشعير والفول والدهون والجلود المصنعة والزرابي واللحوم المجففة وبعض مشتقات الحليب الجاف (الكليلة)، ويتبادل سكان هذه الجهة مع سكان قورارة وتوات بهذه السلع سلعا أخرى عن طريق المقايضة كالتمور والفلفل والحناء والحبال والقفف والتبغ وغير ذلك.."[195]

وكانت القوافل تغادر نقط انطلاقها من جنوبي الأطلس الصحراوي في نهاية شهر نوفمبر أو بداية ديسمبر وتعود في نهاية جانفي أو بداية فيفري. وقد بلغ عدد الإبل المستعملة سنة 1893-مثلا-: 15.000 جملا وبلغ عدد الرجال 4.000 رجل.[196] وكانت هذه القوافل السنوية المتجهة نحو الواحات الصحراوية هي إحدى أكبر تظاهرة في الحياة الاقتصادية في الجنوب الوهراني

---

195 أنظر: -Gendre F. La région des ksour du sud oranais, revue tunisiènne N°81, Tunis 1910, P :218.

196 أنظر: -De lamartinière Het Lacroix NDocument… P : 168.

(البيض – مشرية – عين الصفراء)، باعتبارها مورداً هاما لقبائل السهول المرتفعة ومنطقة جبال القصور، كما أنها جد ضرورية لسكان قصور قورارة وتوات لحاجتهم إلى منتجات الجهة الشمالية.

وهكذا كان سكان منطقة جبال القصور يمثلون الوسيط التجاري بين المنطقة التلية والصحراء بقصورها المتعددة. "ومن السهل إذن، والحالة هذه، أن يستمر الشيخ في ربط علاقاته مع قبائل الجنوب الوهراني والجنوب الشرقي المغربي، وأن مقدميه يعملون بنشاط كبير ضد فرنسا".[197]

لقد كان الكثير من مقدمي الشيخ ومريدي الطريقة الشيخية وغيرهم يرافقون هذه القوافل للقيام بعملية التجارة وزيارة الشيخ في آن واحد.[198] وكان الناس، أثناء قيامهم بالتجارة، يحملون إلى الشيخ هدايا نقدية وعينية حتى من غير مريدي الطريقة، من الذين يودون الحصول على بركات الشيخ "المرابط" والاسترشاد بنصائحه، فكان يباركهم ويدعو لهم بالخير والنجاح وينصحهم باتباع طريق الهدى والمؤاخاة، يوجههم ويحذرهم من الفرنسيين وأعوانهم.

وقد التحقت بالشيخ عدة قبائل وأفراد في دلدول، فقويت جموعه مما أدى إلى قلق السلطات الفرنسية التي لاحظت هجرات السكان نحو أقصى الجنوب، "بعد أن باعوا أراضيهم أو رهنوها بأثمان بخسة، وهذا دليل إنذار بالمقاومة -كما اعتقد الفرنسيون- ففي توات حيث لجأ بوعمامة سيتم إعداد

---

197 أنظر: -René pinon, L'empire de la méditerranée.. p/ 211

198 يَذكر الراوي عبد العالي محمد بن احمد(95 سنة-عين الصفراء 1995) أن "القَفل كان يخطر لقورارة.. كانوا يزوروا، ادّاوْا الزيارة، مشات أمّْ ومشى أبّْ... وادّاوْا، راك عارف، كانتْ حاجة كبيرة، قاع القبيلة..."

العدة من جديد، لا يجب أن يكون هناك تردد، يجب أن نضربه قبل أن يضربنا، يجب الضرب بقوة.."[199].

وكان للشيخ اتصال دائم بسكان بلدة فكيك، حيث كان يستقر عدد من أولاد بَلْحُرْمَة وأولاد سيد الشيخ عامة، بالإضافة إلى أتباع الطريقة الشيخية من الفكيكيين، حيث كان يراسل هذه القبائل ويربط الصلات مع القبائل الحضرية والبدوية المغربية والجزائرية على السواء (بْنِي قيلْ، البْرابَر، العْمورْ، خْمِيّان، ذْوِي مْنيعْ، أولاد جرير..)

علاقة الشيخ بالفرنسيين واتصالاته بهم:

حتى سنة 1884 كانت بلدة عين الصفراء هي أقصى مركز أقامه الفرنسيون في الجنوب الغربي الجزائري، لذلك قرر الحاكم العام العمل على دفع التوسع أكثر نحو الجنوب، وهكذا تم احتلال ثلاث نقط جديدة هي: حاسي سليمان على المنحدر الشمالي لجبل العمور(بني سمير)، وفوناسة في داخل السلسلة الجبلية والثالث هو جنين بورزق في الأراضي السهلية جنوب المرتفات الجبلية، وقد تم بناء سكنات من قبل الجنود الفرنسيين وتم تسطير طريق ثانوي يربط المراكز الثلاث ببعضها البعض. ولكن وبعد مرور سنوات قليلة أقيمت ثكنة عسكرية ببلدة جنين بورزق وتم الإستغناء عن المركزين الآخرين الذين تحولا إلى مجرد أطلال.[200]

---

199 أنظر: -Rouine L. Le sud ouest oranais et le touat, Bull. de soc. De géog. Et d'archéologie d'Oran 1891, P : 367.

200أنظر: Dans l'extrême sud oranais, un poste dans le bled….P :138.

فوناسة عبارة عن واحة بها عين ماء، أقام بها الجنود الفرنسيون حديقة، وبعد مدة استقرت بها مجموعة من الإسبان الذين اقتسموها فيما بينهم، ولكن كثرة الغارات عليهم من قبل البدو أجبرتهم على ترك المكان.

وفي أقصى الجنوب، حيث كان الشيخ بوعمامة لاجئا هو وأتباعه في قورارة، فذلك "لا يعني العزلة ونهاية النشاط وإنما القصد منه هو تنظيم الصفوف من جديد والاستعداد لاستئناف الحركة".[201] ومن هناك، من قورارة، كان الشيخ يبعث بالسرايا لوضع كمائن للقوات الفرنسية ومهاجمة قوافلها، كما كان يعترض سبيل القبائل الموالية للفرنسيين للعمل على ردعها وتشتيت شملها وغنم أموالها لفائدة المجاهدين من القبائل المحيطة به، ويتفق عدد كبير من الرواة وخاصة رواة منطقة دلدول أن الشيخ حارب الفرنسيين وهو في دلدول وجرح جرحا بليغاً، وأن حصانه قتل في المعركة، ذلك الحصان الذي كان لموته أبلغ الأثر على نفسية الشيخ، مما جعله يقبره ويدفنه، إلا أننا لم نجد دليلا موثقا على ذلك، سوى الصدام الذي وقع بين بعض الطوائف التي رغبت في العودة إلى بلدانها نتيجة ما أصابها من مآس وبين التي رفضت ذلك وفضلت البقاء إلى جانب الشيخ.

ويعترف الفرنسيون بأن تلك الهجمات المتكررة على مراكزهم في الجنوب يمكن إرجاعها إلى استقرار بوعمامة في قورارة.[202] وأن العدد الكبير الموجود بجواره لهم روح عدائية ضد فرنسا مما يمثل تهديدا دائما للمراكز الفرنسية الجنوبية ولأتباعهم في هذه المنطقة.[203]

وفي هذا المجال قامت مجموعة من أولاد مُولاتْ الآتين من أعماق توات سنة 1886، بالإغارة على إحدى القبائل جنوبي مغرار، كما أن الطوراق بمساعدة الشعامبة جاءوا للقيام بعمليات ضد القوات الفرنسية سنة 1887.[204]

---

201 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج: 2، ص: 16.

202 أنظر -De la martinière et la croix, Document… T :2, P : 138.

203 IBID. P :142.

204 IBID, P : 143.

وقد عمل الفرنسيون منذ اندلاع مقاومة 1881 على الإسراع في مد السكة الحديدية نحو الجنوب الغربي للسيطرة على المنطقة، وقد ذكر الضابط "رين" سنة 1886 أنه عندما تصل هذه السكة في مواجهة فكيك "سنكون أكثر قوة من البدو الذين يسيطرون على هذه المنطقة". ويتأسف على تأخر وصولها إلى عين الصفراء مما يعرقل مسيرة الفرنسيين نحو الجنوب ويشجع أنصار بوعمامة.. ويذكر أن قوة الفرنسيين في عين الصفراء أصبحت غير كافية للدفاع عن القصور، ويدعو إلى إقامة قوة في "جَنَّيَنْ بورزْق"، تلك البلدة المتواجدة على بعد 20 كيلومتر من نخيل مغرار الفوقاني، لمواجهة هجمات البدو، ويؤكد أنه لا تقدم ولا أمن داخلي أو خارجي بدون احتلال كل الصحراء الجزائرية...[205]

وفي الوقت الذي كان الشيخ يبعث برسائل مهدئة للسلطات الفرنسية، فإنه كان يتمون بالأسلحة ذات الطلقات السريعة من الذخيرة الوافرة من وجدة ومليلية،[206] مما زاد من حيرة السلطات الفرنسية لهذا الرجل ذي الوجهين.

والحقيقة أن بلدة مليلية كانت قد تحولت إلى منطقة حرة منذ سنة 1881 فتضاعف إشعاعها التجاري إلى أن بلغ أحواز تازة وتوات وخصوصا فيما يتعلق بترويج السلع الأوربية.[207]

---

205 أنظر: -Louis rinn, Nos frontière sahariènne, revue africaine, N° 30, 1886, OPU, Alger 1985, P 236 à 242.

206 أنظر: -De la martinière et la croix Document.. P : 154.

207 عكاشة برحاب، شمال المغرب الشرقي قبل الإحتلال الفرنسي 1873-1907، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1989، ص: 294.

قضية الأمان:

راسل الحاكم العام للجزائر راندون[208] الشيخ سنة 1886، مؤكداً له أن رجوعه مرهون بتسليم نفسه بدون شروط وتقديمه إلى العدالة لتنظر في قضيته، وقد تحدثت التقارير الفرنسية عن رفض السلطات الفرنسية لاقتراحات صلح تقدم بها الشيخ قبل توجهه إلى منطقة قورارة وذلك لعدم ثقتها فيه. وهو ما يدعى بطلب "الأمان". إلا أن الشيخ كان ينظر إلى عملية الأمان بمفهوم مختلف عما كان ينظر إليه الفرنسيون، فبينما كان الفرنسيون ينظرون إليه على أنه الاستسلام، كان الشيخ ينظر إليه بمعنى عدم تعرضه هو وأتباعه للمضايقات وإلى كل ما يسيء إليه وإلى رفقائه؛ أي بعبارة أخرى حسن الجوار والحفاظ على المصالح المشتركة. فلم يكن الشيخ "بوعمامة" ينظر إلى مسألة الأمان بمعنى الاستسلام التي يعتبرها رضوخا للمستعمر من جهة، وللكافر من جهة ثانية، معتمدا على قول الله سبحانه: "وَمَنْ يَتَوَلَّهم مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ".[209]

لقد رأى الشيخ الكثير من أتباعه يودون العودة إلى أوطانهم بعد أن انكسرت شوكتهم أمام القوة المادية للقوات الفرنسية، وطالت غربتهم فخافوا على أنفسهم وأموالهم، لذلك راسل الشيخ السلطات الفرنسية طلبا للأمان لهم من خلال تأمينه هو بصفته الزعيم القائد.

فالأمان هو الضمان، وفي التراث الشعبي للمنطقة الجنوبية الغربية، وخاصة في الحكايات الشعبية يقول الرجل الذي يطلب ضمان حياته مخاطبا السلطان: "ذَمْ عْليّ تْخَبرَكْ"، والذمام هو الأمان، وفي حكايات ألف ليلة وليلة يقول الرجل الطالب للأمان مخاطباً الملك: "أعطني الأمان يا ملك الزمان".

208حاكم عام للجزائر في الفترة بين 1881 و 1891.

209سورة المائدة، الآية 51.

فالأمان الذي يطلبه هذا الرجل أو ذاك ليس الاستسلام والخضوع لشروط ومطالب الآخر، بل هو ضمان لحياة النفس خلال زمن معين، هو زمن الوقوف بين يدي السلطان نظراً لقوة ذلك الآخر وتفوقه الآني.

وبما أن الشيخ لم ينظر إلى مسألة الأمان بمعنى الاستسلام، فإننا لم نره يقدم يوما إلى المناطق التي يسيطر عليها الفرنسيون، ولا حاول مرة واحدة، بل إنه استعمل ذلك ليعيش أتباعه في أمن مما قد يصيبهم من العدو، وهذا ما كان يوضحه في كثير من مراسلاته لقادة السلطات العسكرية الفرنسية، أي أن الأمان في فهم الشيخ "هو السلم والعهد والصلح والاحترام المتبادل بمعناه العملي بحيث تدخل في إطاره حرية تنقل أتباع الطرفين في مجال النفوذ لكل منهما من غير أذى يصيب الأنفس ويلحق بالأموال".[211]

"والأمان هو أقوى أمور الصلح ودلالة على اشتداد السلطان.. وهو من مكايد القتال ومصالحه، وإن كان فيه ترك القتال لأن الحاجة داعية إليه.."[212] ولقد وعى كثير من المسؤولين الفرنسيين أهداف الشيخ من طلب الأمان، فلم يعيروه اهتماما ودعوا حكومتهم إلى الانتباه لذلك. ولأن قضية الأمان نفسها كانت موضوعاً للجدل بين ذوي السلطة الفرنسية أنفسهم.[213]

وعموما فإن الهدف الآخر للشيخ من مسألة الأمان التي كان يطلبها أحيانا هو التمويه على السلطات الفرنسية حتى لا تقوم بإذايته، في الوقت الذي كان يوجه فيه الهجمات بواسطة أعوانه ورفقائه على القوافل العسكرية الفرنسية والمراكز المنعزلة وأعوان الاستعمار.

---

211 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج.2، ص: 10.

212محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص: 41.

213 عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص: 11.

مراسلات الشيخ واتصالاته:

شهدت سنة 1888 حركة نشيطة لمبعوثي الشيخ إلى جهات مختلفة لربط الصلات الودية بين القبائل والأوساط المختلفة ودعوة الناس إلى اتباع طريق الخير في المعاملة والابتعاد عن طريق الشر، ودعوة السلطات الفرنسية إلى كف أذاها عن أتباعه ومريدي طريقته الذين كانوا يتعرضون للقتل والسلب والنهب من قبل الفرنسيين وأعوانهم. من ذلك رسالته إلى بعض القبائل في ماي 1888، ورسالته إلى القائد العسكري لغرداية في أفريل 1888 ورسالة أخرى إلى سي قدور بن حمزة الذي كان قد خضع للفرنسيين. وقد انضمت في هذه السنة مجموعة من قبائل الشعامبة إلى الشيخ بوعمامة.[214]

ويشير أحد الضباط الفرنسيين أنّه في سنة 1887 وخاصة سنة 1890، غادر عدد من قبائل الشعامبة بلادهم (متليلي وورقلة، والمواضي في المنيعة)، واستقروا في دلدول إلى جانب الشيخ وهو مؤشر خطير، كما يقول الضابط الفرنسي، على قبائلنا الصحراوية، خاصة وأنّهم أصبحوا تحت سلطته ولا يستمعون إلاّ إليه، وهم على استعداد للقيام معه مثلما فعلوا مع محمد بن عبد الله بوشوشة.[215] ويدعو هذا الضابط حكومته إلى الاستيلاء على قورارة وتوات وتاديكالت لإنشاء الإمبراطورية الإفريقية المستقبلية.

---

214 عن مطبوعة تضم أسماء مجاهدين من الشعامبة المنضمين إلى مقاومة الشيخ بوعمامة، يصاحبها تعليق وتوضيح مستقى من كبار السن الذين حضروا الأحداث، وبالأخص الحُرمة محمد بن سليمان المتوفى سنة 1963 بمتليلي عن عمر يناهز 130 سنة. رواية: بْحَيْصَة علي بن علال، 70 سنة، مجاهد من شعامبة متليلي، الملتقى الوطني الأول لمقاومة الشيخ بوعمامة، الجزائر 14 و 15 أوت 1999.

215 أنظر: -Bajolle (capitaine), La question saharienne, confrérie de garnison, bull. de soc. De géog. et d'archéo. D'Oran. 1891. P : 168 هو محمد بن التومي بن إبراهيم ويدعى بوشوشة(1869–1874)، أما محمد بن عبد الله فهو مقاوم آخر.

ويفسر دولاكروا ولامارتنيار أسباب التحاق الشعامبة بالشيخ بوعمامة بأنهم محبون للحرية والاستقلال، ولذلك ساءهم ما قام به زعماء أولاد سيد الشيخ عندما عقدوا الهدنة مع السلطات الفرنسية، رغم أنهم كانوا ينظرون إلى زعماء هذه العائلة "المرابطة" باعتبارهم أبطال الجنوب، ولهذا اتخذوا وجهتهم نحو بوعمامة الذي اعتبروه محيي الإسلام وهو مهاجر في الجنوب انتظارا للوقت المناسب.[216]

أما التقارير الفرنسية لهذه السنة فتشير إلى دسائس بوعمامة وتزايد نفوذه بين بعض القبائل في السهول المرتفعة وفي الصحراء، وأنه لا يمكن الاعتماد كليا على بعض القبائل لولائها الكبير للشيخ.[217]

وعموما فقد تميزت هذه الفترة بكثرة مراسلات الشيخ مع جهات عديدة، صديقة كانت أم من الخصوم، وهي مراسلات تتميز بخصوصيات فنية مناسبة تنقسم إلى استهلال ومتن وخاتمة، يبدأها بالبسملة والصلاة على النبي ويختمها بتاريخ اليوم وبالتوقيع والختم الذي يوضع في آخر المراسلة. وهي عملية تثبت مدى الفطنة والحس الديبلوماسي الذي كان يتميز به الشيخ بوعمامة. فقد كان يعيش عصره ويعرف وسائل الاتصال التي تقضى بها المصالح. لقد كان فقيه عصره ومحيطه ولكنه كان أيضا عسكريها وسياسيها المحنك.

الوضع في الجنوب الوهراني (منطقة القصور):

رغم مغادرة الشيخ لمنطقة جبال القصور، التي كانت المقاومة قد انطلقت منها، والتجائه إلى منطقة قورارة في دلدول، فإن منطقة جبال القصور

---

216 انظر: -De la martinère et la croix, Document.. P : 862

217 منها تقرير القائد العسكري للناحية الوسطى، إلى الحاكم العام المؤرخ في 25 جوان 1888.

لم تهدأ نهائيا، بل واصلت القبائل تنظيم الغارات على الفرنسيين، من ذلك أن قبيلة العمور التجأت بعد الضغوط الفرنسية عليها، إلى جبل بْني سْمير على الحدود الغربية سنة 1883 تحت زعامة كل من محمد ولد علي (من أولاد عبد الله) الملقب "بسلطان الجبل"،[218] وبوفلجة ولد مبارك (أولاد بوبكر)، وهما "الرجلان الثائران والطموحان اللذان لم يقبلا الخضوع للسلطة الفرنسية منذ سنة 1882، وعملا على تحريض إخوانهم للانضمام إليهم في الغرب".[219] وقد تواصلت مغادرة العديد من أفراد هذه القبيلة (العمور) للمناطق التي تخضع للسلطات الفرنسية سواء في اتجاه جبل بني سمير أو نحو المغرب الأقصى، رغم محاولات الفرنسيين العمل على وقف هذا النزيف البشري. ومن هناك، من جبل بني سمير ومن المغرب عمل هؤلاء على تهديد خطوط تنقلات الفرنسيين وأعوانهم في مختلف الجهات.

ولتفادي التحاق بقية فروع القبيلة بإخوانهم في الغرب، قامت السلطات الفرنسية بحصار خيام العمور واعتقالهم سنة 1888، وجمعهم بطريقة لا إنسانية بحيث ألزمتهم بالرحيل حينا دون انتظار إخوانهم الغائبين أو حيواناتهم التي ترعى بعيداً، وهي المورد الأساسي لعيش القبيلة، وبذلك فصل الفرنسيون بين أفراد العائلة الواحدة، وحرموا بعضها من أنعامها. وفرضت على العمور الإقامة الجبرية في آفلو بعيدا نحو الشرق. وقد عانوا هناك الأمرّين من فقر وحرمان، بعد أن نفذت موارد عيش البعض من الموسرين، ثم نُقلوا إلى دائرة سعيدة للعمل في قطف الحلفاء، التي لايحصلون من ورائها سوى على قدر ضئيل من الغذاء لسد الرمق، مع ما في هذا العمل المضني من مشقة وعذاب.

218أنظر: -De la martinière et La croix, Document..P :287.

219 أنظر: IBID, P : 300.

وقد سجل بعض الشعراء الشعبيين حادثة الهجرة هذه، فذكروا كيفية معاملة الفرنسيين لقبيلتهم والطرق التي ساروا فيها والمآسي التي لاقوها. من ذلك قول الشاعر التاجي: الشيخ بومدين وهو يتأسف على رحيل العمور "خدام أولاد سيد التاج" وإخوانهم في آن واحد:

عْمورْنا مَرُّوا هَجْروا　　　　خَلُوا البْلاد لَلّي كَفْروا..

ومنها قول أحد الشعراء المجهولين وهو يحن إلى حبيب فارقه:

وَيْن اعْطيتْ يا الحبيب غَيّبْتْ عْليّ

مْشيتْ خْلاَطْ سَاعَة كُنا هُجّارْ.

أما الشاعر إبراهيم الحْجِيرة من قبيلة المرينات فيقول في قصيدته التي يتذكر فيها الأهل والأوطان:

والْمكابْرة ولّت بْلاذْها عْفية　　　　ويا غْروري اللّي صَاقونا الصّبَايْحيّة

العْساكر تزّاهَرْ وتْقول ويدّان　　　　منين نتلفت نلقى غير فَسْيـــــانْ...[220]

وفي سنة 1891 سمحت السلطات الفرنسية لأفراد القبيلة بالعودة إلى أوطانها، ولكن البعض منهم تمرد على هذه السلطات سنة 1894 وغادر منطقة عين الصفراء في اتجاه الأراضي المغربية بمساعدة أفراد من قبيلة أولاد سيدي عيسى إحدى فروع قبيلة أولاد سيد الشيخ الغرابة.[221]

وكان الشيخ بوعمامة على علم بكل ما كان يجري في المنطقة، لذلك عندما وصله خبر رغبة بعض العمور المتواجدين بالمغرب في العودة إلى الجزائر سنة 1893 راسلهم ناصحا إياهم بعدم العودة، ومما جاء في رسالته: "... لا

220فسيان: تعني ضابط، وهي أصلا كلمة فرنسية أصلها: Officier القصيدة من جمع بن طالب عبد القادر بن بوسماحة، أحد حفدة الشاعر الشعبي، موظف ببلدة جنين بورزق 1995.

221 أنظر: -Gendre F. La région des ksour du sud oranais, année 1910, P :133.

يليق بكم ما سمعنا عليكم من جهة الرجوع للكفار، قبح الله سعيهم، كل ما تحبوه (تجدوه) عند الله ورسوله وعبد القادر بن محمد.."[222].

وقد راسلهم وهو مستقر بدلدول، وعن قريب سيرحل من هناك. مع العلم أن قبيلة العمور لم تكن ضمن المهاجرين معه هناك، بل بقوا في أراضيهم أو في المغرب في صراع مع الفرنسيين.

أما عدد الخيام التي كانت متواجدة إلى جوار الشيخ في دلدول سنة 1890 فهي كالتالي:

84 خيمة للشعامبة.

6 خيام لأولاد زياد الشراقة (الجرامنة).

3 خيام لأولاد بودواية (زْوَا غرابة).

5 خيام لأولاد سيد الحاج أحمد (زْوَا غرابة).

خيمة واحدة لأولاد سيد الحاج بوحفص (زوا شراقة).[223]

أما المجادبة (أولاد سيدي أحمد المجدوب) والطرافي والكرارمة الذين رافقوا الشيخ إلى دلدول فقد وقع بينهم خلاف فعادوا إلى أوطانهم بمنطقة البيض مارين بالقليعة فالأبيض سيد الشيخ فالمحررة، وقد تحمل سكان قصر عسلة عبء معيشة عدد كبير من أولاد سيدي أحمد المجدوب فترة زمنية حتى تمكنوا من الاعتماد على أنفسهم، على اثر ما لحقهم من مآس خلال هجرتهم مع الشيخ نحو الجنوب.

---

222 إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وحدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، الجزء الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص: 228.

223انظر: -De la martinière et la croix, Document... P : 151.

ومن المعروف أنه كانت هناك علاقة ودية بين البدو الرّحل وسكان القصور في هذه المنطقة كلها، حيث تجد كل عائلةً بدوية عائلةً حضريةً في القصر تتعامل معها ماديا ومعنويا كالتزاور والمتاجرة طيلة أيام السنة.

موقف السلطات الفرنسية:

عملت السلطات الفرنسية منذ وصول قواها إلى بلدة عين الصفراء سنة 1881 على ضمان حراسة مختلف المنافذ الجبلية التي يمكن أن يتسرب منها المجاهدون من الجنوب أو من الحدود المغربية، فأنشأت أربع مجموعات عسكرية كالتالي:

الأولى في سفيسيفة لحراسة اتجاه إيش وشط تيقري.(منطقتان مغربيتان إلى الغرب من عين الصفراء.)

والثانية في فوناسة لضمان الأمن على طول المضيق (7 كيلومترات).

والثالثة في حاسي سليمان بن موسى لضمان الاتصالات بين فوناسة وعين الصفراء.

والرابعة في مغرار التحتاني حيث تم إنشاء مركز فرسان لحراسة واد الناموس وسهل الفايجة.

كما تم إنشاء مركز محصن في بلدة جنين بورزق إلى الجنوب من الأطلس الصحرواي وذلك في جويلية سنة 1885، من قبل الجنرال ديلبيك لتسهيل الاتصالات التي تربط فكيك بعين الصفراء ومراقبة البلدة الأولى، الواحة المغربية الهامة.[224]

224ستصل السكة الحديدية بلدة جنين بورزق سنة 1892.

وقد وقع سوء تفاهم بين السلطات الفرنسية والمملكة المغربية حول الحدود الفاصلة بين البلدين، إلا أن الموضوع تمت تسويته بعد إجراء اتصالات متعددة، وخاصة على إثر المقابلة التي تمت في جنين بوززق في 25 نوفمبر سنة 1885 بين ممثلي السلطات المغربية والمقدم مارمي Marmet القائد الأعلى لدائرة عين الصفراء.

كما عملت السلطات الفرنسية على التعجيل بمد السكة الحديدية جنوبا، ليسهل نقل المؤن والذخيرة والجنود نحو الجنوب، وتسهيل التبادل التجاري مع المناطق التلية، وخاصة خدمة السلع الفرنسية وترويجها في الأسواق الجنوبية، وربما حتى الصحراء الكبرى، وقد وصلت هذه السكة فعلا إلى عين الصفراء سنة 1887.

وقد عملت السلطات الفرنسية على انتهاج سياسة فرق تسد بين زعماء أولاد سيد الشيخ، فشجعت قدور بن حمزة على معاداة الشيخ بوعمامة، وهكذا ساءت العلاقة بين الرجلين، مما جعل الشيخ يحاول رأب الصدع داخل العائلة الشيخية ويراسل سي قدور بن حمزة، حوالي سنة 1888، يحذره من تصديق الوشاة الذين يزرعون الشقاق بينهما، لكن هذا لم يعر تلك الرسالة اهتماما، وقام بعدة اتصالات مع القبائل التي كانت تؤيد الشيخ كالبْرابَر ودوي منيع وغيرها. كما راسل السلطان المغربي سنة 1894، الذي رفض التعاون معه حسب تقرير الجنرال سونيه قائد ناحية الجزائر الوسطى إلى الحاكم العام بتاريخ 23 أوت 1894.

وفي جانفي من سنة 1891 قامت السلطات العسكرية الفرنسية باحتلال بلدة القليعة (المنيعة) لحماية تواجدها في المنطقة وتسهيل الاتصال

بمنطقة قورارة، وهو الهدف الذي كان الفرنسيون يسعون إلى تحقيقه. وبهذا أصبحت القليعة، ذات الموقع المتوسط في الصحراء الجزائرية، مركزا يسهل للفرنسيين معرفة ما يجري في جهات عديدة من تلك الصحراء الواسعة، وخاصة نشاطات الشيخ بوعمامة واتصالاته الواسعة مع قبائل الجنوب والشمال على السواء، ومن هناك بدأ الفرنسيون يحضرون لمسيرهم جنوبا نحو قورارة وتوات وتاديكالت.[226]

وفي هذا التاريخ نفسه، جانفي 1891، تلقى قايد بلدة الواد رسالة من الشيخ بوعمامة يخبره فيها بأنه استقبل وفدا من طوارق أزجار وأهقار لمناقشة إتفاقية سلم تم عقدها بينهم وبين قبائل الشعامبة، جيرانهم من الجهة الشمالية والشمالية الغربية، وقد حضر اللقاء ممثلو مختلف فروع الشعامبة المستقرين في الواد وورقلة ومتليلي والقليعة.[227] وقد كان توسط الشيخ في هذه الاتفاقية دليلا على المكانة التي كان يحظى بها لدى هذه القبائل التي تسيطر على كل الصحراء الجزائرية.

في هذه الفترة حل شريف وازان، بإشارة من السلطات الفرنسية، بمنطقة توات رفقة بعض زعماء أولاد سيد الشيخ لدعوة سكان المنطقة إلى عدم معاداة الفرنسيين. ولكن رجال الشيخ لم يهدأ لهم بال وهم مبعدون في الجنوب عن أوطانهم وأهليهم يعيشون على أمل العودة يوماً ما، وكانوا يقومون من حين لآخر بالغارة على بعض المواقع الفرنسية، من ذلك هجومهم على قوات فرنسية في حاسي بوخنفوس وقد نفذت العملية بكل جرأة.[228]

226أنظر: -De la martiniére et la croix, IBID, T ;2, P321.

227أنظر: IBID, P :61.

228 أنظر: IBID, 149.

"وفي خريف سنة 1891 قام البعض من قبائل الشعامبة بعملية قتالية ضد أعوان الفرنسيين على بعد 150 كم شمالي ورقلة، استولوا فيها على حوالي 300 رأس من الإبل ثم انسحبوا نحو توات في الجنوب، كما قام رجال بوعمامة ومعهم الطوارق بغزوة استولوا فيها على 600 رأس من الإبل وقتلوا أحد عشر رجلا".[229]

وفي سنة 1892 سعت كل من السلطات المغربية والفرنسية إلى كسب ود الشيخ بوعمامة نظراً للنفوذ الذي أصبح يتمتع به في المنطقة الصحرواية. ففي هذه السنة وصلته رسالة من القصر الملكي بالمغرب تعترف بمكانته وتطلب منه الانتقال إلى بلدة فكيك للاقتراب من زاويته الأولى في مغرار التحتاني، وكان هدف السلطان من ذلك هو الحفاظ على هذه المنطقة تحت إشرافه بمساعدة الشيخ بوعمامة.[230] كما توصل الشيخ في السنة نفسها برسالة من المفوضية الفرنسية بطنجة تحمل وثيقة الأمان من الحاكم العام الفرنسي كامبون (1891– 1897)، ولكنها لا تترك له الحرية في ذلك، بل تطلب منه أن يكون تحت أوامر الحاكم العام الذي سيختار المكان الذي يريده له للاستقرار فيه.[231] وهي بذلك تتقرب منه لتجد فيه المساعدة على تنفيذ سياستها التوسعية في الصحراء.

---

229 دنيس بيلي، معالم لتاريخ ورقلة، ج:2، ص: 28.

230 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج.2، ص: 19.

231 انتدب الفرنسيون مفاوضا ماهرا هو بوحفص ليتفاوض مع الشيخ بوعمامة بوساطة شريف وازان، لكن بوعمامة يرفض كل تعامل أو تصالح مع الفرنسيين.

مكانة الشيخ:

لقد ازدادت مكانة الشيخ بوعمامة تألقا بين الأوساط الشعبية المختلفة لبقائه صامداً ضد العدو "الكافر". وبخاصة بعد استسلام سي قدور بن حمزة سنة 1883 ومقتل سي سليمان بن قدور في السنة نفسها. وهكذا بقي الشيخ هو الأمل الوحيد لمختلف الطوائف الشعبية التي أصبحت تنتظر ساعة الخلاص على يد الشيخ، حين يحين الوقت ويفتح الله أبواب النصر فيقوم المسلمون برمي الكفار في البحر ويقيمون دار الإسلام في بلادهم كما كانت دائما.

وفي دلدول كان الشيخ "بوعمامة" هو الحكم في كل قورارة ومنطقة العرق والصحراء الواسعة، ينتظر الساعة المناسبة للقيام بحركة ضد سلطات الاحتلال.

أما في المناطق الخاضعة للسلطة الفرنسية فإن ذكرى الشيخ تعيش في وجدان الناس، لذا حاولت السلطات الفرنسية بقيادة حاكم إقليم وهران الحد من الرباط الروحي الذي يربط سكان المناطق الجنوبية الغربية بأولاد سيد التاج وزعيمهم الشيخ "بوعمامة" وإحلال مرابطي تيوت محلهم، لكن تلك الجهود ذهبت سدى. لقد أصبح بوعمامة "الزعيم الأوحد وغير المنازع في كل الجنوب الوهراني، وأن مهابته ونفوذه ما يزالان بالدرجة نفسها التي كانت عليها في بداية عام 1881".[233]

وهكذا ثبت فشل المخططات الفرنسية ميدانيا حيث لم تستطع إلحاق الهزيمة بالشعب في دائرته النفسية والفكرية على المستويات الشعبية، رغم انتصاراتها في المواقع السياسية والعسكرية والاقتصادية على المستويات الرسمية.

---

233 أنظر: -De la martinière et La croix, IBID, P :374.

ب – العودة من دلدول: في الطريق إلى المغرب الأقصى (1894–1903).

عندما قرر الشيخ الرحيل عن منطقة دلدول بقورارة تألم السكان وبكوا لفراقه ورجوه أن يبقى بينهم معززا مكرما كما كان دائما، لكنّ الشيخ اعتذر لهم وأخبرهم أنّ وجوده بينهم سيكون مدعاة لقدوم الفرنسيين، وهو لا يريد أن يكون سببا في قدومهم إلى بلدهم، وأنّه لا يريد لهم سوى الخير والأمان، وحتّى لا يتهمه البعض من ضعاف النفوس بأنّه السبب في التواجد الفرنسي ببلدهم.[234]

لم ينتقل الشيخ مباشرة إلى فكيك بل كان تنقله بطيئا في العرق الغربي الكبير وواد زوزفانة. فقد استقر سنة 1894 في حاسي الحديد بنواحي بني عباس ثمّ في عقلة قرزيقة ثمّ انتقل ليقترب من المعمورة.

وقد نظم الفرنسيون خطة لاختطاف الشيخ باقتراح من الرائد قودرون Goudron حاكم دائرة البيض العسكرية، وذلك بعد عودته من دلدول، فكلفت الحاج الدين بذلك، ووضعت تحت أمرته 400 شخص من القوم لمفاجأته في واد زوزفانة لاختطافه، لكن الخطة لم يكتب لها التنفيذ، ووقع التراجع عنها خوفا من فشلها ومن النتائج التي ستترتب على ذلك الفشل.

اتصالات الشيخ ببعض القبائل في الجنوب:

استقر بوعمامة في العرق الكبير حيث حفر آبارا حملت اسمه (حاسي بوعمامة)، وهناك اتصل بأولاد جرير الذين بعثوا إليه "ميعاداً"[235] للتفاهم معه،

---

234 حسب روايات بعض المسنين من سكان بلدة أولاد عبو التي كان الشيخ مستقرا بها؛ وحيث توجد قبة للشيخ تزار إلى اليوم(ديسمبر 1995)، لكن الحقيقة هي أن السلطات المغربية والفرنسية هي التي أجبرته على ذلك بمختلف الضغوط.

235الميعاد يعني وجهاء البلدة وأصحاب الكلمة النافذة..

وبعد أن حلت مسألة قتلى أولاد جرير من قبل الشعامبة، التابعين لزمالة الشيخ، بتقديم دية تتكون من 20 جملا، اتفق الطرفان على التحالف بينهما، على أن يحضر أولاد جرير إلى جانب زمالة الشيخ مقابل مساعدتهم ضدّ هجمات خصومهم بني قيل، وهكذا انتقل أولاد جرير من منطقة غِيرْ ثمّ تجاوزوا زوزفانة واستقروا في العرق بعين الوبر بجوار "حاسي بوعمامة".

وبعد أيام قليلة جاء "ميعاد" آخر من كبار القبيلة فاستقبلهم الشيخ وكرر لهم تعهده السابق، ولكن حادثا طارئا غيّر الأوضاع، لقد استقبل الشيخ في اليوم الموالي وفدا من قبيلة بني قيل مما جعل ثلث أولاد جرير يغادرون عين الوبر احتجاجا على ذلك الاستقبال، واستقروا مساء ذلك اليوم في زوزفانة قرب العقلة الجديدة.

وعندما غادر الشيخ بزمالته عين الوبر، تركه معظم أولاد جرير وبقيت معه حوالي 50 خيمة من أولاد بديار وأولاد قويدر وأولاد بوزيان الذين بقوا أوفياء للشيخ وعاشوا معه، أمّا من بقي منهم في الجزائر فقد التجئوا إلى تافيلالت بعد أن احتل الفرنسيون أراضيهم.[236]

موقف سكان تافيلالت:

من تافيلالت، ومن حيث التجأت عدة قبائل جزائرية، كان هؤلاء يقومون بعمليات عسكرية ضدّ القوات الفرنسية، مواصلين جهادهم الشعبي بمساعدة إخوانهم في منطقة تافيلالت وغيرها من القبائل المغربية القاطنة في الجنوب الشرقي بنواحي فكيك-كما ذكرنا ذلك سابقا- حيث أنّ سكان

236انظر: -Albert F. (officier interprète), Oulad djerir, B.T. S. G. A. d'Oran, oct-dec 1905, P :396-398.

تافيلالت مثلا "لما علموا بالأنباء المزعجة سارعوا إلى توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم ثمّ عقدوا مؤتمرا عاما ضمّ قبائل هذه الجهات وزعمائها وقرروا على إثره المناداة بالجهاد للدفاع عن عين صالح وقبائل دوي منيع ابتداء من أواخر عام 1317هـ/ 1900م".[237]

ويبدو أنّ الشاعر الشعبي محمد بلخير كان متواجدا، آنذاك، بالمنطقة نفسها قرب الحدود الجزائرية المغربية، وكان له دور مهم بين المحاربين الصامدين انتظارا لمواصلة المعركة الحاسمة. في هذه الفترة، فترة الانتظار، كان الشاعر الشعبي المذكور يقوم بدور "المحافظ السياسي" للقوم. وكانت القصيدة التي أبدعها في الأراضي المغربية، مخاطبا شيخه عبد القادر بن محمد، والتي مطلعها:

دبّر عنّي يا سلْطانْ كلْ مْشالي　　　يا سَلاكْ الوَاحَلْ من ايْدينْ الرومْ.

وقد ذكر فيها حاله، البعيد عن الأوطان، واستعاد ذكريات الخيل المطهمة وهي تشم رائحة البارود وعليها الفرسان يلعبون ببنادقهم، وأحصنتهم وهي ترقص. كل هذا في أسلوب الفارس الشهم المتواجد بتافيلالت حيث اقتصاد الطاقة والذخيرة:

واشْ يْجيبْ جبَل كْسالْ لَلْفيـــــلالي　　　بكْري كانْ يْجيني طيْرْ حرّ يحومْ
طعامْ الله للْجيعانْ عقبْ لْيــــــالي　　　وارْوَاحينْ تمْــــرقْ رَافْد الميدومْ
في ذاكْ المضرَبْ ضَاري نْمرقْ خيلـــي　　　ويَسْـــــتنى عودي تْحيةْ القومْ
هذي تَحْريكَة وذيـــــكْ تْـــــوالي　　　ومَن ادْركْ العَلْفَة باروذْها كمْكوم
يَطلَــع في راســـي حُمّان بهْ نشالي　　　ويلْعَبْ عودي لَعْب زْفافْني مَلْطومْ.[238]

237 محمد المنوني، مظاهر نهضة المغرب الحديث، مطبعة المتوسط، بيروت 1985، ص: 25.

238 أنظر: -Boualem bessaih, Etendard interdit, la bibliothèque Arabe sindbad, Paris 1979, P : 31 et 32.

الشيخ يستعيد قوته:

أمّا عن نشاط الشيخ فيما يخص الاتصال بالسلطات الفرنسية، فقد استعمل لذلك أسلوبين، منها الرسائل التي يطلب فيها السلم واللقاء لبحث المشاكل المطروحة بين الطرفين، ومنها أسلوب الوساطة، حيث كلّف سنة 1895 الدكتور زيناريس بالاهتمام لدى السلطتين الفرنسية والمغربية بأتباعه وبتمثيله لديهما. كما كلف ابن عمّه وصهره أحمد بلمنور بالوساطة بينه وبين السلطة الفرنسية وذلك في مطلع القرن العشرين.

لقد لوحظ أنّ الشيخ كان متواجدا سنة 1895 بالمجرى الأعلى لواد الساورة،[239] وقد انتقل إلى الأعوج التحتاني في ماي من السنة نفسها على وادي زوزفانة، حيث التحقت به قبيلة أولاد قطيب (العمور)، ثمّ انضم إليه شُرَفَاء عين الصفراء وأولاد عيشة.

***جدول لإحصاء الخيام الجزائرية المتواجدة مع الشيخ بوعمامة في الجنوب في بداية سنة 1895:**[240]

اسم القبيلة	سنة الهجرة	الجهة التي تتبعها
عكّرْمة	1881	البيض
أولاد مومن	1888	البيض
بني ثور	1889	غرداية
مخادمة	1880	غرداية
شعامبة أولاد اسماعيل	1884	غرداية

239 أنظر: -De la martinière…. P : 318.

240 أنظر: IBID, P ; 380.

إلى جانب عدد من الخيام الأخرى:

40 خيمة لأولاد قطيب (العمور).

15 خيمة لأولاد سيد التاج.

40 خيمة لأولاد سيد الشيخ الغرابة (أ. سيدي بن عيسى – أ. سيدي الحاج ابراهيم).

100 خيمة لأولاد جرير.

150 خيمة لدوي منيع.

أي حوالي 500 خيمة بحوالي 700 بندقية.

لقد كان تنقل الشيخ بطيئا وهو يترحل بأثقاله في العرق الغربي الكبير بين واد زوزفانة وواد غير وواد الساورة. وفي سبتمبر من سنة 1896 وصل إلى نواحي فكيك.

لقد تدعمت قوات الشيخ خلال هذه العودة بانضمام عدد من القبائل إلى حركته والتي كانت مستعدة للوقوف معه إلى أبعد الحدود، بحيث أصبحت له قوة بشرية وحربية ونفوذ روحي يشابه الوضع الذي كان سائدا سنة 1881.[241] وكان يكفي أن يشير إليهم لينطلقوا نحو الجهاد في سبيل الأرض والدّين، ولكن الشيخ لم يتعجل الأمور.

وفي هذه السنة نفسها(1896) تدعم موقف الشيخ دوليا بوصول مبعوثين إليه من مختلف السلطات العربية والإسلامية، يحملون إليه رسائل الاعتراف بمشيخته في الصحراء كخليفة لأبي بكر الصديق, من السلطان العثماني ومن السلطان المغربي ومن حاكم تافيلالت.[242] وقد اقترح عليه السلطان المغربي

241 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج:2، ص: 22.

242 نفسه، ص: 22 و23، عن تقارير قائد الناحية الوهرانية إلى الحاكم العام، 19فيفري و 15 مارس و22 أبريل 1896.

إنشاء مراكز في نخيلة عند مدخل العرق الكبير وفي الحقاق وعند مدخل العقلات.

أما السلطات الفرنسية فقد أقلقها هذا الوضع بسبب ازدياد نفوذ الشيخ والخطر الذي يمثله هذا التواجد بالقرب من المراكز الفرنسية وتهديده لسياسة التوغل نحو الجنوب، فعملت على الضغط على السلطان المغربي للتخلص منه.[243]

في هذه الفترة تلقى الشيخ "بوعمامة" رسالة "الأمان" من الحاكم العام الفرنسي لافريير[244] المؤرخة في 8 نوفمبر سنة 1899، والشيخ على جانب كبير من القوة والنفوذ، كما ذكرنا سابقا، لذلك لم يُلَبِّ الدعوة، لكنّه لم يرد بالرفض بل نجده يستعمل الحيطة واليقظة والذكاء، فهو يشكر صنيع الحاكم العام ويعتذر له عن عدم تلبية قصده في الوقت الحاضر وأنّ ذلك سيكون في الوقت المناسب.

لم تكن هناك ثقة بين الشيخ والفرنسيين، لقد كان الاحتياط والحذر هو السياسة المطبقة تجاه بعضهما البعض، ورغم حصول الشيخ على الأمان من قبل الحاكم العام وبدون شروط، إلاّ أنّ الشكوك في صدق نوايا بعضهما البعض بقيت سائرة.

لم يقبل الشيخ الاستسلام إذن ولم يرفضه قطعا، لقد كان يلعب على الحبلين "إنّ تأثيره الحالي أتاه خاصة من حيث أنّه آخر زعيم حارب الفرنسيين ... وهو ينتسب إلى العائلة (المرابطية) الكبيرة: أولاد سيد الشيخ ... وإذا ما أصبح خادما للفرنسيين يوما ما أو قام فقط بحركة تنم عن رغبته في الاستسلام، فإنّ أتباعه سيتركونه ويفقد هيبته التي ما تزال كبيرة في فكيك، وفي كل

243 تقرير الجنرال بواتار قائد منطقة عين الصفراء إلى الحاكم العام في 14 أبريل 1896.

244حكم الجزائر بين سنتي 1898 و1900.

المنطقة، حيث يمثل الحكم بين مختلف الأطراف وهو الرجل المسموع الكلمة في الواحات ... إنّه فطن ومرن وذو وجهين، تنتاب علاقاته مع فرنسا والمخزن شكوك، إنه يلعب على الحبلين بمهارة".[245]

وهاهو الشيخ يعتذر سنة 1900 للحاكم العام لافريير الذي يدعوه للقاء بمناسبة تدشينه لمحطة السكة الحديدية بجنين بورزق، إنّ هذا الاعتذار يدل على رفض الشيخ لسياسة التوسع التي تنتهجها السلطات الفرنسية للتوسع نحو الجنوب.

محاولات الفرنسيين الاتصال بالشيخ:

في هذه السنة 1900 كان الشيخ متواجدا بنواحي فكيك وبني ونيف، وهاهو أحد الضباط الفرنسيين المتجه نحو الجنوب في قافلة عسكرية، والمتواجد آنذاك في مركز جنان الدار (القريب من بني ونيف) يبين ذلك في قوله: "كل يوم جمعة كنا نشاهد من أعلى الربوة الصغيرة التي تشرف على المركز، الثائر القديم يغادر معسكره ويتجه صحبة جماعة كبيرة نحو مسجد بني ونيف، حيث يمكث جزءا من المساء وهو يتعبد."[246] ويؤكد الضابط نفسه رفض الشيخ للحوار مع الفرنسيين في المقال نفسه فيقول: "حاول النقيب Ducloux – قائد ملحقة جنان الدار- عدة مرات اغتنام الفرصة لمحاورته (الشيخ). كان (النقيب) يرغب في أن يصل معه إلى تفاهم نحصل منه على عدة فوائد، لكن بوعمامة، وفي الوقت الذي يقبل فيه المواعيد التي طلبت منه، يتهرب دائما من الجهود

245 أنظر: -René pinon, l'empire de la mediterranée... P : 206.

246أنظر: -IBID, P : 219.

المبذولة لإحضاره إلى أراضينا وتأدية فروض الطاعة والإخلاص لفرنسا... بحيل مهذبة...".[247]

ويقول عنه الجنرال سوسيي Saussier قائد الفيلق التاسع عشر في رسالة إلى وزير الحربية الفرنسي بتاريخ 27 ماي 1900 ما يلي: "إنّه ينتظر الظروف الملائمة للثورة مرة أخرى، وأنّه وحسب ما نقله أحد الجواسيس العاملين لصالح الفرنسيين من فكيك، قد بعث برسالتين للسلطان عبد العزيز وكبير وزرائه على يد قايد زناقة محمد بن مرزوق. جاء في مضمونها مايلي: ... لقد أعطاني الفرنسيون الأمان، والهدف منه أن أساعدهم على مرور فرقهم العسكرية في وادي زوزفانة، إنهم لا يثقون بي، كما لا أثق فيهم بدوري، ولو كنت أعلم أنّني سأكون مدعوما من طرفكم لقمت بحركة جديدة".[248]

ورغم أنّ حرب المواجهة بين الشيخ والجيش الفرنسي قد توقفت، فإنّ المواقف العدائية بقيت بارزة بين الطرفين، وهذا ما يتضح من خلال الحوار الذي أجرته صحيفة "صدى وهران" Echo D' Oran مع السيد فيرمين فور Firmin Faure نائب وهران الذي كان يقوم بجولة في منطقة الجنوب الغربي في أوائل سنة 1900، فأوردت أنّ السيد فيرمين استقبل في معسكره بالزوبية Duveyrier (الواد الأخضر حاليا) المتواجد على بعد 15 كم من بلدة فكيك، استقبل ثلاثة مبعوثين من قبل الشيخ بوعمامة -الذي كانت خيمته متواجدة آنذاك في الحمام الفوقاني قرب زاوية سيدي عبد القادر بن محمد، على بعد 600 متر من جدران بلدة فكيك- وكان الهدف هو عقد لقاء بين الشخصيتين، إلاّ

---

247 أنظر: IBID, P :219,

248 أحمد العمار، مشكلة الحدود.. نقلا عن -Faujas M. La frontiére Algro-Marocaine, P :54. 2: Thèse de 3em cycle grenoble °, 1906

أنّ ذلك لم يتم بسبب الاختلاف حول مكان اللقاء. واكتفى النائب الفرنسي بإرسال استفسار للشيخ Questionnaire.

ومن بين ما رد به الشيخ على النائب قوله: إنّه يتعجب من الإدعاء القائل بأنّ فرنسا تهدف فقط إلى احتلال واحات توات وقورارة وتاديكالت، لكن الحقيقة أنّها تريد الاتجاه غرب إيغلي إلى تافيلالت البلد الغني والمغري بالاحتلال. ويذكر "فيرمين" أنّ الشيخ وجه كلامه "للفرسان المخزن" بصوت مرتفع قائلا لهم: "إنّ أصدقاءكم الفرنسيين كثيرون في هذا الوقت، لهذا سنتركهم يمرون، أمّا بعد مرور بعض الشهور فسترتفع الحرارة ويقل عددهم في الطرقات، وآنذاك سيتكلم البارود". ويختم فيرمين حديثه الصحفي بالدعوة إلى الإسراع في دفع أعمال السكة الحديدية إلى أبعد حد ممكن أو على الأقل إلى نخلات ابن ابراهيم، وذلك بهدف احتلال أقصى الجنوب والتمكن من وضع المناطق التي تمتد إلى تشاد وتمبوكتو تحت يد السلطات الفرنسية.[249]

ولقد حاول الشيخ أن يعطي لحركته طابعا نظاميا، وهو تسليم رخص مرور لأتباعه الذين ينتقلون إلى الأراضي التي يحتلها الفرنسيون، يبين فيها اسم الشخص واسم المكان المتوجه إليه مع توقيع الشيخ وختمه أسفل الورقة،[250] إلاّ أنّ السلطات الفرنسية لم تكن تعترف بتلك الرخص التي اعتبرتها غير قانونية لأنّ الشيخ -في نظرها- "يبحث بهذه الوسيلة وبغيرها للرفع من مكانته بين رجاله، وجعلهم يظنون أنّ سلطته تصل إلى حد إعطاء الأوامر للروَامَة الكْلاب."[251] وفي المقابل كان الفرنسيون قد سمحوا لأنفسهم بفرض رخصة

---

249 أنظر: -Echo d'Oran du 26 avril 1900. sous le titre : « Notre expansion saharienne. »

250 تجد في الصفحات الموالية صورة لإحدى الرخص المسلمة سنة 1900 وبجانبها الترجمة باللغة الفرنسية من مخطوط لضابط فرنسي مجهول.

251 أنظر مخطوط: -Dans l'extrême sud oranais....

على كل شخص "أهلي" ينتقل من مكان إلى آخر، تصدرها السلطات العسكرية في الجنوب، وأنّ على صاحب الرخصة التأشير عليها في كل المراكز العسكرية التي يمر بها.

وفي 19 نوفمبر من سنة 1900 التقى الشيخ مع ضابط مخابرات فرنسي في مكان يقع بين بني ونيف وجنان الدار، حيث أكدّ الشيخ للضابط ضرورة كف الأذى عن أتباعه، كما تعرف الشيخ من خلال ذلك اللقاء على الموقف الفرنسي تجاهه. "وكان إذا طلب منه التفاوض مع ولاة فرنسا، طلب منهم أن يقطعوا إليه نصف الطريق على أن يقطع هو إليهم نصفها الباقي، حرصا على قواعد البرتوكول المعمول بها بين النظراء والأنداد...".[252]

هكذا كان الشيخ يحرص على سلامة شخصه ويحتاط للأمور قبل وقوعها حتّى لا يؤخذ على غرة كما حدث للكثير من الزعماء الوطنيين قبله. لقد استقر أولا، في هذه الفترة، في بني ونيف بجوار ضريح سيدي سليمان بن بوسماحة أحد أشهر أسلافه، فقام ببناء قبة على ضريحه وزينها أحسن زينة بعد أن كانت عبارة عن "حُوَيطة". وأقام وليمة كبيرة دعى إليها مختلف سكان المنطقة، ثم انتقل إلى بلدة فكيك المجاورة، فبنى قبة مماثلة لمزار جد العائلة الشيخية عبد القادر بن محمد وزينها أحسن زينة هي أيضا. وقد حدث هذا حوالي 1900-1901.

بعض الوقائع مع القوات الفرنسية:

من موقعه هذا في بني ونيف وفكيك، كان الشيخ يرسل السرايا هنا وهناك لمهاجمة القوات الفرنسية والمتعاونين معها، ويثير القبائل على فرنسا

252 عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، ص: 91.

ويمدها بالمعلومات المفيدة، من ذلك معركة المنقار التي وقعت في 30 جويليت 1900،[253] والتي هاجمت فيها قبائل دوي منيع وأولاد جرير القافلة الرابعة للتمويل العائدة من إيغلي تحت قيادة الرائد بيشمان Bichemin. وقد تم فيها قتل ستة عشر جنديا من قوات اللفيف الأجنبي.[254] وفي هذه السنة أي 1900 تمكن الفرنسيون من احتلال منطقة تاديكالت وقورارة ووصلوا إلى تيميمون بعد خمسة أشهر من المعارك.[255]

لقد أصبح تحرك القوات الفرنسية في المنطقة الجنوبية تحركا مشوبا بالحذر والحيطة، يذكر ضابط إحدى القوافل العسكرية الذي كان متجها نحو الجنوب، والذي استقر مدة في المركز العسكري بِحَجْرَةْ الْمْقِيلْ (شرقي بني ونيف)، أنّ قوافم كانت تتعرض للهجمات ليلا وباستمرار، ويقول: "منذ شهر قتل لنا جندي حراسة، وجدناه مقتولا، وبعد ثمانية أيام قتل أحد موظفينا ليلا و لم نعثر على جثمانه، بل عثرنا على الدم فقط. منذ هذا التاريخ أصبح نومنا قليلا، عين واحدة مغمضة والمسدس في اليد". ويضيف: "عندما نكون مطمئنين في هذه المنطقة، آنذاك يجب الاعتناء جيدا بالحراسة".[256]

لقد كان التوتر سائدا في العلاقة بين الطرفين، فـــ "بوعمامة المتواجد منذ سنوات في فكيك ... لم يستغل الأمان الذي أعطي له سنة 1899، يتظاهر بخدمتنا، لكنّه في الحقيقة يحرض الناس ضدّنا كلما واتت المناسبة، ويحصل على

253تقع المنقار على بعد 27 كلم من المُرّة، على الضفة اليسرى لواد زوزفانة، إلى الشمال من بلدة تاغيت.

254 أنظر: -Bernard lugan, Histoire du Maroc, presses de l'imprimerie camping, Belgique 1922, P :211.

255 أنظر: -Duvaux, Zouzfana, guir, saoura, bull. De soc. De géog. et d'arch. D'Oran, janvier àmars 1902.

256 أنظر: -Dans l'extrème sud oranais.... P :14

نصيبه من الغنائم التي يأخذها أتباعه عند مواجهتنا. إنّ وجوده (في فكيك) يقلقنا، كل حين. فالسرقات والاعتداءات ضدّ مراكزنا وقوافلنا العسكرية والاستيلاء على الأغنام وقتل الحراس والهجوم على المنعزلين وقطع خطوط الهاتف تتضاعف بطريقة مقلقة في ناحية زوزفانة".[257]

وفي نهاية سنة 1900 تمكنت القوات الفرنسية -بمساعدة أعوانها- من قتل محمد ولد علي "سلطان الجبل" الذي كان قد ثار على رأس قبيلة أولاد عبد الله (العمور) منذ 20 سنة، والذي اعتزل الجبل مع رفقائه وعائلته بعد انسحاب الشيخ من المنطقة. وقد تمكن البعض من أفراد عائلته وقبيلته من النجاة، والتحقوا بالشيخ "بوعمامة" وهو في الجبل الأخضر بناحية بوعرفة (المغرب)، ويُذكر أن عددا منهم قتل بعد ذلك في معركة برديل وهم إلـــى جانب الشيخ في المغرب الأقصى.[258]

---

257 أنظر: -Auguste B. et la croix. La pénétration saharienne… P :159 et160.

258 رواية خديمي بجيلود، 81 سنة، من أولاد عبد الله العمور، عن الصفراء 1995.

صورة لرخصة مرور سلمها الشيخ بوعمامة لأحد رجاله (1318هـ/1900م) ورد تاريخ مخطوطة
لضابط فرنسي مجهول. أنظر:

— Dans l'extrême Sud oranais...

MARDI 27 NOVEMBRE

En territoire militaire tout indigène qui veut circuler doit se pourvoir d'une autorisation écrite délivrée par l'autorité militaire. C'est là une mesure très prudente et justifiée par le grand nombre de gens sans aveu, voleurs, pillards, qui pullulent par ici et qui ont intérêt à dissimuler leur identité. Chaque porteur de permis doit en outre faire viser son papier par les chefs des postes militaires près desquels il passe.

Or Bou Amama, dont la zaouia est située près de Figuig, à quinze kilomètres d'ici, s'est depuis quelque temps octroyé la licence de délivrer à ses gens des permis pour circuler chez nous. Il cherche par ce moyen, et par d'autres, à rehausser son prestige dans l'esprit de ses coreligionnaires ~~dont quelques uns s'imaginent volontiers~~ et à leur faire accroire que sa puissance va jusqu'à ~~qu'il est tout puissant et qu'il~~ donner des ordres à ces chiens de Roumis. Aussi à tous les individus qui se présentent à nous dans ces conditions nous retirons le permis irrégulier et nous les renvoyons d'où ils viennent.

D. AN

الحمد لله وحده

[illegible]

Louange à Dieu unique

Le porteur de cette lettre, Sliman ben Azouz ben El Hadj Ahmed est autorisé par Bou Amama à se rendre à Djenien-Bou-Rezg.

Allah — Protecteur des malheureux Bou Amama

(Année) 1318 (de l'hégire)

Permis délivré par Bou Amama, avec sa traduction —

علاقة الشيخ بالسلطات المغربية:

لم يكن وجود الشيخ في فكيك مرغوبا فيه من أية جهة، فسكان البلدة يتخوفون من أنّ ذلك سيجلب لهم تدخل الفرنسيين، والفرنسيون لا يريدونه بالقرب من مراكزهم، خاصة بعد أن رفض الخضوع لهم بعد حصوله على "الأمان"، وأمّا السلطان مولاي عبد العزيز فقد راسل سكان فكيك يطلب منهم عدم التعاون معه: "... وإذا ورد عليكم أبوعمامة الشيخي فنأمركم ألا تقبلوا استقراره ولا نزوله ببلادكم. إذ لا خير له ولا لكم في بقائه بناحيتكم..."[259] ويضيف السلطان آمرا محذرا: "ونأمركم أن تطلقوا النداء في أسواقكم كلّها بمنع جميع من ورد من قبله لاكتيال أو نحوه، والتضييق به وبسائر من معه...".[260]

والواقع أنّ المخزن بالنظر "إلى ضعف سلطته في تلك النواحي الشرقية والرغبة في تجنب ما من شأنه أن يفسد علاقة حسن الجوار واحترام السيادة المغربية من قبل الفرنسيين، وسعيا منه لإظهار حسن نواياه مع عجزه عن كل مواجهة حربية مع الفرنسيين، كان أسرع إلى تلبية ما يطلبه منه أولئك، من تهجير أو تحريض لقبائل المنطقة الشرقية ضدّ زعيم أولاد سيد الشيخ لإجباره على التزام السكينة. فكانت الإجراءات المخزنية ذات تأثير ملموس في تحجيم هذه الحركة وإضعاف فعاليتها".[261]

لقد وجه السلطان المغربي هذه الرسائل على اثر الاتفاقية الفرنسية المغربية المنعقدة في 20 جويلية 1901 بباريس بين كل من عبد الكريم بن سليمان وزير خارجية مولاي عبد العزيز وديلكاسيه Delcassé وزير خارجية فرنسا. وقد

259عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، ص: 83.

260 نفسه.

261 أحمد مزيان، فكيك.. ص: 483.

تركزت المفاوضات حول الحدود المغربية الجزائرية، والتي "وضعت من أجل تتميم إجراء العمل في الشروط المعقودة بين الدولتين المذكورتين سنة 1845. ومن ثمّ اقتصرت جل بنودها على المناطق الواقعة جنوبي ثنية الساسي..."[262] وتتضمن الاتفاقية إنشاء مراكز للمراقبة ونقاط جمركية في المناطق الجنوبية بين ثنية الساسي وفكيك وفي منطقة زوزفانة وغير، وتخيير سكان القصور وقبائل أولاد جرير ودوي منيع بين الخضوع للسلطة المغربية أو الفرنسية. وتعطي هذه الاتفاقية لفرنسا حق إرسال محافظ، يمكنه دخول بلدة فكيك بكل حرية، لضمان تنفيذ البروتوكول ومراقبة أفراد القبائل الموضوعة تحت حكم السلطة الفرنسية.

ويذكر الفرنسيون أنّ الشيء الوحيد الذي أفادهم من هذه الاتفاقية "هو إبعاد خطر بوعمامة الذي هاجر إلى فكيك، حيث أنّ وجوده هناك كوّن لنا القلق في كل حين، إذ أنّ كل محيطه هو السبب في كل الضربات التي أصابتنا".[263]

وقد حاولت السلطات الفرنسية الالتقاء بالشيخ لاختبار مواقفه ومعرفة مقاصده، وفي هذا المجال اتصل الجنرال أ. كونور O.Conor بـ سي الطيب ولد بوعمامة في 25 سبتمبر سنة 1901، وعبّر له عن رغبته في لقاء والده في الزوبية (Duveyrier سابقا)، لكنّ الشيخ يختار موضعا آخر للقاء وهو مدينة فكيك، وبذلك تفشل المحاولة، إذ يتمسك كل منهما برأيه.

ومن الاتصالات التي قام بها الشيخ لتوسيع علاقاته، هو وصول ابنه سي الطيب في نهاية جانفي 1902 إلى سي علال بن الشيخ بن الطيب أحد زعماء

262عكاشة برحاب، مرجع سابق، ص: 326.

263 أنظر: -Simon H. revue des questions sahariennes,in revue africaine N° 46- 1905, P : 247.

أولاد سيد الشيخ (الغرابة)[264] وإهدائه جوادا أصيلا، وقد كان الهدف هو محاولة توحيد كلمة أولاد سيد الشيخ، ثمّ انتقل سي الطيب إلى قبائل المهاية وبني قيل المغربية، حيث حصل على الدعم والمساندة وعاد بكمية هامة من "الزيارات."[265]

وفي هذه السنة نفسها تدخل الشيخ بوعمامة للإصلاح بين البْرَابر وبني قيل، فعاد السلم بين الطرفين، كما كاتب عددا من القبائل المغربية في المغرب الشرقي يطلب دعمها فجاءته الردود إيجابية من عدد كبير منها.[266]

وعندما كان الشيخ مقيما بنواحي فكيك وبني ونيف كان يؤدي صلاة الجمعة في مسجد البلدة الأخيرة بالقرب من ضريح أحد أسلافه المشهورين – سيدي سليمان ابن بوسماحة–.

وقد زار أحد الضباط الفرنسيين بلدة بني ونيف سنة 1902 وكتب عن ذلك ما يلي:

"كُلّف النقيب ديكلو DUCLOUX رئيس مركز جنان الدار من قبل الحاكم العام بالإطلاع على عيون الماء في بلدة بني ونيف كي تموّن بها البعثة ... وهكذا ذهبت أنا والنقيب والمترجم قرافي Gravier يوم 19 جانفي مع 50 فارسا من المخزن وبعض الصبايحية. فخرج الناس وهم على السطوح وبأيديهم

---

264 يقال إن علال هذا (المولود سنة 1862) كان يتعاون مع ممثل السلطان المغربي في وجدة: أحمد ركينة لمواجهة بوعمامة والروقي. وهو الذي خلف ابن عمه سي سليمان بن قدور على رأس أولاد سيد الشيخ الغرابة، بعد اغتيال هذا الأخير من قبل قبيلة آيت بوشاون سنة 1883 رفقة 12 فارسا. Berguent 1904-1906. Bull. trim. Sos. Géo.) Arch d'Oran 1913, P :34.

265انظر: -Noel, Document... P : 118.

266 بوعمامة بلحُرمة، ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة، مذكرة تخرج ليسانس في الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، وجدة 1990/1989. يتضمن الملحق عددا من رسائل كثير من القبائل المغربية إلى الشيخ تقبل التعاون والتحالف معه.

البنادق والمسدسات، وبيد النساء السكاكين وهم يصيحون فينا صيحات عدائية منذ دخولنا حتّى خروجنا من القصر ... لقد استقر بنا المقام في جنان الدار منذ سنتين، أمّا بوعمامة فيأتي كل يوم إلى بني ونيف لزيارة قبة سلفه (سيدي سليمان بن بوسماحة). وفي أيام الجمعة يأتي سكان فكيك جماعات إلى بني ونيف لسماع كلام "المرابط". لذا كان الشعور تجاهنا عدائيا. في هذا اليوم نفسه سمعنا، عند عودتنا، طلقات نارية من النخيل ومن القصر مصوبة تجاهنا..."[267].

وقد واصلت فرنسا سياستها للضغط على المغرب، فعقد الطرفان اتفاقية أخرى في 7 ماي 1902 بمشاركة الجباص وزير الدفاع المغربي بالنيابة والسلطات الفرنسية بالجزائر ممثلة في الجنرال قوشميز Gauchemez. وقد اختصت هذه الاتفاقية بضبط نظام الجمارك والمراكز والأسواق. ويعتبر مضمون الاتفاقية تنازل مغربي كبير لفائدة فرنسا في وقت زادت فيه متاعب المخزن في الداخل، وفقد هيبته بين القبائل، والاتفاقية هذه تكمّل ما قبلها (20 جويلية 1901). وهكذا منحت الاتفاقيتان لفرنسا ورقة رابحة في مجال السياسة الدولية والتنافس على المغرب.

ويقارن أحد الفرنسيين بين هذه الاتفاقية واتفاقية 1845 مع المغرب، فيجد تشابها بينهما، ويقول عن ذلك: "إنّ نهاية بوعمامة ختمت العقد الجديد الفرنسي المغربي مثلما ختمت اتفاقية 1845 نهاية عبد القادر المحاصَر من قبل الفرق الموحدة لـــ: لاموريسيار ومولاي عبد الرحمن".[268] ويضيف أن بوعمامة

267 أنظر: -Cavard (capitaine), Le ksar de Béni ounif, BTSGA. d'Oran. Oct. Dec. 1905, P : 413.

268 أنظر: -Revue de l'islam, janvier 1901, N° 62, sous le titre : « soumission de Bouamama ».

عرف ذلك المصير فابتعد عن فكيك بكل سرعة، عندما نُصِّبت اللجنة الفرنسية المغربية في الزوبية للبدء في أعمالها بالمنطقة. ويقول آخر: إن أهم نجاح حقّقته اللجنة الفرنسية المغربية الناتجة عن اتفاقية 20 أفريل و7 ماي 1902، هو وصولها إلى إبعاد بوعمامة عن حدودنا، حيث أنّ تواجده في فكيك يمثل لنا مصدر قلق واضطراب دائمين، إذ أنّ الضربات الموجهة ضدّنا تخرج من محيطه، وهكذا وبطلب من المحافظ المغربي، غادر بوعمامة المنطقة.[269]

وتلقى بوعمامة رسالة من محمد الجباص يطلب منه فيها اختيار إحدى الجنسيتين المغربية أو الجزائرية ومغادرة فكيك، كما بعث الجباص إلى القبائل الحدودية يهددها بإخضاعها بمساعدة القوات الفرنسية وذلك في مطلع سنة 1902.[270] وقد ردّ الشيخ على ذلك بمراسلة إلى قاضي وجدة يخبره فيها بسياسة الجباص المعادية للإسلام والمسلمين.

ورغم هذه الظروف الخارجية الصعبة المحيطة بالشيخ بوعمامة فقد كانت الجماهير الشعبية إلى جانبه تنتظر الوقت المناسب.

ورغم هذه المساندة الشعبية من سكان بلدة بني ونيف وفكيك، فإنّ الشيخ اضطر آخر الأمر إلى مغادرة المكان تحت الضغط المغربي واتجه شمالا. واستقر عند بني قيل في جبل الحوانت، ومن هناك راسل مختلف القبائل الحدودية هنا وهناك يعلمها بمجريات الأمور في الجزائر والمغرب الأقصى وخاصة سياسة السلطان المغربي المهادنة للفرنسيين.

وعندما كان الشيخ معسكرا في نسيسة قرب الجبل الأخضر، غربي بوعرفة بالمغرب الأقصى، أرسل الفرنسيون قوات في خريف سنة 1902 قامت

---

269 أنظر: -Augustin B. et la croix N. La pénétration.. P : 159.

270 عبد الحميد زوزو، مرجع سابق، ج.2، ص: 33.

بمهاجمة مواشي الشيخ التي كانت ترعى بين بوعرفة وحاسي بدة، ولم تحاول مهاجمة معسكره الذي بقي في نسيسة، وسيقت تلك الحيوانات إلى عين بن خليل في الجزائر حيث بيعت بالمزاد العلني.[271]

وفي شهر ماي من سنة 1903 عيّن شارل جونار[272] حاكما عاما على الجزائر، وقد زار الجنوب الوهراني للحد من الاضطرابات وعدم الاستقرار في هذه المنطقة ومباشرة التحقيق بنفسه، لكنّه تعرض لهجوم المجاهدين المغاربة والجزائريين في 31 ماي سنة 1903.

وفي 8 جوان سنة 1903 قام الفرنسيون بقصف قصر زناقة بفكيك، التي كانت تأوي الثوار والهاربين من بطش الاستعمار الفرنسي، لأنّها تحتل موقعا استراتيجيا يساعد البدو في كفاحهم ضدّ الفرنسيين كقاعدة خلفية.[273] ذلك أنّ فكيك تقع على الطرف الغربي لجبال القصور التي تمثل رواقا من السلاسل الجبلية الممتدة حتّى منطقة الأغواط ووسط الجزائر.[274]

الصدام مع الفرنسيين في تاغيت والمنقار:

شهدت سنة 1903 وقوع بعض المعارك بين المجاهدين والقوات الفرنسية، منها المعركة التي وقعت في 25 جويلية بين البْرابر والفرنسيين، ومنها الهجوم على المركز الفرنسي بتاغيت في 18 أوت وحصاره لمدة أربعة أيام من قبل

---

271 أنظر: .Noel : Document concernant l'hstoire des Hamyanc.. P :35-

272 عمل قبل ذلك نائبا ووزيرا للأشغال العمومية في فرنسا.

273 أنظر: .Gendre F. La région des ksour, revue tunisiènne N° 81, 1910, P :221-

274 استغل رجال الثورة التحريرية هذا الممر الجبلي لتنقل الأشخاص وتموين المناطق الداخلية من الوطن.

البْرابر والبعض من أولاد جرير ودوي منيع وحوالي مائتي رجل من الشعامبة التابعين للشيخ بوعمامة.

أما عدد قتلى هذه المعركة فقد جاء في إحدى رسائل قايد السفيسيفة إلى الجنرال حاكم قسمة عين الصفراء، يخبره فيها عن قتلى معركة تاغيت من جانب المجاهدين الجزائريين، وذلك حسبما صرح له به أهل بشار، حيث بلغ عدد القتلى خمسين رجلا، هم من أولاد جرير وأهل عين الشعير ودوي منيع وأهل موغل وأهل الأحمر ومن البْرابر،[275] أما قتلى الفرنسيين الذين كانوا في موقف دفاعي فقد بلغ تسعة قتلى وواحد وعشرين جريحا.[276]

وممّا يؤكد مشاركة أنصار الشيخ في هذه المعركة شهادة أحد ضباط الفرنسيين، والحق ما شهدت به الأعداء، أو كما قال الشاعر:

ومليحةٍ شهِدَتْ لها ضَرّاتُها والفضل ما شَهِدَتْ به الأعداءُ.

فيذكر هذا الضابط أن بوعمامة ناشد زعيم تلك الحرْكة كي تشغل الفرنسيين في الجنوب.[277]

وقد نصبت كمائن للطوابير الفرنسية في المنقار بزوزفانة في 2 سبتمبر، وتكبد النقيب ووشى Wauchy خسائر هامة، حيث "قام حوالي مائتا فارس مجاهد بمهاجمة قافلة تموين يحرسها حوالي مائة رجل من اللفيف قرب المنقار، وكانت المفاجأة كبيرة على الفرنسيين، وقد بدأ الهجوم على الساعة التاسعة

275الرسالة مؤرخة في 4 سبتمبر 1903. وقد حصلنا على صورة منها من بوعمامة محمد بن أحمد حفيد الشيخ بوعمامة بعين الصفراء سنة 1994.

276أنظر: -Jean charles humbert, La decouverte du sahara en 1900, l'harmattan, Paris, Monréal, 1996, P :228.

277 أنظر: -Gaquière, Bergent (ras-el-ain), 1904-1906. BULL. TR. SOS. GEO. ARCH. D'Oran 1913, P :75.

صباحا، حيث تمّ القضاء على بعض الضباط، وضباط الصف، وعدد من الجنود في الصدمة الأولى من المعركة، وتوفي النقيب (ووشى) متأثرا بجراحه وهو محمول إلى تاغيت. ولم يتمكن من الانفلات من القتل سوى اثنين من الصبايحية، قاما بطلب النجدة من مركز تاغيت حيث جاء النقيب سوسبيل Sousbielle وتمكن من إنقاذ مجموعة من الجند، وحمل معه خمسين من الجرحى".[278] ومن سوء حظ الرائد بيشمن أنّه هو نفسه الذي قاد الفرقة السابقة التي شاركت في معركة المنقار الأولى في 30 جوان 1900، كما سبق الذكر. كما تعرضت كل من قصور مساهلة ومطارفة وشروين وتيميمون بالجنوب لهجمات من قبل المجاهدين الجزائريين.

تعيين الجنرال ليوتي قائداً لملحقة عين الصفراء وسياسته:

نظرا لتزايد الإضطرابات والهجمات المتكررة على المراكز الفرنسية وعلى قوافلها العسكرية في الجنوب الغربي خاصة، سافر الحاكم العام جونار إلى باريس للفت نظر الحكومة إلى خطورة الوضع في الجزائر. فعينت الحكومة الفرنسية بعد إلحاح من جونار، الجنرال ليوتي Lyautey سنة 1903 كقائد لملحقة عين الصفراء؛ ذلك الضابط صاحب الخبرة العسكرية في الطونكين ومدغشقر الذي اشتغل تحت قيادة عقيد قوي متمرس هو الجنرال قالييني Gallieni. وقد عينت السلطات الفرنسية النقيب بيريو Berriau لمساعدة ليوتي في عمله.

كان ليوتي رجلا أرستقراطيا، لم يكن رجل سيف فقط، بل كان رجلا ذكيا فريدا من نوعه-كما يعتقد الفرنسيون- عرف أن القوة ليست هي

278 أنظر: .Michel carronges, Charles de foucauld, P :233-234-

الوحيدة التي تنهي الحركات المناوئة، ولكن يجب أن يصاحب الاحتلال بالقوة إحتلال معنوي. ولذلك حاول أن يستميل السكان إلى الجانب الفرنسي، فوزع المأونة وحاول تحبيب الفرنسين للسكان، غرضه من ذلك أن يثبت لهم أن مصلحتهم تقتضي قبول السيطرة الفرنسية التي توفر لهم الأمن والرخاء المادي،[279] فهل عمل ليوتي فعلا ما يحببه إلى السكان؟؟

وهكذا اختير خصم مناوئ ذو شأن كبير في شخص الجنرال ليوتي، تماما كما سبق أن اختير من قَبْلُ خصم للأمير عبد القادر في شخص الجنرال بيجو،[280] وأعطيت للجنرال ليوتي سلطات خاصة، بطلب منه، تحت رقابة الحاكم العام ووزارة الحرب مباشرة. وكانت "مهمته الرسمية هي إعادة الأمن على الحدود الغربية انطلاقا من البحر المتوسط حتّى واد الساورة، وإنقاذ الوضع في الجزائر"،[281] ومواجهة عدو يصعب الإمساك به، لأنّه يعرف البلد جيدا، ويمارس نوعا من الحرب المباغتة ويتحمل قسوة الظروف الطبيعية في الصحراء.

لقد أنشأ الفرنسيون، قبل مجيء ليوتي، مراكز على طول وادي زوزفانة يبعد الواحد منها عن الآخر خمسين كيلومتر، لحماية قوافلهم وقواعدهم, منها: جنان الدار - فندي - قصر الأعوج - حاسي المير - حاسي المُرَّة - تاغيت - بني عباس - قْصابي. إلاّ أن ذلك لم يفدهم في وقف استمرارية حرب الاستتراف من قبل مجاهدي الجزائر.

279أنظر: -Claude martin, Histoire de l'Algérie française 1830-1962. édition des 4 fils aymon, Paris 1963, P: 249.

280 بوعلام بسايح، مقاومة بوعمامة من طوماسان إلى ليوتي، مقال مطبوع بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الأول لمقاومة الشيخ بوعمامة، الجزائر. 14 و15 أوت 1999.

281 أنظر: -Bernard lugan, Histoire du Maroc.. P :217.

ومنذ أن تولى ليوتي القيادة في الجنوب الغربي الجزائري، أعدّ هذا الأخير قواته للحد من "خصم يمتاز بليونة وحركية تحيل الوضع غير محتمل في هذه الأراضي القاسية التي يشقها البدو، ويسمونها بلاد الخوف حينا وبلاد السيف حينا آخر، وحيث الخطر مخيم في كل جهة وفي ظل كل صخرة وفي جوف كل كُثَيِّبٍ ... إنّ القبيلة هنا، عبارة عن سرية عسكرية، فالرابطة بين أفراد القبيلة تشبه تماما ذلك النظام العسكري الموضوع بـين جنودنا".[282]

لقد عرف ليوتي هذا النوع من الحياة القاسية التي تصنع بشرا أقوياء شجعانا بالفطرة، لا يفرقون بين الحرب والسلم. فعمل على التخفيف من تجهيزات الفرق وغيّر "تكتيكها" ليسهل عليه الإمساك بأعدائه أو طردهم بعيدا أو ليصل إلى قواعدهم الخلفية ويثبت لهم أنّه الأقوى.

كتب ليوتي إلى أحد أصدقائه يقول له: "إنّ العاصمة الصغيرة لمنطقة وهران الصحراوية،[283] الواقعة في منتصف الطريق بين السهول المرتفعة والصحراء، مثلما نراها بعيدة عن أن تكون جحيما، ولكنّها ليست مكانا للراحة التامة."[284] وعندما كان ليوتي في باريس، قبل تعيينه في هذا المنصب، لقيه جنرال كان قد عمل في البلدة نفسها فقال له: "آه! للأسف، عين الصـفراء! لكـن ...إنّها الجحيم !!"[285]

وعندما حل ليوتي بعين الصفراء حاكما على إقليم الجنوب الغربي، اتصل بقبائل بني قيل المغربية المجاورة للمنطقة، والتي كانت مناصرة للشيخ بوعمامة،

---

282 أنظر: Benoist Méchin, Lyautey l'africain, claire fontaine, lausanne 1996, P :-

283يقصد بلدة عين الصفراء مركز الإقيم العسكري. Territoire militaire d'Ain sefra

284أنظر: IBID, P : 56.

285أنظر: IBID, P :57.

ليتقرب منها ويجلبها إلى صف الفرنسيين، واستغل المجاعة التي وقعت في أراضيهم ليقوم بتجنيدهم مَخْزَنا في جيشه، وفي هذا المجال قدِم عبد الرحمن اليوبي، شيخ هذه القبائل، سنة 1904 إلى عين الصفراء مع جماعة من وجهاء بني قيل ووقّع مع الجنرال وثيقة سلم بين الجانبين. كما اتفق الجنرال دي جونشاي Dujonchay، قائد دائرة المشرية، مع عبد الرحمن هذا على حرب بوعمامة، وقد طلب هذا الأخير دعم قبائل حميان له. وهكذا تعرض الشيخ بوعمامة لعدة هجمات من قبل القايد عبد الرحمن من الشرق وقبائل البْرابَرْ من الغرب. أمّا أغلبية قبائل بني قيل فقد تخلت عن القايد عبد الرحمن بعد أن راسلهم الشيخ[286] يخبرهم بأنّ عبد الرحمن باع نفسه لفرنسا، وأنّ عليهم أن يثوروا على قائدهم، وهددهم بأنّه أرسل ابنه سيد الطيب إلى سلطان المغرب مولاي امحمد الذي سينجده بقوات تحت زعامة عبد الملك بن الحاج عبد القادر، وأنّهم سيقضون على كل من يتعاون مــع فرنسا.[287]

هكذا كانت منطقة الجنوب الغربي منطقة اضطرابات وحرب دائمة، جعلت سكانها الفرنسيين في قلق دائم وحذر شديد. لا يهدأ لهم بال ولا ينام لهم طرف إلاّ وأيديهم على الزناد، ينتظرون عدوا لا يعرف مكانه، ولا يخطط لزمان وجوده، فاستعانوا على ذلك بكبار قادتهم وجلبوا إلى المنطقة أحدث أسلحتهم. أمّا أولئك البسطاء من السكان فلم يكن لهم من قوة مادية سوى قوة إيمانهم بعدالة قضيتهم وشدة تحمّلهم لظروف معيشتهم القاسية التي تعودوا عليها جيلا بعد جيل، لا حاجة لهم في تلك الظروف الطبيعية الصعبة سوى قربة ماء

286كما راسل الشيخ في الموضوع نفسه قبائل أولاد أحمد بن عبد الله وبني مطهر والمهاية.

287أنظر: -Noel, Document concernant... P :36 à 41.

وحباتٍ من التمر ولحم مجفف (قديد)، يلتحفون السماء ويفترشون الأرض الصلبة الطيبة.

لقد فشل ليوتي في "تهدئة" الوضع "بالجنوب الوهراني"، وعبّر في انطباعاته عن بوعمامة بما يلي: "ما يزال بوعمامة هو العقبة الكبرى، وتتجه جهودي كلّها إلى عزله ومحاصرته ووضعه تحت رحمتنا، فهل أفلح في ذلك كلّه؟ وإذا كنا قد أخفقنا في القبض عليه مدة اثنين وعشرين سنة، فإنّي لا أزعم إمكانية القضاء عليه خلال ستة أشهر".

وفي 14 نوفمبر سنة 1903 كتب ليوتي من عين الصفراء ما يلي: "يبدو أنّ بوعمامة هو الذي يجب أن نعزو إليه جميع همومنا وما نعانيه دائما من مضايقات. فموقفه موقف واضح العداء منذ مدة طويلة. إنّنا واجدون أثره في كل مكان ... إن الفتن والاضطرابات هو الذي يقف وراءها، وهو الذي يجب أن نقضي عليه ونتخلص منه ... إنّه عقدة القضية. ومن أجل التخلص منه يجب أن تتجه كل جهودي نحوه، وإذا ما سقط هو، سقطت معه تقريبا جميع المتاعب التي نعانيها على حدودنا في الجنوب الوهراني."[288]

وقد واصل الفرنسيون في هذه المرحلة توسعهم نحو الجنوب فاحتلوا عين صالح عام 1900 بعد معركة الدغامشة، واحتلوا في عام 1901 طريق النخل المؤدية إلى واحات توات -كما ذكرنا- وهي المدخل الرئيسي للصحراء الجنوبية الغربية، وكان من الضروري نقل المؤن والإمدادات إلى آلاف الجنود، فحملت الجمال فوق طاقتها، وسقطت عشرات الآلاف منها ميتة احتجاجا

288أنظر: Lyautey, Vers le Maroc, lettre du sud oranais 1903-1906, librairie armand colin, P :95.

انتقل ليوتي من عين الصفراء ليكون قائدا لإقليم وهران بين25-12-1906 و 26-12-1910. وهو الذي سيقود الحملة الفرنسية، بعد حين، على بلدة وجدة بالمغرب الأقصى.

على حمولتها، وقد خسرت الجزائر نصف ما عندها من جمال في هذه العملية وحدها.[289] وبذلك ضحت حيوانات الجزائر بأرواحها مثلما ضحى النّاس بذلك في كل وقت.

289 جورج غيرستر، الصحراء الكبرى أرض الغد المشرق للجزائر العربية، تعريب خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت 1961، ص: 15.

المرحلة الثالثة : في المغرب الأقصى 1904 – 1908

تبتدئ هذه المرحلة الثالثة والأخيرة من مقاومة الشيخ بوعمامة سنة 1904 بانضمام الشيخ إلى ثورة الجيلالي الزرهوني المعروف بــ "بوحمارة"، بعد تلقيه، قبل ذلك، لرسالة من هذا الأخير، يطلب منه فيها الوقوف إلى جانبه ودعم صفه لمواجهة السلطان عبد العزيز، الذي أحاط نفسه بمجموعة من قناصي الفرص المتملقين، وعمل على تسهيل تغلغل النفوذ الأوروبي في بلاد المسلمين بالمغرب الأقصى.

ورغم تواجد الشيخ بمنطقة فكيك بالجنوب الشرقي المغربي منذ مطلع القرن العشرين، إلا أن تواجده هناك لم يكن ثابتا ولا دائما. أما بعد انضمامه إلى ثورة الروقي/ "بوحمارة"، وحلوله بمنطقة وجدة سنة 1904 فإنه قد اختار آنذاك الطرف الذي رآه على حق، واستقر هناك بزمالته بعد أن وجد في هذا الثائر حليفا قويا يدعم كل منهما صاحبه في وجه المتعاونين مع الأجانب. ولذلك كفى نفسه شر هجمات بعض القبائل المغربية عليه ومطاردة الفرنسيين من جهة ثانية.

وقبل التعرض لدور الشيخ في هذه الحرب، بين الروقي والسلطان، وعلاقته بالقطر الجزائري في هذه المرحلة، لابد من التعرف على الأوضاع العامة في المغرب الأقصى في مطلع القرن العشرين.

أ – الوضع في المغرب الأقصى في مطلع القرن العشرين:

شهدت بداية القرن العشرين موجة عارمة من الصراع الأوربي حول المغرب الأقصى. وقد اتضح للأوربيين المكانة الهامة التي يحتلها المغرب في الركن الشمالي الغربي من إفريقيا وتحكمه في الجزء الجنوبي من مضيق جبل طارق.

ولقد اشتد التنافس بين أربع دول أكثر من غيرها وهي فرنسا وإنكلترا وألمانيا بالإضافة إلى إسبانيا.

في هذه المرحلة كانت السلطة المغربية تجتاز مرحلة من الفوضى مثل تلك التي عرفتها دول أخرى كالدولة العثمانية. وهكذا بدأت الدول الكبرى تلاحظ تطور فساد السلطنة وتنتظر الوقت المناسب لاقتسام الغنيمة. ففرنسا يمثل لها احتلال المغرب توسعا طبيعيا لاحتلالها للجزائر أقرب الدول جغرافيا. وإنكلترا تطبق سياستها التقليدية بأن لا تترك أحدا يستقر في مواجهة جبل طارق، كما كانت تحلم بتحويل المغرب إلى مصر ثانية. وهناك ألمانيا التي تبحث عن تأثيرها في محور برلين بغداد. وهناك إسبانيا المستقرة منذ القرن الخامس عشر في تطوان وسبتة ومليلية، تتمنى التوغل إلى الداخل لتصبح لها السيادة كما هي لها على الساحل. وهناك النمسا والمجر وإيطاليا وهولندا والولايات المتحدة، كل واحدة تغار من الأخرى وتراقب بعضها البعض.

كانت هذه الدول قد التقت في مؤتمر برلين سنة 1880 واتفقت على التخلص من قضية السلطنة المغربية، بحيث لا يُسمح بأي حق تفضيلي لأية دولة أجنبية مهما كانت، وأن تتعامل كل القوى الموقعة على قدم المساواة التامة في أية مسألة تخص المملكة المغربية.

لقد حَكم مولاي الحسن البلاد المغربية من سنة 1875 إلى سنة 1894، وكان أميرا نشطا ومتسلطا عرف كيف يعمل على التوازن بين القوى المتنافسة، وخلفه ابنه عبد العزيز عند وفاته سنة 1894 وهو في سن الرابعة عشر من عمره، والذي لم يكن يملك أية صفة لائقة للقيام بأمور السلطة في ظروف صعبة. لقد كان مراهقا مليئا بإرادة جيدة لكنّه ضعيف ومتردد. ولقد كان الصدر الأعظم "ابّ أحمد" ولالّة رقية أرملة مولاي الحسن هما اللذان يملكان

السلطة الفعلية. لقد "جعل ابّ أحمد (أحمد بن موسى) من سيده ستارا يتخفى وراءه في حكم البلاد".[290]

تولى مولاي عبد العزيز السلطة في ظروف صعبة زادت من تفكك البلد، وأصبح بمحيطه الأوربي غير قادر على فرض احترام سيادته وخاصة بعد موت أبّ احمد في صيف سنة 1900، حين بلغ مولاي عبد العزيز العشرين من عمره، وآنذاك فقط صعد فعلا إلى التاج، ولكن دون تجربة سياسية. لقد كان ابّ احمد ولالّة رقية يمسكان بكل شيء و لم يطلعاه على شيء، فكان عليه أن يبدأ العمل من بدايته، في الوقت الذي كانت تتصارع فيه القوى الكبرى على احتلال البلاد واقتسامها. كما كثرت الاضطرابات والثورات في الداخل، ونادى "بوحمارة" الملقب بالروقي بالثورة في القسم الشرقي من المملكة وخاصة في منطقة وجدة، وأعلن نفسه سلطانا من قبل القبائل التي ناصرته سنة 1902، فأرسل مولاي عبد العزيز فرقا عسكرية لمقاتلته ولكنّها هزمت، مما زاد من قلق السلطان، خاصة وأنّ منطقة التمرد تقع على حواف الحدود الجزائرية حيث السلطات الفرنسية تتحفز وتتحين الفرص للانقضاض على البلد المجاور.

إنّ "المحاولات الإصلاحية بتأثير الأجنبي... والشائعات التي أضحت تتردد هنا وهناك عن علاقة السلطان بالمسيحيين في البلاد واستشاراته معهم في أمور المسلمين، كل ذلك أثار ضدّ مولاي عبد العزيز معارضة المحافظين من سكان المدن ومقاومة القبائل، وبالتالي يفسر لنا الدوافع المختلفة التي كانت تحرك الانتفاضات ضدّ مخزن عاجز".[291]

وبلغت الأوضاع الداخلية والخارجية حدّا كبيرا من الفوضى اضطر السلطان إلى الاستدانة من الدول الأوربية، فكان شعبه يردد باستمرار: "إنّ

---

290 روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت 1980، ص: 62.

291 علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894-1910، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991، ص: 46.

السلطان يبيع بلاده إلى الكفرة".[292] وقد استمر مولاي عبد العزيز في الحكم حتّى سنة 1908 حين خلفه أخوه مولاي عبد الحفيظ بعد أن بايعه الناس وخاصة علماء فاس ومراكش، وتنازل مولاي عبد العزيز عن السلطنة بعد حرب فاترة بين الأخوين.[293]

ب- تحالف الشيخ "بوعمامة" مع "الروقي/ بوحمارة":

كان الشيخ على دراية بما يجري في البلاد المغربية، إذ كان على اتصال بها، سواء عن طريق مبعوثيه إلى القبائل المغربية ومراسلاته، أو باتصالاته المتعددة مع الأفراد والجماعات المقيمة في المغرب وخاصة من "البوشيخيين" و"خدام سيد الشيخ".

فقد ثار الجيلالي بن ادريس، المعروف بـــ "بوحمارة أو الروقي" في الإقليم الشمالي الشرقي من المغرب، ثار على السلطان المغربي مولاي عبد العزيز – كما ذكرنا سابقا – وادعى أنّه مولاي امْحمد بن الحسن الأول صاحب الولاية الحقيقي، وأن أخاه مولاي عبد العزيز سلبه هذا الحق واعتلى العرش بدله، واستطاع أن يجمع حوله عدة قبائل ناصرته، خاصة وأنّ السلطان كان قد وقع في أحضان النفوذ الأجنبي، وهو محاط، كما يقول بعض الكتاب المغاربة أنفسهم، بمجموعة من الوصوليين والانتهازيين، فاضطرب الأمر، وتدخل هؤلاء يجلبون للسلطان الشاب كل مغريات الحضارة الغربية التافهة ليحولوا انتباهه عن كل ما يمس الأمور السياسية، وأُخذت له صور وهو يلبس جنرالا إنجليزيا أو وهو مجرد من ثيابه التقليدية، ووزعت تلك الصور في أنحاء المغرب، فلم يصدق الكثير من أفراد الشعب ذلك، خاصة وأنّ تلك الأعمال كان يتهم صاحبها، في

292 روم لاندو، مرجع سابق، ص : 63.

293محمد المنوني، مرجع سابق، ص: 349.

ذلك العصر بالكفر، وقيل إن الأوروبيين اختطفوا المولى عبد العزيز الحقيقي وأحلوا محله شبيها له هو Sosie سوزي,[294] وأذيع في جهات من المملكة أنّ السلطان أصبح نصرانيا. وكان الروقي قد وقف على "ما كان جاريا بالقصر السلطاني من اشتغال السلطان مولاي عبد العزيز بجلب الغواني من الشرق وتعمير أوقاته بالملاهي وسماع الأغاني وبيع وزرائه للوظائف جهارا مع اشتغال بعضهم ببعض بالوشايات، زيادة على اختلال المالية والعسكرية والضريبية".[295]

وهكذا وجد الجيلالي بن إدريس الزرهوني "الروقي" الميدان مناسبا، فراح يجمع حوله الناس متهما السلطان بالخضوع للأوربيين، واستطاع أن يحصل على عدة انتصارات منذ ثورته في 22 -12-1902 بسبب "الحالة المادية والمعنوية للجيش العزيزي ...وأنّ كثيرا من الدلائل تبين لنا الأحوال السيئة التي عاشها الجيش النظامي سواء حين ظعنه أو إقامته".[296]

ووجد الشيخ بوعمامة أنّ الوقوف إلى جانب الروقي لمحاربة السلطان أمر واجب لردعه عن الإهمال والتسيب الذي أصاب هذه البلاد الإسلامية بسببه، خاصة بعد تدخل الأجانب في قضايا المغرب، وذلك على اثر تلقي الشيخ لرسالة الروقي في خريف سنة1902 يعرض فيها عليه "الانضمام في سلكه وتأييد دعوته لإنقاذ المغرب من أيدي الخونة والمفدسين".[297]

لقد قبل الشيخ بوعمامة التحالف مع الروقي ابتداء من سنة 1903 وهو يظنه مولاي امْحمد صاحب العرش الحقيقي، وأرسل إليه ابنه سي الطيب رفقة عبد الملك بن الأمير عبد القادر الذي كان متواجدا معه آنذاك. "وتكشف

---

294 عبد الحميد زوزو، مرجع سابق، ج :2، ص: 36.

295 محمد بن الحسن الحجوي في مخطوطه المسمى: انتحار المغرب بيد ثواره، مذكرات مخطوطة بالخزانة الوطنية للوثائق بالرباط، 111 صفحة، تحت رقم: 123.

296 إسماعيلي مولاي عبد الحميد، مرجع سابق، ج:1، ص: 221.

297 عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، ص: 85.

الرسائل التي كان يتبادلها أحمد بن المنور، ابن عم بوعمامة، مع أخته لالّة ربيعة زوجة بوعمامة، عن الدوافع التي دفعت هذا الأخير لمساندة الروقي، ولعل من بينها شعور بوعمامة وأتباعه بشرعية ثورة "الروقي"، التي كانت تترجم رفض السكان لسياسة مولاي عبد العزيز الموالية للأجانب والخاضعة بالأخص للنفوذ الفرنسي".[298] ثمّ إنّ الشيخ كان على دراية بمواقف السلطان وتعاونه مع فرنسا من خلال اتفاقيتي 1901 و1902 بين الدولتين، والتي كانت نتيجتها طرده من فكيك سنة 1902. ولذلك فإنّه رفض التعاون مع من وقّع الصلح مع الكفار.[299]

وقد يكون للقاء الشيخ مع عبد الملك بن الأمير عبد القادر دور في دفعه إلى التحالف مع "الروقي"، ذلك أنّ عبد الملك كان قد جال بلاد المغرب، وكانت له اتصالات عديدة مع الأوربيين.

ولنتتبع خطوات الأمير عبد الملك طبقا لما جاء في مذكرات الحجوي، الذي يذكر أنّ عبد الملك بن عبد القادر بن محي الدين الجزائري، كان "ملحقا بقصر السلطان عبد الحميد العثماني باسطمبول مستخدما عنها. غير أنّه في سنة 1321هـ (حوالي سنة 1903) حبب إليه أن يأتي إلى المغرب لما سمع به من الفتن... فجاء إلى مليلية ومنها خرج برا إلى نواحي وجدة. فظهر له أن يذهب عند أبي عمامة الذي كان إذ ذاك قرب فكيك لعله يمكنه بجيش يعمل به عملا يكون له به ذكر تاريخي، فذهب إليه وأقام عنده مدة، ولم يجد عنده ما كان يأمل ... وبينما هو كذلك، إذ بمكاتب أبي حمارة وردت على أبي عمامة طالبا منه الانضمام إليه لاستخلاص المغرب من يد الخونة والمفسدين ... فطلب عبد

---

298 زكي مبارك، المجاهد بوعمامة.

299 رواية حفيد الشيخ بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم بن الطيب بن بوعمامة، 72 سنة، شيخ الطريقة بعين بني مطهر، ماي 1999.

الملك منه أن يبعث معه خيلا ويبعث معه ولده الطيب ويكتب لأبي حمارة في شأنهما، وأن يكون معه يدا واحدة، فوردا عليه ... فأكرمهما وفرح بمقدمهما واستوزر عبد الملك على عساكره، فصار يدبر له حروبه مدة ... وبعد مدة قلب لعبد الملك ظهر المِجنّ، فانسل (عبد الملك) منه على غرة وجاء يؤم أبا عمامة ثانيا، بعدما دخل (بوعمامة) أنكاد، فانضم إليه وصار في جملته. ولما سمعنا (الحجوي) بمغاضبته لأبي حمارة كتبت إليه أن يأتي عندنا في أمان ... ويكون له ما يريد، ويكرم فوق ما يظن. فاستشار أبا عمامة في ذلك، بل أشار على أبي عمامة أن يصطلح مع المخزن، وأنّه خير له من التآمر، وبيّن له أحوال الثائر وما شاهده منه من المكر والخداع... فأبى ذلك لأن أبا عمامة كان شيخا كبيرا، واعتقد سوء في مولاي عبد العزيز ..."[300] وانضم عبد الملك إلى المخزن في 16 ذي الحجة سنة 1322هـ حيث جعلت له مؤونة كافية، وكان يحضر حروب المخزن ضدّ الروقي وأظهر شجاعة ودهاء في الحرب. وأرسل يستدعي الطيب بن بوعمامة، فقدم إلى السلطات المخزنية التي ألقت عليه القبض بعد محادثات معه، فخاف عبد الملك على نفسه، واستقدمه الحجوي لفاس باقتراح منه، وعندما وقعت الحراب بين مولاي عبد العزيز وأخيه مولاي عبد الحفيظ حارب إلى جانب الأول إلى أن ثار عليه جنده ونكّلوا به فتدخلت فرنسا لإطلاق سراحه.

أمّا الشيخ بوعمامة فقد انتقل إلى التل المغربي سنة 1322هـ/1904م بعدما تلقى من محمد الجباص رئيس اللجنة المغربية طلبا بمغادرة فكيك أو الاستسلام، كما سبق ذكر ذلك، ومعه زاويته وزمالته التي تتكون من قبائل مختلفة تضم حوالي1000 خيمة.[301]

300محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي..

301عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، ص: 85.

تنقّل بوعمامة على مراحل، فمر بقعدة سبدو ثمّ المريجة ثمّ الوادي الحي وأخيرا فم بزوز بنواحي متليلي بني يعلى.[302] وعندما نزل الشيخ بنواحي الواد الحي كان على بعد 20 كيلومتر فقط من الحدود الجزائرية ، في الأيام الأولى من شهر ماي 1904.

وبعد مدة قصيرة انتقل إلى تكفايت جنوبي وجدة مما اضطر سي حمودة ولد سي حمزة (المرابط) الموالي للمخزن المغربي إلى الاستنجاد بالفرنسيين ضدّ الروقي وبوعمامة الذين يهددانه.[303]

لم يجد الشيخ بوعمامة الأمر هينا في البلاد المغربية، لأنّ قبائل بني مطهر وأولاد عمور وبني يعلى، المغاربة، أغاروا على زاويته واستولوا على عدة غنائم منه، فانتقل إلى جبل زكارة حيث بقي هناك عند بني بوزقو.

وفي أوائل شهر ماي 1904 غادر نواحي مطارقة واتجه نحو الشمال في عين رقادة أولا، ثمّ انتقل إلى تينسي صحبة حوالي ألف محارب من الشعامبة والعمور وأولاد سيد الشيخ الغرابة ومن بني مطهر والمهاية وسجعة ومن أولاد سيدي علي بوشنافة وبني يعلى وزكارة.

وبعد أن توقفت قوات المخزن عن مهاجمته، انتقل إلى بلدة عيون سيدي ملوك الواقعة في غربي سهل أنكاد في موطن قبيلة السجع على الطريق الرابط بين وجدة وتازة. وكانت البلدة ذات موقع هام لتأمين مرور القوافل بين فاس ووجدة من جهة وبين مليلية ووجدة من جهة ثانية، وكانت تحتل المرتبة الثانية

---

302 أنظر: -Noel, Document.. P :33.

303أنظر: -Cour A. Notes sur la région de bergent. BULL. SOC. Géog. Arch. D'Oran, mars 1909, P :62.

بعد وجدة من حيث عدد العسكر المخربي، ولكن قلة المؤونة أدت إلى اضمحلال هذه العساكر.[304]

وقد راسل الشيخ السلطات الفرنسية في 30 ربيع الأول 1322هـ/1904م يطلب منها حرية التنقل لقوافله وتوفير الأمن لها، ولكن يظهر أنّه كان يريد ربح الوقت بعد أن أصبح مهددا من قبل قوات المخزن المغربية.[305]

في هذه الأثناء قام الفرنسيون باحتلال قرية راس العين (بركنت فيما بعد) في منتصف شهر جوان 1904. وكان تبريرهم لهذا الاحتلال هو الحيلولة دون دخول بوعمامة إلى التراب الجزائري. وقد وضّح الحاكم العام الفرنسي بالجزائر بتاريخ 8 ديسمبر 1904 الوضعية في بيان نشرته صحيفة "الوقت" Le Temps جاء فيه ما يلي: "وصلت أخبار إلى الجنرال ليوتي في شهر جوان الأخير مفادها أنّ قوات بوعمامة عدونا القديم ومدعي العرش "الروقي"، قد اجتمعا غير بعيد عن مدينة وجدة لتهديد حميان المناصرين لنا، وهما يستعدان لاحتلال منطقة الحدود وخاصة "رأس العين"، النقطة الهامة التي تتحكم في الطريقين الهامين (الواد الشارف والشط الغربي). ويذكر الحاكم العام أنه: "لن ننسحب من راس العين إلا إذا ضمن لنا السلطان إرسال قوات كافية على اثر خروجنا تحت قيادة ضباط فرنسيين للدفاع عن حدودنا والعمل ضدّ العدو المشترك، ولضمان الأمن لقبائلنا للرعي في أراضيهم، ومنع الثائر بوعمامة من امتلاك نقطة استراتيجية من حيث يمكنه أن يهددنا بالخطر".[306]

---

304 عكاشة برحاب، مرجع سابق، ص: 193.

305أنظر: -Gaquière, Bergent(ras-el-ain), P :75.

306 أنظر: -IBID, P :70.

لقد أقلق تواجد الشيخ بوعمامة سلطات المخزن المغربية، وحاول سي أحمد ركينة ممثل السلطان المغربي في وجدة التخلص منه ولـــو بمساعدة فرنسية.[307] لكن الفرنسيين كانوا يتحاشون، أول الأمر، التدخل المباشر في عمالة وجدة. ولم يتمكن سي أحمد ركينة من جمع الفرق الضرورية للتغلب على قوة الشيخ لتردي الأوضاع في المغرب.

أمّا الروقي فقد استطاع بسط سيطرته على عمالة وجدة فيما بين سنتي 1903 و1905، فسارعت فرنسا إلى تقديم التسهيلات لسلطات المخزن من أجل نقل الجنود والأسلحة عبر الجزائر، بل سمحت لبعثة مغربية بالاستقرار في مغنية قصد الإشراف على سير العمليات الموجهة ضدّ الروقي وأنصاره في شمالي المغرب الشرقي. وقد اعتبر ذلك من باب التعاون بين البلدين طبقا لاتفاقية 1901 و1902، والواقع أنّ هذه المساعدة ما هي إلاّ تأكيد للهيمنة الفرنسية.

وإلى جانب ذلك قام الفرنسيون بإرسال قوات إلى "زوج بغال" و"سيدي زاهر" و"تاقبلت" و"سيد الجيلالي" و"ماقورة" و"العريشة"، كل هذا لتأمين المناطق الحدودية من أي خرق يأتيها من قبل بوعمامة وأعوانه.

لقد قبل الشيخ بوعمامة، كما رأينا سابقا، الانضمام إلى الروقي وخاض معه عدة معارك أشهرها معركة سماسير في جانفي 1904 بالقرب من وجدة التي قتل فيها عدد هام من رفقاء الشيخ. وفي بداية شهر فيفري 1905 حضر إلى المنطقة أحد أعمام مولاي عبد العزيز لدفع المفاوضات مع الشيخ بوعمامة، وانضم إليه عبد الملك بن الأمير عبد القادر الذي حاول التوسط بين الطرفين إلاّ أنّ ذلك لم يأت بأية نتيجة.

---

307 أنظر: -Voinot L. Les conséquences de la lutte du makhzen et du rogui à proximité de la frontière algérienne (1903-1905), BULL. TRIM. SOC. GEOG. ARCH. D'Oran, P : 183.

كما خاض الشيخ بوعمامة معركة في التاسع من شهر أفريل سنة 1905 إلى جانب الروقي ضدّ قوات المخزن، وكان جيشه يحتل الجناح الأيمن خلال الهجوم على وجدة، وشارك في معركة أخرى في شهر جويلية سنة 1905 كانت لصالح الروقي والشيخ على حساب قوات المخزن التي تكبدت خسائر هامة، لولا تدخل المدفعية التي كان يسيرها ضباط فرنسيون لصالح السلطات المغربية.[308]

كما واصلت قوات الشيخ مهاجمة القبائل الموالية للفرنسيين أو الملتجئة إليهم، من ذلك قيام قبائل الشعامبة في العشرين من شهر ماي سنة 1905 بمهاجمة عناصر من قبيلة المهاية، واستولوا على مواشيهم، وذلك بسبب التجائهم إلى دائرة العريشة تحت حماية السلطات الفرنسية. وفي السنة نفسها تحدثت إحدى الرسائل المتبادلة بين لالة ربيعة، زوجة الشيخ، وأخيها أحمد بن المنور عن هجمة قوامها 500 فارس ضدّ قبائل سجعة وأنقاد وبني خالد من قبل قوات الشيخ، لأنّ تلك القبائل كانت موالية للمخزن.

وفي 27 ماي 1905 استولت بعض القبائل الموالية للمخزن على قافلة محملة بمختلف المواد الغذائية تتكون من أحد عشر بغلا يسوقها سبعة رجال، وذلك في مكان يدعى عين بوحمون على بعد 12 كيلومتر جنوبي وجدة، وعلى مسافة قليلة من الحدود الجزائرية، وكانت القافلة آتية من قبيلة السواحلية، البلدية المختلطة لندرومة ومتجهة إلى معسكر الشيخ بوعمامة.[309]

أمّا سلطات المخزن فقد استمرت في تتبعها لتحركات الشيخ، وقد قسّمت جيوشها إلى عدة فرق، عينت الفرقة الرئيسية منها، المقيمة في برديل،

---

308 عكاشة برحاب، مرجع سابق، ص: 350.

309 أنظر: Voinot L. Les conséquences... P : 258.-

لمراقبة الشيخ. وكان هدف القصر المغربي إرغام الشيخ على الخضوع له كشرط للإفراج عن ولده. في حين أنّ ذلك لم يزده إلاّ إصرارا على عناده ومساندته للروقي والتشييع بتقلبات المخزن وغدره في أعين الناس (ما وقع لابنه الطيب).

وقد نقل الشيخ زاويته وزمالته إلى أرض قبيلة بني بوزقو في فاتح رجب 1323هـ/ الموافق لشهر سبتمبر 1905 بعد أن تقوت قوات المخزن.

وفي المجال الدولي عملت فرنسا على عقد اتفاقيات ودية وسرية مع الدول الكبرى التي كانت تنافسها في المغرب، وتبادلت معها مناطق النفوذ هنا وهناك ليفرغ لها المجال في المغرب، الذي يمثل لها امتدادا طبيعيا لتواجدها في الجزائر. وعندما علمت ألمانيا بتلك الاتفاقيات احتجت ونزل امبراطورها بطنجة محذرا، مما أدى إلى عقد مؤتمر الجزيرة في مطلع سنة 1906 بين الدول الكبرى المتنافسة على المغرب. وقد طالب الممثل الفرنسي في طنجة بحق المتابعة ضدّ "الحرْكات والجيوش"،[310] التي تنسحب بعد عملياتها إلى ما وراء الحدود المغربية. وانتهى المؤتمر إلى "الاعتراف بسيادة السلطان والاتفاق على إنشاء شرطة دولية للمرافئ ومصرف للدولة يكون رأسماله أوروبيا".[311] ولكن الاتفاقيات السرية بقيت سارية المفعول، خاصة وأنّ فرنسا واسبانيا اتفقتا سنة 1905 على اقتسام الأراضي المغربية، على أن تكون منطقة الريف لإسبانيا، وهكذا بدأت فرنسا تبحث عن مبررات للتوسع في المغرب.

---

310 تسميتان عاميتان تطلقان على رجال المقاومة حينا وعلى قطاع الطرق حينا آخر، كمجموعة وليس كأفراد.

311 كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين وفارس منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط:5، بيروت 1968، ص: 636.

ج- "الجنوب الوهراني" المضطرب:

إنّ المتمعن في مضمون رسائل وتقارير القادة الفرنسيين ولكتاباتهم المختلفة يلمس ذلك القلق الكبير الذي كان ينتابهم من الأحداث التي كانت تقع في الجنوب الغربي خلال نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والتي يعيدونها كلها إلى الشيخ بوعمامة ورجاله، سواء خلال تواجده في دلدول أو فكيك أو وجدة. ولذلك دعوا كلهم إلى ضرورة القضاء عليه واحتلال المناطق الإستراتيجية التي كان يلتجئ إليها. وبينوا أنّ توطيد الأمن والاستقرار في الجنوب لا يمكن أن يتم إلاّ بإحدى هاتين الفكرتين: الاحتلال الواسع أو التخلص من بوعمامة أوهما معا.

كل هذا يدل على أنّ حركة الشيخ بوعمامة الحربية لم تتوقف عند سنة 1882 كما يرى بعض الكتاب الجزائريين، بل استمرت حتّى احتلال الفرنسيين لمدينة وجدة سنة 1907م.

فبعد نهاية المرحلة الأولى من مقاومته المسلحة بالمواجهة سنتي 1881 و1882، هناك المناوشات والاشتباكات المنعزلة والكمائن والغارات المحدودة في الزمان والمكان واعتراض القوافل الفرنسية الذاهبة إلى الجنوب أو الآتية منه والانتقام من أعوان الفرنسيين، وهناك المعارك التي ذكرناها سابقا، كمعركتي المنقار الأولى والثانية (1900 و 1903 على التوالي) وهناك معركة تاغيت. ثمّ إنّ الاستنجاد بالجنرال ليوتي سنة 1903 دليل دامغ على توتر الأوضاع في الجنوب الغربي وعدم قدرة الفرنسيين على التحكم فيه.

وهاهي شهادات الجنرال ليوتي نفسه -تؤكد ذلك- من خلال مراسلاته المتعددة حين كان مستقرا بعين الصفراء مقر القيادة العسكرية للمنطقة الجنوبية

الغربية آنذاك[312] (1903-1906)؛ ففي تقرير له إلى الضابط سيرفيار Servière بتاريخ 10 جانفي 1905 يقول: "... ومن جهة أخرى فإنّ فرقة من أعوان بوعمامة وصلني خبر خروجها من مخيم الثائر في اتجاه الجنوب".[313]

وفي رسالة إلى أخته من عين الصفراء مؤرخة في 7 جانفي 1905 يقول: "في مكان يقع قبل الدخول إلى بلدة بشار خاض رجالي معركة جيدة Joli combat ضد رجال بوعمامة الذين تركوا تسعة قتلى في ساحة المعركة وعددا من الإبل والأغنام ... وقتل لنا ثلاثة من رجال الصبايحية واثنان من القوم بعد أن قاتلوا بشجاعة..."[314].

وفي تقرير له إلى الضابط السابق نفسه من عين الصفراء، بتاريخ 10 جانفي 1905 يقول: ... مجموعة بوعمامة متكونة من ستين رجالا مشاة، وما بين 100 و 150 مهارى اجتازت زوزفانة ليلة 29 إلى 30 نوفمبر بالقرب من قصر الاعوج، لذا تم إشعار كل الجهات. و هكذا قام بتقسيم : النقيب قائد كتيبة قورارة قسم "المهارِسْت"[315] إلى عدة فرق في كل من حاسي منصور وحاسي أوشان، كما تم إعلام كولومب وتاغيت وبني عباس وجيريفيل وتيميمون، وأنشئت مراكز صغيرة على طول الخط الرابط بين جنين بوررق

312تفطنت السلطات الفرنسية إلى أهمية الجنوب الواسع ففصلته عن العمالات الثلاث (الجزائر-وهران-قسنطينة)، وأقامت أربعة أقاليم عسكرية خاصة بهذه الجهة تحت رقابة الحاكم العام ووزاة الحرب مباشرة [إقليم عين الصفراء ومقره في عين الصفراء-إقليم غرداية ومقره في الأغواط-إقليم توقرت ومقره في توقرت-إقليم الواحات ومقره في ورقلة.] وذلك طبقا لقانون 24 ديسمبر 1902. وقد ظلت بلدة عين الصفراء عاصمة لهذا الإقليم العسكري إلى أن تم نقله إلى بلدة كولومب-بشار في ديسمبر سنة 1928. عن:

-Les territoires du sud de l'Algérie, gouvernement général de l'Algérie, imprimerie algérienne, Alger 1929, tome : 5, P :315.

313 أنظر: -Lyautey, Vers le Maroc... P : 129.

314أنظر: -IBID, P : 145.

315 Les méharistes فرق مجندة من الجزائريين الراكبين على الجمال من نوع المهارى في الصحراء.

وبني عباس لإعاقة عودة رجال بوعمامة من الجنوب. وتكونت فرق متحركة في بني عباس وفي بشار وفي بن الزيْرَق وبني ونيف، وهي جاهزة لإعاقة عودتهم في اتجاه مراكزهم بالقرب من بوعمامة. و في خلال هذه التحضيرات هاجم هؤلاء يوم 11ديسمبر صباحا حامية حاسي أوشان، ثم انسحبوا، بعد أن إستولوا على مهارى[316] وغنائم أخرى، منها ثمان بنادق (كرابين) من نوع 1890. وقد هاجمت المجموعة نفسها قافلة لأولاد زياد يوم 13 ديسمبر 1904، بين حاسي أوشان والحدود الشمالية للعرق، وبعد عدة ساعات من القتال تمّ قتل 33 رجلا من رجال القافلة وجرح 31 رجلا وغنم 461 بعيرا وحوالي 1000 من الأغنام. ونظرا لهذا النجاح الذي أحرزته هذه المجموعة، أنذرت كل المراكز الفرنسية في الجنوب وخاصة طريق عودة المجموعة إلى المغرب. وجنّد العديد من القبائل إلى جانب القوات النظامية، ثم بدأت المطاردة الصعبة. وأخيرا تمكن الفرنسيون من اللحاق بالمجموعة الغازية في "قارة الضويفة" على مسافة 20 كلم شمالي جرف التربة، لكن المجموعة تموقعت في مكان حصين بالجبل، وبدأت المناوشات في 31 ديسمبر 1904. وكان الرائد بيرون Pirron يناوش المجموعة وهي في موقعها الحصين، في انتظار وصول الإمدادات، ومنع المجموعة من الانفلات ثانية. لكن هذه الأخيرة استغلت ظلام الليل وانسحبت بعد أن تركت ستة قتلى في الميدان وعددا من الأسلحة (نوع 1886) وبعض البضائع والجمال لتخفيف الحمولة عنها. أمّا خسائر الفرنسيين فتمثلت في ثلاثة قتلى من الصبايحية وأحد جنود فرقة الصحراء من بشار واثنين من المخازنية وأحد عشر جريحا، كلهم من الأهالي ما عدا الرقيب الأول الفرنسي المصاب بجروح.

316مهري والجمع مَهارَى: هي الجمال المدربة التي تصلح للركوب. وهي غير الإبل العادية التي تُحمل عليها لأثقال.

وهكذا وخلال خمسة عشر يوما من المطاردة، ورغم ضخامة القوات الفرنسية هنا وهناك، فإنّ المجموعة تمكنت من الانفلات والدخول إلى الزاوية في أمان (بنواحي وجدة)، حيث أنّ قائد الجماعة الفرنسية المتحركة لبركنت (راس العين) عَلِمَ في 10 جانفي 1905 أنّ بعضا ممن شارك في ذلك "الغَزْو" عاد إلى الزاوية في اليوم الخامس من شهر جانفي.

وعندما يناقش ليوتي تفوق رجال بوعمامة ميدانيا، يبرر ذلك بأنّ هذه المجموعة كانت متكونة من نخبة محيط بوعمامة، وأنهم رجال أكثر تمرنا، ومسلحون ببنادق ذات الطلقات السريعة.[317]

ويقول ليوتي في رسالة له إلى أخته من عين الصفراء يوم أول جوان 1905 ما يلي: لقد كنت عند أكبر سادة كل الجزائر، وربما كل إفريقيا، إنهم أولاد سيد الشيخ الذين خرج منهم بوعمامة. يجب السيطرة عليهم وأخذهم، الشيء الذي لا يفهمه كل الفرنسيين.

وفي رسالة من ليوتي إلى الرائد مارغريت وأخرى إلى أخته بتاريخ أول وثالث فبراير سنة 1906، على التوالي، يقول: لقد فاجَأَتْ إحدى فرقي في بركنت رجال بوعمامة وهزمتهم وأخذت منهم ألف بعير وغنمت أسلحتهم، إنّه شيء رائع.

لقد اعترف ليوتي بتفوق قوات بوعمامة التي لقيها عسكره في موقعين: المرة الأولى في جبل مزاريف في 24 ديسمبر 1904، والمرة الثانية في قارة الضويفة في 31 ديسمبر 1904، وتمكن رجال بوعمامة من التسلل ليلا، وهو يبرر ذلك بأنّ هؤلاء هم النخبة من رجال بوعمامة الأكثر تجربة، وهو عندما

---

317 أنظر: -IBID, P : 146.158.

ينتصر على مثل هؤلاء يفتخر بذلك، "إنّه شيء رائع"، إنّهم "سادة كل الجزائر وربما كل إفريقيا، أولاد سيد الشيخ".

وفي رسالة إلى الجنرال هيرسون Hirson مؤرخة في 9 فيفري 1906 من عين الصفراء يذكر له أنّه في 27 جانفي الفارط وصلتهم أخبار عن وجود قافلة من الإبل متجهة نحو الشمال، فتم إنذار كل فرق الحدود الغربية وتم تعقب القافلة ثمّ أحيط بها من كل الجوانب، ومنعت من التحصن بالجبل القريب الذي كانت تقصده، بواسطة المجموعة المتحركة لبركنت، ووقعت القافلة بين يدي كماشة وهي في أرض سهلية مكشوفة بواد نسلى Nesli، إنّهم الشعامبة أتباع بوعمامة، الذين أجبروا على ترك غنيمتهم المتكونة من ستمائة بعير وقتل منهم اثنا عشر رجلا وأصيب ثلاثة منهم بجروح، وتركوا عددا من البنادق(22 بندقية) وكل الأمتعة.[318]

لقد كانت القوات الفرنسية تتتبع أخبار هذه المجموعة منذ خروجها من معسكر بوعمامة منذ ثلاثة شهور خلت! وقد قامت المجموعة بمهاجمة قبيلة البرابيش وأخذت منهم ألف بعير بعد أن فقدت خمسة وثلاثين رجلا، ومرت المجموعة بتافيلالت فباعت أربعمائة بعير وعادت بالباقي.

ويلاحظ ليوتي أنّ الشعامبة هم الأكثر وفاء لبوعمامة وأنّهم يعملون دون انقطاع، ينتقلون بين الأهالي للحصول على بركة المرابط. ويذكر أنّهم هم الذين كانوا في المنقار سنة 1903 وفي حاسي أوشان سنة 1904. ويضيف لقد كانت هزيمتهم هذه المرة أكيدة تم فيها قتل زعيمهم مسعود بن محمد وهو من شعامبة ورقلة.[319]

---

318. Gaquière, Gerguent-ras-el-ain B.T. S. G. A. d'Oran, 1913. P : 80.

319 أنظر -IBID, P : 236-.245.

كما تحدث ليوتي في رسالتين له إلى كل من ماكس ليكلرك A.Max Leclerc وإلى جونار A.C.Jonnart عن "لصوص بوعمامة"، الذين يأتون من الغرب ليثيروا الاضطرابات والفتن ويتحركون من نقطة إلى أخرى ليحصلوا على الغنائم أو ليهاجموا نقطة غير متوقعة، ويضيف قائلا للجنرال جونار (الحاكم العام): "إنّ الحادث الأخير لواد نسلي يظهر لي أنّه نجاح كامل استعملت فيه الأسلحة الأكثر فعالية، جعلت بوعمامة مغتاظا، وأنّ كل محيطه لا يفكر سوى في شيء واحد هو الأخذ بالثأر. يجب تشديد المراقبة أكثر من أي وقت مضى، وانتظار هجمة في أي مكان، إنّ حدودنا واسعة (1200 كلم) تصعب مراقبتها".[320]

ويواصل ليوتي في رسائله إلى قادته العسكريين وزملائه وأخته، ذكر الأحداث في الجنوب الغربي وتحركات رجال بوعمامة وأخذهم للأسلحة القادمة من أكادير والمتجهة إلى تافيلالت، بعد أن أفرغتها باخرة ألمانية سنة 1906، وقد أخذ سكان تافيلالت نصيبهم منها، ويضيف: إنّني أشك في أنّ رجالا من الصبايحية يدفعون الزيارة لبوعمامة، وأنّ أولاد سيد الشيخ لم يتوقفوا عن ربط علاقتهم بالجهة الغربية -يقصد بوعمامة ومحيطه- لقد نفيتُ منذ وقت قريب شخصا من بلدة بوسمغون كان يقوم بدعاية مغرضة.[321]

د – سيد الطيب – احتلال وجدة – نهاية الشيخ بوعمامة:

ذكرنا سابقا أنّ السلطات المغربية كانت قد ألقت القبض على سي الطيب بن بوعمامة في وجدة، بعد أن انضم إليها في جويلية سنة 1905، بحجة

---

320 أنظر: -IBID, P :246.

321 أنظر: -IBID, P : 255.

أنّها مسكت مراسلة مشبوهة منه إلى والده، ثمّ أرسلته إلى حبس الدكاكين في فاس لمساومة والده، لكنّ هذا الأخير لم يزدد إلا عناداً، وحتّى عندما أرسلت إليه هدايا قام بإحراقها ومنع الجميع من الحصول على أي شيء منها.

وبعد أن تأكد سي الطيب من أنّ والده لن يخضع لمساومات القصر العلوي، اتصل بالسلطات الفرنسية عن طريق خاله أحمد بن المنور لإطلاق سراحه، وقيل بل إنّ الأمير عبد الملك بن الأمير عبد القادر هو الذي اتصل بممثل فرنسا بطنجة للغرض نفسه.

وهكذا وجه الوزير الفرنسي المقيم بطنجة، رسالة إلى وزير خارجية المغرب (ابن سليمان) يطلب منه نقل سي الطيب إلى طنجة حيث كانت تنتظره الباخرة. وهذا ما حدث، فقد نقل سيد الطيب في شهر جوان إلى الجزائر، ووضع تحت الإقامة الجبرية في مدينة الأغواط تحت ضمان الباشاغا الأخضر، وكان يرافقه ابن عمّه سيد الشيخ بن بوحفص.

ومن الجزائر راسل سيد الطيب والده ليبعث إليه بعائلته، لكن الشيخ رفض ذلك قطعا مما أدى إلى تفكير سي الطيب في الزواج، وهذا ما حدث، حيث تزوج في 7 فيفري 1907 من السيدة فرحوح بنت سي محمد بن سي مبروك بن عزوز المنتسب إلى الطريقة الرحمانية والمتواجد آنذاك بدائرة الأغواط.[322]

أمّا الشيخ بوعمامة فقد بقي على استقلاليته أمام الإغراءات الفرنسية والمغربية، وقد جاء هذا الموقف في إحدى رسائله سنة 1906 إلى ابن عمّه أحمد بن المنور موضحا بأنّه "لن يستسلم ما بقي حيا لا للفرنسيين ولا للسلطان

---

322 يُذكَر أن الشيخ بوعمامة أرسل ثلاثة مقدمين لزيارة ابنه سيد الطيب، سرا، تحت ستار التجارة، وقد ألقي القبض على أحد الثلاثة ، بوشاية من صديق، وهو والد الراوي، (قاسمي بوعمامة بن محمد، 87 سنة، من الكرارمة، فلاح وموال، بلدة المحررة ولاية البيض 1995.) والراوي مقدم الشيخية كوالده.

مولاي عبد العزيز، وبأنّه على أتم الاستعداد - إذا اضطرته الظروف- لأن يلتجئ إلى الجنوب من جديد بحثا عن الاستقلال والحرية".[323] وفي هذه السنة اشتد عليه المرض وأصبح يستعمل الكرسي في جلوسه لاستقبال الناس.

أمّا علاقته بـــ "الروقي" فقد انتابها فتور في بداية سنة 1325هـــ/ 1907م حسبما لاحظ ذلك المراقبون السياسيون من مغاربة وأجانب.[324] وقد أرسلت إليه السلطات الفرنسية في السنة نفسها (1907) بعثة من قوم مغنية بقيادة ضابط فرنسي سام تقترح عليه العفو التام والتفاوض معه حول المسائل المشتركة، وقد استقبل بوعمامة الوفد استقبالا حسنا لكنّه أعاده بدون جواب.[325]

في هذه الأثناء احتل الفرنسيون مدينة وجدة في 29 مارس 1907 تحت قيادة الجنرال ليوتي Lyautey قائد إقليم وهران في فترة الحاكم العام جونار، كما احتل الفرنسيون جبال بني يزناسن وسهول أنكاد، وقد تم هذا الاحتلال ردا على اغتيال الطبيب الفرنسي موشون Mauchamp في مراكش في 19 مارس 1907. والواقع أنّ مقتل الطبيب الفرنسي ما هو إلاّ ذريعة واهية، لأنّ فرنسا كانت تتطلع إلى احتلال المغرب لتدعيم ما استولت عليه من سواحل جزائرية ثمّ تونسية، إلاّ أنّ الظروف الدولية لم تسمح لها بذلك قبل هذا التاريخ. ومنذ بداية القرن العشرين بدأت فرنسا تشكك في سياسة المحافظة على الأمر القائم والتي اتّبعتها في القرن الماضي تجاه المملكة المغربية، وبدأت مختلف الأوساط الفرنسية تدعو إلى مد النفوذ الفرنسي إلى المغرب الأقصى "مؤكدة أنّ

---

323 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج: 2، ص: 40.

324 عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ص: 88.

325أنظر: -Noel A.H. Document... 1916, P : 143.

التغلغل في المملكة المغربية شيء ضروري وحيوي من أجل ضمان مصالح فرنسا ومواقعها في هذا الجزء من العالم".[326]

وقد بقي "الروقي/ بوحمارة" والشيخ "بوعمامة" على الحياد تجاه هذا التدخل الفرنسي، إلاّ أنّه، وحسب عبد الرحمن الأنصاري، يكون الشيخ بوعمامة قد كتب إلى الروقي يرجوه إعلان الجهاد، لكن الروقي يرفض.[327]

وعندما وجد الشيخ "بوعمامة" الأمر كذلك استدعى إلى زاويته، في 8 أبريل، قبائل سجعة وبني بوزقو الموالين للروقي وأوصاهم بالهدوء، أمّا السلطان المغربي مولاي عبد العزيز فقد حذر القبائل من القيام "بأي عمل ضدّ الجيش الفرنسي حيث يمكن أن يستغل ذلك لتبرير توسيع منطقة الاحتلال"، بل دعاهم إلى "حسن المصارفة مع الفرنسيين إلى أن تصفى الأمور معهم ويتم الجلاء عن المدينة.[328] وفي أواخر شهر جويلية سنة 1907 أطلق سراح سي الطيب الذي التحق بوالده في المغرب والموجود آنذاك في نواحي عيون سيدي ملوك. وكان الشيخ بوعمامة قد أصبح مسنا مريضا، يختلف الرواة في نوع مرضه، وقد زاره النقيب قوتيه جوان، رئيس المصالح الأهلية بالمركز الفرنسي ببركنت في شهر جوان سنة 1907، كما زاره طبيب فرنسي من المركز الصحي الفرنسي بطنجة، السيد فوبار في شهرجويلية سنة 1907.

---

326 أنظر: -Djamal guenane, Les relations Franco-Allemandes et les affaires Marocaines de 1901 à 1911, SNED, Alger 1975, P :41.

327أنظر: -Voinot L. L'agitation roguiste, B.T.S.G.A. d'Oran, juin 1912, P : 221.

328عكاشة برحاب، شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي.. ص: 371.

وفي السابع من شهر أكتوبر سنة 1908 توفي "الشيخ بوعمامة" في واد بورديم ونقل جثمانه إلى بلدة عيون سيدي ملوك حيث دفن فيها، وحيث له قبة ضخمة تزار إلى اليوم في وسط مقبرة كبيرة.

ويقال إنّ جثمان الشيخ بوعمامة قد نقل إلى مكان آخر خوفا عليه من نبش الفرنسيين لقبره، وتختلف الروايات في هذا الأمر، فهو إما نقل إلى فكيك ليدفن بجوار مزار سيد الشيخ، أو إلى بني ونيف بجوار قبة سيدي سليمان بن بوسماحة، أو إلى الأبيض سيد الشيخ، بل وربما حتّى إلى مغرار التحتاني، ويبقى السؤال مطروحا!

فأمّا الذين يقولون إنّه دفن في الأبيض سيد الشيخ فيستندون إلى قول بعض الرواة بأنّ حاملي الجثمان ساروا به ثمانية أيام ترافقهم زوجته لالّة ربيعة، وأنّ هذه الأخيرة بَنَتْ بجوار ضريحه، ديارا أصبحت زاوية يبيت فيها الزوار وطلبة القرآن (تسمى اليوم حوش لالّة ربيعة).[329] لكن كثيرا من الرواة يجمعون على أنّ لالّة ربيعة زارت المنطقة بعد موت الشيخ بمدة؛ أي في عامي 1910 أو 1912 وزارت بعض القبائل من أتباع الشيخية، وكانت تحصل أثناءها على العطايا والزيارات، فمن الأرجح أنّها بنت تلك الديار هذه المرة، إذ لا يمكن لها أن تأتي إلى المنطقة عند وفاة الشيخ سنة 1908 ثمّ تعود ثانية بعد سنتين أو أربع دون عذر قاهر، وذلك لبعد المسافة ومشاق السفر وخطر الفرنسيين وغير ذلك . لذا فإنّه من الأرجح أنّ مكان دفنه هو بلدة فكيك حيث عاش الشيخ فترة من طفولته، وحيث مزار سيد الشيخ وحيث يقيم الجزء الأكبر من أولاد بلحرمة فرع قبيلته التي ينتسب إليها، كما أنّ الكثير من الرواة القريبين منه بطريقة أو

329الزوي محمد الطيب، 54 سنة، مسير المدرسة القرآنية بالأبيض سيد الشيخ 1995.

بأخرى، يذكرون فكيك كمدفن له.[330] وبموته ماتت كل مقاومة لأولاد سيد الشيخ ضدّ الاحتلال الفرنسي.

وقد أوصى الشيخ أتباعه باتباع ابنه سيد الطيب كخليفة له في المشيخة، هذا الذي كان عليه ضمان سلامة أتباع والده، فغير الأسلوب الثوري الحربي الذي اتبعه والده، وانتقل إلى أسلوب مهادنة السلطة الفرنسية التي كانت قد احتلت بلدة بركنت سنة 1904 ووجدة بعد ذاك سنة 1907. أمّا عيون سيدي ملوك فلم تحتلها سوى سنة 1910؛ أي بعد سنتين من وفاة الشيخ "بوعمامة".

وأخيرا يمكن الوصول إلى النتيجة التي توصل إليها عبد الحميد زوزو وهي أهمية مقاومة الشيخ "بوعمامة" بالمقارنة مع غيرها من المقاومات الشعبية المسلحة: "ومن ثمة، كانت هذه الحركة بما تخللها من مفاوضات ومراسلات رسمية أقرب، من هذا الجانب، إلى حركتي الأمير عبد القادر وأحمد باي، منها إلى الحركات اللاحقة لهما".[331] هذا دون أن نغض الطرف عن "الحرْكات"

---

330 أشهرهم: -ريشاوي محمد بن العربي، 87 سنة، عموري، جنين بورزق 1995، والده غسّل الشيخ بوعمامة عند وفاته.

-الخلادي الطيب بن محمد، 76 سنة، من الزوا، بشار 1995، صهره مصطفى بالفقيه هو أيضا غسل الشيخ رفقة والد الراوي السابق.

-بوعامر ميمونة بنت عبد الرحمان، أكثر من قرن، شاهدة عيان لوفاة الشيخ بوعمامة، من أولاد سيد التاج، توفيت سنة 1996.

-بن زيان سعيد بن أحمد، 67 سنة، تاجر، من الزوا، بني ونيف 1995، جده محمد بن عبد الرحمان درّس الشيخ بوعمامة في بني ونيف قبل انتقاله إلى بلدة مغرار التحتاني.

-معاشو الطيب بن محمد، 89 سنة، عموري، بني ونيف 1995، والده هاجر مع الشيخ إلى المغرب وقد ولد هو(الراوي) وهم في طريقهم إلى شمال المغرب.

-عَلّة بلحاج، 74 سنة، قابض بريد متقاعد، عين الصفراء 1995، زار فكيك وأخبر بمكان دفن الشيخ بوعمامة، وهو داخل قبة سيد الشيخ-عبد القادر بن محمد.

331 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج : 2، ص: 41.

و"الزيوش" التي كانت تنطلق من مخيمه في المغرب الشرقي في اتجاه الحدود والأراضي الجزائرية، وفي أعماقها لإزعاج القوات الفرنسية من جهة، ومناوأة أعوان الاستعمار من القبائل الجزائرية المتخاذلة من جهة أخرى والتي استمرت حتى مطلع القرن العشرين.

جدول حول زاوية الشيخ بوعمامة سنة 1907:[332]

الفصائل القبلية	عدد الخيام	عدد الرجال	عدد النساء	عدد العبيد	عدد الإماء	عدد الأطفال
-أولاد سيدي بلحرمة	16	27	34	41	39	31
- الخُدام	67	82	22	-	-	10
-أولاد سيدي بن عيسى	08	10	09	-	-	02
-أولاد سيدي محمد	09	14	12	02	-	11
-أولاد سيد الحاج أحمد	13	21	13	-	-	8
-أولاد جرير	05	07	07	-	-	5
- الشعامبة	69	93	73	04	-	95
-أولاد سيد التاج	13	21	20	-	-	9
-العمور	35	157	131	01	-	89
المجموع	285	432	321	48	39	260

332 إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد.. ص: 254: عن وثائق القنصلية الفرنسية بوجدة.

ملاحظات عامـــة

قبل الانتهاء من هذا الفصل، لابدّ من الإشارة إلى عدة ملاحظات هامة هي كالتالي:

1) تنقسم مقاومة الشيخ "بوعمامة" -كما رأينا ذلك- إلى ثلاثة أقسام رئيسية تتميز كل منها بأوضاع وخصائص تختلف عن غيرها:

ففي المرحلة الأولى (1881-1882م) اشتد الكفاح المسلح وتعدد الصدام بين القوات الفرنسية والجزائرية مرارا في المنطقة الممتدة من جبال العمور شرقا إلى منطقة بشار وفكيك غربا، واستطاعت قوات المقاومة الجزائرية الوصول إلى منطقة سعيدة ومعسكر وتيارت شمالا، رغم الاستنفار الكبير للقوات الفرنسية.

وتتميز المرحلة الثانية (1883-1903م) بانسحاب الشيخ بقواته نحو بلدة فكيك المغربية ثم نحو منطقة دلدول بالجنوب الجزائري، وباستمرار المناوشات بين الطرفين، وبتبادل الرسائل بين الشيخ والسلطات الفرنسية والمغربية من جهة، إلى جانب مراسلاته لبعض الشخصيات والقبائل الجزائرية من جهة أخرى، كما عمل الشيخ "على ضمان الاتصال المستمر بمنطقة فجيج ومنطقة وجدة في الشمال إبقاء للروابط الروحية والتجارية بين الشمال والجنوب، وضمانا لطرق التموين والتزود بالسلاح والعتاد الحربي".[334] كما توسع نفوذ الحركة ليشمل القبائل الجزائرية والمغربية في الجنوب الكبير.

أما المرحلة الأخيرة (1904-1908م) فتتميز بانتقال الشيخ إلى منطقة وجدة شمال شرقي المغرب الأقصى، وبانضمام قواته إلى حركة الثائر الجيلالي الزرهوني ضد السلطان المغربي، وباستمرار المناوشات وإقامة الكمائن للقوات

---

334 عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج:2، ص: 16.

الفرنسية، ومهاجمة القبائل الخاضعة للنفوذ الفرنسي في المناطق الحدودية وفي الجهات الجنوبية التي كان الفرنسيون ينعتونها بـ "الجنوب الوهراني".

2) كان مرافقو الشيخ يجتمعون على شكل قبائل وبعض الأفراد المنضمين إليه فرادى. أما الجيش فيتكون من كل فرد قادر على حمل السلاح؛ أي أنّ أغلبية المحاربين كانوا يعيشون مع عائلاتهم وأملاكهم، ينتقلون بها حيث ارتحلوا.[335] فهي إذن زمالة متنقلة مثلما كانت لدى الأمير عبد القادر، يضاف إلى ذلك أملاك الزاوية وهي من هبات وهدايا الناس.

كان للشيخ حراس في المنطقة التي يستقر بها على مسافة عشرات الكيلومترات، ولكل دوار خيمة يعلّم فيها معلم (طالَب) القرآن ويؤم النّاس في الصلاة، كما كان الشيخ بوعمامة نفسه معلما للصغار وواعظا للكبار.

وكان للإبل دور كبير في الركوب وحمل الأثقال، وكان نوع "المهري" المدرب على السير الشديد والسرعة الكبيرة، هو المفضل للركوب والحرب ونقل المعلومات،[336] وأشهر من كان يعتمد على المهارَى هم قبائل الشعامبة لتواجدهم في منطقة صحراوية لا تساعد على معيشة الخيل. كما كانت تستعمل البغال والحمير لحمل الأثقال والركوب أيضا. أمّا الخيل فهي الوسيلة المفضلة في الحرب والسلم على السواء، تحمل على ظهورها فرسان الحرب وأصحاب الحاجة، وهي منتشرة في السهول المرتفعة وشمالي الصحراء حيث الفروسية العربية.

---

335 يقول الراوي حيدار بلحية بن سليمان، 61 سنة، بحدوبي، موال، عسلة 1995: "كانت زيوشْ مْرَحْلة، الزيْشْ شعي،والشعب شعب، بأولادهم، مْكَوْنة زيوش مع المْرَحْلة."

336يرى فريق من الباحثين أن الصحراء تحكمها حكومة ثلاثية، قوامها: البدو والإبل والنخيل. ويضيف بعضهم الرمل كحاكم رابع.

يقول أحد الشعراء الشعبيين المعاصرين من قصيدة حول مقاومة الشيخ:[337]

هذا البطْل زْعيمْ في غـــربْ الصحْرَا مــغــرارْ سكنْتَه ماهيشْ الغـــير

لا مـــواصـــــلاتْ وَلا سَــيــّـارَة مَنْ غَيْر السرْحان[338] عَنْدَهْ وَالبَعيرْ.

3) أما عن مداخيل الشيخ فقد كان "بوعمامة" شيخ زاوية قبل أن يكون زعيما حربيا، لذلك فإنّ الهبات والهدايا لم تنقطع عنه. فقد كان محبو ومريدو الطريقة الشيخية يقومون بزيارات سنوية إلى الشيخ حيثما كان للاستماع إليه وأخذ البركة ودعوات الخير منه، وكان هؤلاء الزوار يحملون معهم الهدايا و"الزيارات" المشتملة على مختلف أنواع الأغذية والمواد التي كانت تمثل جزءا من موارد زمالة الشيخ، إلى جانب ما كانت تملكه الزاوية والمحيطون بها من حيوانات ترعى وتمثل رأسمال النّاس وأداة للتبادل والحصول على موارد العيش المختلفة.

لم يكتف الشيخ في عيشه بما كانت تدره عليه مداخيل الزاوية من مال ومتاع، بل اعتمد على التجارة مع بعض التجار الفرنسيين الساكنين ببعض القرى الحدودية مثل التاجر Bournier "الذي كان يكتري إبله (إبل الشيخ) ويؤلف منها قوافل محملة بالبضائع ويرسلها تجوس خلال ديار الأعراب وخيامهم بالصحراء..."[339] كان يستفيد من هذه العلاقة سواء لتلقي المعلومات، أو لجعل هؤلاء التجار وسطاء بينه وبين السلطات الفرنسية، "كما كان يشجع أتباعه وأنصاره على الاستفادة من تلك التجارة لأنّها خير من كل فائدة ينالوها بالاستسلام للنصارى، والتعامل المباشر معهم في الأراضي التي

337قدوري الجيلالي بن محمد، 42 سنة، تاجي، مغرار التحتاني 1995، قال القصيدة سنة 1981.

338السرحاني: كلمة يستعملها رواة غزوات المسلمين الشعبية كصفة لحصان الإمام علي.

339عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ج:2، ص: 91.

يحتلونها من بلاد الإسلام".[340] وبذلك كان هذا النوع من التجارة عاملا مساعدا لإبقاء بعض أعوان الشيخ الذين كانت تسول لهم أنفسهم العودة إلى الديار، أوالانضمام إلى سلطات الاحتلال خوفا من الفاقة والعَوَزِ.

4) لقد ظل الشيخ طيلة فترة (1881 – 1908م)، وحتّى قبل ذلك، معاديا للسلطات الفرنسية، فلم يخضع لها و لم يدخل تحت سلطتها رغم ما قاساه في أحيان كثيرة من تشرد ونقص في المؤونة وبعد عن الأهل والأوطان. لقد استعمل مختلف الطرق الدبلوماسية لاستغلال الظروف المناسبة، ورغم صدور وثيقة الأمان سنة 1899 من قبل الحاكم العام الفرنسي واتصالات الفرنسيين به قبل هذا التاريخ ودعوته للقدوم إلى الأراضي التي يسيطرون عليها والتمتع بالأمن والأمان، إلاّ أنّ الشيخ ظل على طبيعته الراغبة في التحرر من أية وصاية أو سلطة مهما كانت. لقد صرح للمحيطين به الذين دعوه للتوقف عن معاداة فرنسا بقوله: "والله لن أقبل الخضوع لأية سلطة، سواء كانت فرنسية أو غيرها. سأعيش حرا وأموت حرا. أعيش مسلما وأموت مسلما، ولن يتحكم في أمري أحد (لا رومي ولا مسلم)، وإذا حصل أن سمعتم صوت البارود في قبري، فتأكدوا أنّني في حرب مع فرنسا".[341]

لقد تميزت فترة (1881–1908م) باشتداد العداوة بين الشيخ ومن ورائه أتباعه ومحبوه وبين السلطات الفرنسية، وإذا كانت حرب المواجهة قد توقفت فإنّ حرب الكر والفر لم تتوقف سواء ضدّ السلطات الاستعمارية أو ضدّ أعوانها من مختلف القبائل. وكان الشيخ وراء كل تلك الهجمات والكمائن

---

340 نفسه، ص: 92.

341 رواية بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم، 47 سنة، شيخ زاوية بني مطهر بالمغرب ، مقابلة مع مولاي محمد باحث ومدير ثانوية بتلمسان سنة 1974.

المقامة ضد جيش الاحتلال في المناطق الحدودية مع المغرب أو في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر (الجنوب الوهراني) حتّى مطلع القرن العشرين.

5) كان لهذه المقاومة صدى جهويا وعالميا واسعا، فقد كتبت عنها جريدة التايمز اللندنية التي لقبت الشيخ بعبد القادر الثاني، وكتبت تقول: "إنه لم يحدث قبل بوعمامة وأنّ زعيما ثائرا يستولي على ثلاثمائة أسير فرنسي وألف غرارة من الشعير والقمح وغيرها من الغنائم المتنوعة".[342] كما كتبت عنها جريدة البرهان المصرية الصادرة بالإسكندرية التي نوهت بخصال الشيخ وبمكانته الحسنة بين رفقائه في مواجهة العدو الفرنسي،[343] إلى جانب صحف أوروبية أخرى(إسبانية وإيطالية).

أمّا الصحافة العثمانية فقد اهتمت هي أيضا بما كان يجري في الجزائر، خاصة وأنّ الدولة العثمانية كانت تمثل الخلافة الإسلامية التي كانت تشرئب إليها أعناق المسلمين من أجل التحرر من ربق العبودية والاستعمار. وقد نقلت صحيفة "صدى وهران"Echo D'oran ما جاء في جريدة (ترجماني حقيقات) تحت عنوان "بيان سياسي" للعالم الإسلامي تبين فيه الصحيفة دور الإسلام في وحدة المسلمين، وتدعو إلى مواجهة الاستعمار الأوربي، ثمّ تنتقل إلى القول: "إنّ الجزائريين المسلمين لا يعرفون النوم ولا الراحة، إنّهم يعانون من الإسترقاق المخجل ومن الفضائح والتخريب، لقد التجئوا إلى الصحراء حيث يدافعون اليوم، والسلاح بأيديهم، عن شرفهم وأملاكهم وعن عقيدتهم ووطنهم في مواجهة الفرنسيين".[344]

---

342 أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص: 656. عن صحيفة التايمز في 11-5-1881. ص: 5.

343 عبد الحميد زوزو، ج2، ص:41. عن جريدة البرهان الصادرة بالإسكندرية بتاريخ 14-8-1881.

344 أنظر: -Echo d'Oran N° 4816 du 3 décembre 1881, sous le titre : « le manifeste musulman. »

كل هذا يدل على الصدى الذي أحدثته مقاومة سنة 1881 في الأوساط الإسلامية والأوربية، لِما كانت لها من قوة ومكانة، في وقت كانت الدعوة إلى النهضة الإسلامية تنتشر في البلدان الإسلامية مشرقا ومغربا تدعو المسلمين إلى الوحدة والتضامن للوقوف في وجه الاستعمار الأوروبي.

6) أما عن موقف الطرق الصوفية من حركة الشيخ بوعمامة فيتضح في موقفين: موقف شعبي وموقف رسمي. أما الموقف الشعبي فيتمثل في انضمام العديد من أتباع الطرق الصوفية المختلفة إلى المقاومة المسلحة مساهمة منهم في الجهاد ولا شيء غير ذلك، وأما الموقف الرسمي فهو إما محايد أو معاد، ذلك أن التنافس كان قائما بين مختلف الطرق الصوفية طلبا للسيادة والزعامة في الأوساط الشعبية، وقد انعكس ذلك الصراع على العامة الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم ويتفاخرون بشيوخهم، فيقع التعصب ويفسد الجو الاجتماعي، وكان هذا الصنيع كثيرا ما يؤدي إلى وقوع خصومات بين أشياع هذه الزاوية أو تلك، أو بين أنصار هذا الشيخ أو ذاك، كل يزعم أن البركة في صاحبه أكثر، وأن طريقته الصوفية هي المثلى.[345]

من ذلك موقف الطريقة التيجانية التي استدعى الحاكم العام "ألبير قريفي" زعيمها سيدي أحمد عمار إلى العاصمة لقضاء أيام في الجزائر، ومن هناك كاتب سيدي أحمد إخوان الطريقة في الغرب الجزائري يطلب انسحاب من انضم منهم إلى المقاومة المذكورة.[346] ويتضح من هذا الحدث مدى الاستجابة الشعبية للجهاد من جهة، وبُعد بعض الزعماء عن طموحات الشعب الحقيقية من جهة أخرى.

---

345 عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص: 39.

346 أنظر: -Louis rinn, Marabout ey khouan, adolphe jourdan, libraire éditeur, Alger 1884, P : 433.

وعندما استقر الشيخ في دلدول، توطدت علاقته بالحركة السنوسية التي كان يمثلها ولد باجودة مقدم الطريقة بعين صالح. ويرى حمزة بوبكر أن الشيخ بوعمامة وجد القبول نفسه والترحاب من قبل أتباع ومقدمي الطريقة الطيبية التي كانت متواجدة بقوة في توات وقورارة، ومن قبل الطريقة الكرزازية التي كان يتواجد مركزها في بلدة بني عباس.[347] إلا أن الحكومة الفرنسية أوعزت إلى وزيرها بطنجة (أورديكا) سنة 1881 ليعمل ما استطاع للحصول على دعم شيوخ الطرق في الجنوب، وكان الشريف عبد السلام الوزاني واحدا من أهم الشخصيات التي أرسلها هذا الوزير، فاتصل بسي محمد العربي الدرقاوي شيخ الزاوية الدرقاوية بتافيلالت والصحراء، وبسي سليمان بن قدور الذي كان متواجدا هناك في ملجإه، "وكانت فرنسا تهدف من مشرو ع سي سليمان والدرقاوي إلى إخضاع قبائل الجنوب المغربي وضرب ثورة بوعمامة واحتلال الصحراء".[348]

كما وقفت الطريقة الرحمانية، المعروفة بمناهضتها للاستعمار، موقفا معارضا لحركة الشيخ بوعمامة، حيث راسل محمد بن بلقاسم الحملاوي زعيم الطريقة بوسط البلاد في 10 ماي 1881 أتباعه للإبتعاد عن بوعمامة "الذي لا عقل له"، وأذاعت السلطات الفرنسية هذه الرسالة على نطاق واسع لإبراز موقف الرحمانية من بوعمامة، ولتهدئة أتباعها الذين كانت خواطرهم ثائرة، كما عبر عن ذلك رئيس دائرة البرواقية.[349]

---

347 أنظر: -Si hamza boubakeur, Origine de la guerre..

348 أحمد العماري، مشكلة الحدود الشرقية... ج:2، ص: 651.

349عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، ج:1، ص: 51 إلى 53. ويذكر أبو القاسم سعد الله في كتابه: تاريخ الجزائر الثقافي، ج:4، أن شيخ الزاوية الكرزازية عرض سنة 1881، ص: 89 "وهو أحمد بن الكبير بوحجاجة إعادة بعض الهاربين إليه من ثورة بوعمامة."

7) تتميز مقاومة الشيخ "بوعمامة" بطول مدّتها منذ اندلاعها سنة 1881 إلى وفاة زعيمها سنة 1908 بالمغرب الأقصى. لقد حارب الشيخ بوعمامة الاستعمار الفرنسي أول الأمر حرب مواجهة، وعندما لم يوفق بسبب قوة خصمه عددا وعدة، لجأ إلى ما يسمى في العصر الحاضر بحرب العصابات، والذي كان يعرف عند العرب "بحرب الكر والفر". ثمّ لجأ أخيرا إلى الصحراء بعيدا عن السلطات الفرنسية، ثمّ هاجر إلى المغرب الأقصى، حيث لم يجد الصدر الرحب من قبل السلطات المغربية التي كانت تخضع للتهديدات الفرنسية، فعاش حربا أخرى ضدّ هذه السلطة بعد أن وقف إلى جانب "الروقي" وهو يظنه صاحب التاج الحقيقي، فحارب إلى جانبه السلطة المخزنية لتعاونها مع الأجانب في عهد السلطان عبد العزيز.

ونحن اليوم لا يجب أن نحاسبه بمقياس عصرنا، فنعتبر وقوفه مع الروقي المعارض للسلطة المغربية تدخلا في شؤون المغرب الداخلية، وإنّما نحاسبه بمقياس ذلك العصر.

لقد اعتبر الشيخ "بوعمامة" محاربة السلطان المغربي الذي يتعاون مع الأجانب ويخضع لضغوطاتهم، أمرا واجبا على كل مسلم. لقد كان العيش في الأراضي الجزائرية أو المغربية سيان. فالبلاد عربية إسلامية، وقبائل البلدين لا تختلف عن بعضها البعض وخاصة القبائل الحدودية التي كانت ممتزجة بالمصاهرة والمعاملة الجوارية، لقد كان الاختلاط كاملا والحياة مشتركة بين الجميع.

كما اعتبر الشيخ أنّ حربه للسلطان لا تختلف عن حربه لأعوان فرنسا في الجزائر. لقد عاش أولاد سيد الشيخ في المغرب وفي الجزائر دون أية عقدة، فحيثما حلوا كانت القبائل تستقبلهم وتحتضن قضيتهم.

إنّ وجود الشيخ "بوعمامة" بالمغرب أجبره على اتخاذ موقف محدد تجاه النزاع الحاصل بين مولاي عبد العزيز والمدّعي مولاي امحمد. لذلك اختار

الوقوف مع صاحب الحق -كما ظنّه وظنّ معه المغاربة الذين وقفوا مع الروقي أو مولاي امحمد كما سمّى نفسه- فمما لاشك فيه "أنّ مشاركته في فتنة بوحمارة ناتجة عن جهل محض بأصل وهوية ومقاصد هذا الرجل، لأنّه في رسالة بتاريخ 19 ماي 1904 إلى حاكم دائرة مغنية أبلغه أنّ امحمد بن الحسن أحق بالملك من أخيه عبد العزيز، وأنّ على السلطات الفرنسية أن تلتزم سياسة الحياد إزاء الصراع الدائر بينهما.[350]

8) قامت السلطات الفرنسية بمعاقبة كل من ثبت لديها تعاونه مع الشيخ بوعمامة، من قريب أو بعيد، وهكذا فقد نفت قبائل العمور من منطقة عين الصفراء الحدودية إلى منطقة آفلو نحو الداخل -كما ذكرنا سابقا- وفرضت الإقامة الجبرية على أولاد سيد الناصر بمنطقة (ياط) قرب سوقر بولاية تيارت. وكلّفت الناصر بن بغداد كنائب عنهم بالامتثال يوميا أمام السلطات الفرنسية لتسجيل الحضور العام.[351]

كما قامت بنفي أو سجن كثير من الأفراد المتعاونين مع الشيخ، وقد تمثلت مناطق النفي في بوشبكة والبرواقية وتَعْظمت في الجزائر، وسان مارغريت بفرنسا. ونقلت بعض أعيان القبائل إلى جزيرة كاليدونيا، منهم اثنى عشر رجلا من أولاد سيد الناصر لم يعد منهم سوى المختار بن منصور سنة 1894 بعد أن مكث هناك 13 سنة.[352] ونفت أشخاصا آخرين من قبائل حميان إلى منطقة

---

350 إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وحدة وأنكاد.. ج:1، ص: 230.

351ناصر مجاهد، دور سكان جبال العمور عامة وأولاد سيد الناصر خاصة في المقاومة الشعبية، مداخلة في ملتقى "أولاد سيد الناصر، تاريخ وأحداث"، المنعقد في بلدة الحاج المشري بولاية الأغواط، جوان 1998.

352 المرجع نفسه.

خنشلة وهم "مقدمون وفقهاء" رفقة المخازنية،[353] ونفت قايد أولاد سيد الحاج بن عامر إلى جزيرة سان مارغريت لمشاركته في المقاومة،[354] ونفت القايد الهادف من سفيسيفة بمنطقة عين الصفراء إلى آفلو بعد أن وشي به أعوان الفرنسيين بتهمة التعاون مع الشيخ بوعمامة.[355] وتم نفي ابن يعقوب من قرية الزوبية (الواد الأخضر حاليا) جنوبي عين الصفراء إلى بلدة سفيسيفة بسبب مراسلة له مع الشيخ بوعمامة تم اكتشافها.[356] وكان ابن يعقوب هذا فقيها، يقول عنه الراوي: "كانْ عالَم مَن الموهوب والمكسوب".

كما فرضت السلطات الفرنسية غرامات على القبائل المتعاونة مع الشيخ بوعمامة، والتي كانت تقدر أحيانا بقيمة ربع المحصول الزراعي أو من الماشية، بالإضافة إلى الضريبة العادية، انتقاما منهم لخروجهم عن طاعة فرنسا سنة 1881م. وفي مناطق الشعامبة ألقى الفرنسيون القبض بمتليلي على رجلين بتهمة التعاون مع بوعمامة وتم سجنهما بغرداية ثم نفيا إلى باتنة مع عائلتيهما لمدة أربع سنوات، وسجن آخرون في غرداية لعدد من الشهور بالتهمة نفسها.[357]

353حسب تصريح أبناء المنفيين للباحث الصحفي محمد بالحي، بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لمقاومة الشيخ بوعمامة (الجزائر الأحداث الصادرة باللغة الفرنسية، ماي 1981)، والرواة هم: -عمراني خيرة، 97 سنة، شاهدة عيان. -ليتيم أحمد، 83 سنة. -براني الطيب، 71 سنة. -كلهم من مشرية.

354 أنظر: -Kiva P. En Algérie(souvenir), extrait de la revue militaire universelle, henri charles lavauzelle éditeur militaire, Paris 1894. P : 37.

355 رواية مباتة مولاي بلقاسم، 100 سنة، إمام متقاعد، بلدة سفيسيفة، جوان 1999.

356 الراوي نفسه وآخرون من البلدة نفسها.

357 جاء في إحدى المخطوطات أن الرجلين الأولين هما: مولاي إبراهيم وقدور بن عمار. وأما الطائفة الثانية فمنهم: موسى المقبص. مخطوطة حصلنا عليها من: بْحَيْصَة علي بن الطيب، 63 سنة، مجاهد، من شعامبة متليلي، الملتقى الوطني الأول لمقاومة الشيخ بوعمامة، الجزائر، أوت 1999.

واضطرت بعض القبائل المتعاطفة مع المقاومة إلى الهجرة إلى حيث يتواجد الشيخ في الجنوب أو في المغرب الأقصى أو نحو تافيلالت في الجنوب الغربي.، حيث كانت الزاوية ملجأ لكل فار من السلطات الفرنسية.

ونتيجة لكل ما سبق، خلت بعض المناطق من سكانها في الجنوب الغربي، وشعرت السلطات الفرنسية بذلك فحاولت أن تستقدم أناسا من الشمال، ثمّ تراجعت عن ذلك وعَفَتْ عن بعض القبائل ومنها قبائل العمور، وذلك لحاجتها إلى "الأهالي" سواء للعمل عن طريق السخرة أو لمدها بالمؤونة أو بغرض التجنيد في الفرق الخاصة بالأهالي لمساعدتها على تنفيذ خططها في الاحتلال ومد خطوط السكك الحديدية نحو الجنوب.

9) حاول الشيخ بوعمامة أن يعطي لحركته بعدا تنظيميا حتى يساير عصره، وبخاصة في تعامله مع السلطات الفرنسية، وذلك حسب الإمكانيات المتاحة له آنذاك.

وهكذا جعل لمراسلاته طابعا رسميا باستعمال الخاتم، الذي كان يذيل به رسائله الموجهة إلى مختلف الجهات. وتختلف الكتابة على صفحة الخاتم من حين لآخر، فهو يكتب حينا عبارة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم." على محيط الخاتم، ويكتب أحيانا على المحيط نفسه ما يلي: " أبي عمامة خلق الله الحقير الذليل". وهو يكتب أحيانا أخرى عبارة: "المقام العالي بوعمامة بن العربي البوشيخي" على كامل وجه الخاتم...والموضوع مجال للدراسة والتعليق لمن أراد ذلك من الباحثين.

كما استحدث الشيخ رخص مرور كان يسلمها لرجاله في تنقلاتهم في الأراضي التي يسيطر عليها الفرنسيون، كهوية انتماء للشخص الحامل لها لحركة الشيخ، والرخصة تتضمن اسم الشخص الحامل للرخصة واسم الوجهة التي يقصدها وعليها خاتم الشيخ وتاريخ الصدور. إلا أن السلطات الفرنسية لم تكن

تعترف بهذه الرخصة، بل كانت تنزعها من حاملها ثم تعيده من حيث أتى، في الوقت الذي كانت السلطات العسكرية الفرنسية في أقاليم الجنوب تفرض على السكان الجزائريين الذين كانت تسميهم بـ "الأهالي" حمل رخص مرور عند تنقلاتهم وتقديمها للسلطات العسكرية التي يمرون بها للتأشير عليها، ومن لم يفعل ذلك عرض للعقاب.

أما رسائله فهي متعددة، وجهها إلى السلطات الفرنسية والمغربية أو إلى بعض الأفراد والقبائل الجزائرية والمغربية التي كانت له معها مصالح، أو رغبة منه في كسب المزيد من الأعوان. وهي في غالبها مكتوبة بيد أعوانه ومساعديه، لذلك فهي تحمل في نهايتها عبارة: "عن إذن أبي عمامة خلق الله" أو: "والسلام من أبي عمامة بن الحرمة أمنه الله آمين." وقد كتب في إحداها ما يلي: " أبي عمامة خلق الله خط يديه أعلا (كذا) هذا والسلام."

وحاول أن يكون له تمثيل دبلوماسي لدى السلطتين المغربية والفرنسية فعين الدكتور زيناريس سنة 1895 للإهتمام بأتباعه وتمثيله لديهما، كما كلف ابن عمه أحمد بن المنور بالوساطة بينه وبين الفرنسيين في مطلع القرن العشرين.

هكذا أدى الشيخ بوعمامة دوره في قيادة الجماهير الشعبية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقاد جنود الكفاح المسلح، وخاض معارك عِدّة، قدم فيها الشعبُ الأرواح والمتاع بطيب خاطر، وذاق المآسي من بطش الاستعمار وظلمه، وأجبر الناس على الهجرة والغربة عن الأوطان بعد أن أدوا واجب الجهاد. وزَرَع الشيخ في أتباعه حب الوطن والدين، وجدّد فيهم حب الله وعبادته على أوراد الشيخية وياقوتتها. ولم يستسلم لخصمه ولم يقبل بالأمان الذي منح له، وفضل النفي على الخضوع لسلطة كافر ظالم ملتجئا إلى بلد شقيق، واستقر بين إخوانه وذويه إلى أن وافاه الأجل في أفضل شهر عند المسلمين وهو شهر رمضان من سنة 1326هـ الموافق لشهر أكتوبر من سنة 1908م.

الخــاتـــمـــة

لقد هيمنت السلطة الاستعمارية على الجزائر وأدمجتها ضمن منظومتها الرأسمالية وآليات اقتصادياتها، ولكن مكونات الجزائر لم تكن مؤسسة بالإيقاع التاريخي نفسه، فلم تسايره، إذ لم تكن قد استكملت تطورها بالسيرورة نفسها. كما أن سلطات الاحتلال لم يكن من أهدافها خدمة البلاد، بل كانت تسعى للإستيلاء على مقدراتها واستغلالها لخدمة بلدها.

وقد حمل رجال المقاومة والحركة الوطنية في العهد الاستعماري لواء الكفاح باعتبارهم ورثة تاريخ الجزائر في نهوضه وسقوطه، دفاعا عن النفس وردا لفعل التدمير والإبادة (إعدام الوجود التاريخي للجزائر)، وارتبط كل ذلك بضرورة الحفاظ على الأنا وصيانة مقومات الهوية.

وبعد الاستقلال، انكب الرعيل الأول من مؤرخي الجزائر على نفض الغبار عن تاريخهم، وظهرت كتابات تاريخية في الكتب والصحف، وتدعمت تلك الكتابات بظهور معاهد للتاريخ في مختلف الجامعات الوطنية، جعلت من بين أولوياتها الإنكباب على دراسة مختلف مراحل التاريخ الجزائري بالتنقيب والبحث والدراسة والنشر.

وتعددت الكتابات مؤخرا عن المقاومة الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، لما تكتسيه حقبة القرن التاسع عشر والقرن العشرين من أهمية بالغة في مضمار وضوح المعطيات وتراكمها، والوجود النسبي للوثائق المؤرخة لها.

وقد دأبت جهات عديدة، منذ الاستقلال، للتكفل والبحث في تراث بلادنا الرسمي منه والشعبي على السواء، والذي كُتب سابقا بأقلام غير وطنية، حيث صار لِزَمَن حكرا على عسكريي ومؤرخي الدولة المستعمِرة. وأصبح لزاما على

الأجيال الحاضرة أن تكتب تاريخها بأيديها للأجيال اللاحقة ولكل من يهوى الإطلاع على تاريخ الجزائر من خارج حدودها.

إن الشيخ بوعمامة هو واحد من أولئك الرجال الذين واجهوا الاستعمار بالأسلوب نفسه الذي واجههم به، ولم يهادنه أو يتعاون معه، لأنه كان صادق النية شجاعا في الحق، لا همه نفسه بقدر ما همه المباديء التي آمن بها، والتي دافع عنها إلى آخر رمق من حياته.

قال عنه البعض: إنه عبد القادر الثاني، وأقول إنه عبد القادر الآخر، إن أوجه التشابه لأكثر من أوجه الإختلاف، فكلاهما زعيم أثبت ذلك في ميدان المعارك، وكلاهما صوفي معتدل يأخذ بالتي هي أحسن، ويبقى الفارق بينهما هو الإختلاف في المستوى العلمي، فعبد القادر عاش في منطقة مستنيرة قريبة الإتصال بمراكز العلم والمعرفة، وبوعمامة عاش في منطقة معزولة تتمسك بمآثرها وتحتضنها خوفا من ضياعها في محيط بدوي متعصب. وأخيرا فإن عبد القادر يعتمد على علم مكتوب، أما بوعمامة فيعتمد على علم موهوب.

لقد استند زعماء المقاومات الشعبية، وهم من زعماء الطرق الصوفية في الوقت نفسه، في القرن التاسع عشر، على إثارة الهمم وشحذ العزائم لدى الناس بالإستناد على الدين الاسلامي، فوجدوا الطاعة والاستجابة، ولكن قوة العدو المادية كانت لهم بالمرصاد، إلى أن اندلعت الثورة التحريرية الكبرى التي لم تحِد عن السند الديني، واعتمدت على القوة أيضا استنادا إلى قوله تعالى: "وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة..." فكان النصر وكان الاستقلال.

إن ما يميز هذا الكتاب أنه يعطي بعدا أوسع ومجالا فسيحا لمقاومة الشيخ بوعمامة خلال ثلاث مراحل، كان الشيخ فيها صامدا صابرا يذب عن دينه ووطنه بالوسائل المناسبة المتاحة، ويقود أتباعه قيادة حكيم عرف كيف يثبت

على مبدإه، ويواصل مسيرته بين أطراف عديدة تناوئه، إلى أن وافته المنية سنة 1908 بالمغرب الأقصى.

ويبقى المجال مفتوح لمثل هذه الدراسات المتعلقة برجال المقاومة الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وللحركات التي تزعموها ودافعوا بواسطتها عن البلد المظلوم وعن الحق المهضوم. مما يخلق جوا علميا نشيطا وهادفا؛ لأنه ميدان خام وخصب، اعتمادا على المصادر المكتوبة والشفوية على حد سواء.

المصادر والمراجع:

أولاً المخطوطات:

أ- باللغـــة العربية

1-عبد الحاكم بن الطيب بن بوعمامة، مخطوطة عن الطريقة الشيخية العمامية مؤرخة في 4 رمضان سنة 1373هـ، أمدنا بها الباحث مولاي محمد الذي حصل عليها من زاوية عين بني مطهر بالمغرب الأقصى سنة 1974.

2-محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي، انتحار المغرب بيد ثواره، مذكرات مخطوطة بالخزانة الوطنية للوثائق بالرباط،، 111 صفحة، تحت رقم: ح/123.

ب- باللغة الفرنسية

*-**Empéranger,** Etude sur les causes, les effets et les conséquences de l'insurrection de 1881, cercle de Tiaret, le 1er Janvier 1883, archives de la wilaya d'Oran N° 4465.

*-Dans l'extrème sud oranais, un poste dans le bled, en escorte de convoi au sahara, manuscrit d'un officier anonyme, Paris 1900-1901, 151 pages. Archives de la wilaya d'Oran, cote N°182.

ثانيا: المراجع المطبوعة:

أ – باللغة العربية:

-أبو القاسم سعد الله:

*الحركة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

*أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

-أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار الكتاب ودار المعارف، البليدة، الجزائر، 1963.

-أحمد حمروش: حروب العصابات، دار الكاتب العربي، القاهرة 1967.

-أحمد مزيان: فكيك، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر، مطبعة فجر السعادة ، المغرب، 1988.

-إسماعيل العربي: *الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

-إسماعيل بن عودة المزاري (الآغا): طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.

-إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1985.

-جلال يحي: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت 1981.

-جورج غيرستر: الصحراء الكبرى أرض الغد المشرق للجزائر العربية، تعريب خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1961.

-**حمدان بن عثمان خوجة**: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ش و ن ت، الجزائر 1982.

-**دنيس بيلي**: معالم لتاريخ ورقلة، (1872-1992)، ترجمة علي إيدر، مطبعة هيوركوم 1995.

- **روم لاندو**: تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت 1981.

-**شارل روبير أجيرون**: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

- **شارل هنري تشرشل**: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر 1982.

-**عبد الحميد زوزو**:

*ثورة بوعمامة 1881-1908، ش و ن ت، جزءان، الجزائر 1981 و1983.

*نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830- 1900) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.

-**عبد الرحمن الجيلالي**: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت 1980.

-**عبد العزيز شرف**: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1971.

-**عبد الله شريط ومحمد الميلي**: مختصر تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

-**عبد الملك مرتاض**: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.

-**عبد الوهاب بن منصور:** أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط 1979.

- **عدي الهواري:** الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت 1983.

-**العربي هلالي:** فكيك تاريخ وثائق ومعالم، طبع على نفقة المؤلف بالمطابع المغربية والدولية، طنجة 1981.

-**عفت محمد الشرقاوي:** أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، بدون تأريخ.

-**عكاشة برحاب:** شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي 1873-1907، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1989.

-**علال الخديمي:** التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894-1910، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991.

-**فرانز فانون:** من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، ش و ن ت، الجزائر 1980.

-**فرحات عباس:** الثورة الجزائرية أو ليل الاستعمار، ترجمة وليم خوري، دار الكتب الوطنية، دمشق 1964.

-**كارل بروكلمان:** تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين وفارس منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1968.

-**كلود ليفي ستروس:** الإناسة البنيانية، ترجمة حسن قبيسي، القسم الثاني، مركز الإنماء العربي، بيروت 1990.

-**محمد الطيب العلوي:** مظاهر المقاومة الجزائرية، دار البعث، بدون تاريخ.

-**محمد العربي الزبيري:**

*مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، ش و ن ت، الجزائر 1972.

*مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ش و ن ت، الجزائر 1981.

-**محمد المنوفي:** مظاهر نهضة المغرب الحديث، مطبعة المتوسط، بيروت 1985.

-**محمد بن الأمير عبد القادر:** تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903.

- **محمد قنديل البقلي:** التعريف بمصطلحات صبح الأعشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983.

-**مصطفى الأشرف:** الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

-**نيوبرغ:** الإنتفاضة المسلحة، ترجمة الهيثم الأيوبي، دار الطليعة، بيروت 1971.

-**يحي بوعزيز:** ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980.

ب –المراجع باللغة الفرنسية:

-**Augustin Bernard et N. Lacroix** : la pénétration saharienne : 1830-1906, imprimerie algérienne , Alger 1906.

-**Bénoist méchin**, Lyautey l'africain, claire fontaine, lausanne 1966.

-**Bernard Lugan** : Histoire du Maroc, presses de l'imprimerie camping Tournay, Belgique, 1992.

-**Bezy le citoyen**, insurrection du sud oranais, publié par le citoyen bezy, oran collet 1884.

-**Charles André Julien** : Histoire de l'Algérie contemporaine, presses universitaires de France - paris 1964.

-**Charles Richard** : Au gouvernement arabe et de l'institution qui doit l'exercer, Alger 1848.

- **Charles Robert Ageron** :

* les Algériens musulmans et la France – Imprimerie Tardé Bourges – France 1968.

* Histoire de l'Algérie contemporaine T:2 presses universitaires de France. Paris 1979.

-**Claude martin**, histoire de l'Algérie française 1830-1962, éditions des 4 fils aymon, Paris 1963.

-**De la martinière A.H.M. et Lacroix N.** Document pour servir à l'étude du nord ouest africain, gouvernement général de l'Algérie, A. Jourdan, Alger 1897.

-**Djamal guenane,** Les relations Franco-Allemandes et les affaires Marocaines de 1901 à 1911, SNED, Alger 1975.

-**Djillali sari,** L'insurrection de 1881-1882, SNED, Alger 1981.

-**Graule (E)** : Insurrection de Bouamama, Henri Charles lavauzelle, Editeur militaire. Paris 1905.

-**Guillaume,** Conquête du sud oranais : la colonne d'igli en 1900, Edition militaire, Paris - sans date.

-**Henri Garrot** : Histoire générale de l'Algérie. Imprimerie P. Crescenzo – Alger 1910.

-**Hubert Beschamps** : les méthodes et doctrines coloniales de la France, paris 1953.

- **Jean Charles Humbert** : La découverte du Sahara en 1900-l'harmattan Paris Montréal 1996.

-**Jean-Jacques jordi,** Espagnol en oranie –histoire d'une migration 1830-1962- éditions jacques gandini, NICE 1999.

-**Juan BTA . Vilar,** Los espagnoles en la Argelia Francesa (1830-1962), Centro de estudios historicos –Universidad de Murcia 1989.

-**Kiva (p)** : En Algérie (Souvernirs) : Extrait de la revue militaire. Henri Charles lavauzelle. Edition militaire, Paris 1894.

-**Louis Rinn** : Marabout et Khouan, Adolphe Jourdan, librairie éditeur, Alger 1884.

-**Lyautey** :Vers le Maroc, Lettres du sud oranais (1903-1906), librairie Armand colin, paris 1937.

-**Maurice Antoine Bernard** : Les chemins de fer algériens, Adolphe Jourdan éditeur, Alger 1913.

-**Michel carronges**, Charles de foucauld, édition du cerf, Paris 1954.

- **Neuilly et Laroussi Amri** : les femmes soufies ou la passion de Dieu – Edition d'angles de braye – France – 1992.

-**Paul Azan** : Conquète et pacification de l'Algérie, presses de l'imprimerie villain et Bar, paris 1931.

-**René Pinon** : L'empire de la Méditerranée, librairie académique, Paris 1912.

-**Si Hamza Boubakeur** : Un soufi algérien : sidi cheikh : sa vie, son ouvre, son rôle historique, ses descendants (Oulad sidi-cheikh), Edition maisonneuve et larose, Paris 1990.

-**Trumelet (c)** : Les Français dans le Désert: Challanel Aîné éditeur, Paris 1886.

-**Yves La Coste, A.Noushi et A.prenant** : L'Algérie passé et présent, édition sociale, Paris 1960.

ثالثا: المقالات والمحاضرات:

أ – باللغة العربية:

-بوعلام بسايح:

*الجزائر: الاحتلال والمقاومة 1830-1954، مجلة الثقافة، العدد:84، سبتمبر-أكتوبر 1984.

*مقاومة بوعمامة من طوماسان إلى ليوتي، مقال مطبوع بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الأول لمقاومة الشيخ بوعمامة، الجزائر، 14 و15 أوت 1999.

-**بوعمران الشيخ**: الأسقف لافيجري والنشاط التبشيري (1867-1892)، مقال بصحيفة الشروق الثقافي الأسبوعية، العدد: 44، 16 ماي 1994.

- **زكي مبارك**: المجاهد بوعمامة من خلال بعض المصادر التاريخية المغربية المعاصرة، مجلة الثقافة (الجزائر)، العدد: 83: سبتمبر- أكتوبر 1984.

-**عبد الجليل التميمي**: ملامح التفكير التبشيري عند المسؤولين الفرنسيين، محاضرة مطبوعة في كتاب عن ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بتيزي وزو عام 1973.

-**مصطفى الأشرف**: ثلاث مراحل وثلاثة مجرمي حرب، صحيفة الخبر ليوم 7 ماي 1996، ترجمة عن صحيفة أحداث الصادرة باللغة الفرنسية.

-**ناصر مجاهد**: دور سكان جبال العمور عامة وأولاد سيد الناصر خاصة في المقاومة الشعبية، مداخلة مطبوعة في ملتقى "أولاد سيد الناصر تاريخ وأحداث." المنعقد في بلدة الحاج المشري بولاية الأغواط، جوان 1998.

Articles :   ب – باللغة الفرنسية (المقالات)

-**Albert F**. Oulad djerir, bulletin trimestriel de la societé de géographie et d'archeologie d'Oran, octobre/decembre 1905.

-**Bajolle (capitaine)**, la question saharienne, conférence de garnison, bull.trim. soc. Géog. Arch. D'oran 1891.

-**Cavard(capitaine)**, Le ksar de béni ounif, bull. trim. Soc. Géog. Arch. D'oran, oct/dec 1905.

-**Charles Robert Ageron** : l'échec d'une nouvelle France, in nouvel observateur collection. Dossier N° 9. Paris 1992.

- **Cour (A)** : Notes sur la région de Berguent . in Bull. Trim . Soc. Géo. Arch. D'Oran. Mars 1909.

- **Duvaux** (capitaine) : Zouzfana, Guir, Saoura. In Bull . Trim. Soc. Géo. Arch. D'Oran. Janv. à mars 1902.

- **Duveyrier (H)** : la confrérie religieuse de sidi essenoussi et son extension_géographique. in l'Afrique par L. larnier, librairie classique Eugène Berlin, paris 1887.

-**Gaquière**, Berguent (ras-el-ain) 1904-1906, bull. trim. Soc. Géog. Arch. D'oran 1913.

- **Gendre (F)** : La région des ksour du sud oranais. in Revue Tunisienne N°16, de 1909.

- **Louis Rinn** : Nos frontières sahaniennes. in Revue africaine N°30 anée 1886 . O P U, Alger 1985.

- **Noël (A.H)** : Document pour servir à l'histoire des hamyan et de la région qu ils occupent actuellement – in Bull. Trim . Soc. Géo. Arch d' Oran 1916.

-**Rouine L**. Le sud ouest oranais et le touat, bull. trim. Soc. Géog. Arch. D'oran 1891.

-**Si hamza boubakeur**, Origines de la guerre du sud oranais 1864-1900, revue d'histoire maghrébine N° 6, Tunis, juillet 1976.

- **Simon (H)** : Revue des questions sahariennes. in Revue africaine N : 46, 1905.

-**Trumelet ©:** Notes pour sévir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d 'Alger de 1864 à 1869, in Revue Africaine de 1876 à 1883.

-**Voinot L**. *L'agitation roguiste, bull. trim. Soc. Géog. Arch. D'oran 1912.

*Les conséquences de la lutte du makhzen et du roguie à proximité de la frontière algérienne (1903-1905), bull. trim. Soc. Géog. Arch. D'oran 1934.

-**Wachi P. (Lieut. colonel):** Notes, itinéraires et souvenirs pour servir à l'histoire de la province d'Oran: l'insurrection de Bouamama 1881 – 1882. revue Tunisienne 1901-1902.

رابعا: الرسائل الجامعية:

أ – باللغة العربية:

-**أحمد العماري:** مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830 إلى حوالي 1902، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا(ماجستير) في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1981.

-**بلحرمة بوعمامة:** ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة، مذكرة لنيل الإجازة (ليسانس) في الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 1990/1989.

خامسا: المصادر والمراجع الصحفية

أ– باللغة العربية:

*جريدة الشعب ليوم 19 ماي 1981.

ب–باللغة الفرنسية :

-Echo d'Oran : 1881-1882.

-Le réveil de Mascara : 1881-1882.

-Le petit fanal (oranais) : 1881-1882.

-Algérie actualité N° 813 du 14 au 20 mai 1981.

-Et N° 814 du 21 au 27 mai 1981.

سادسا: المصادر والمراجع الشفوية

- أبو بَكْر **محمد** بن مولاي أحمد المعصوم، 68 سنة، إمام متقاعد، وكيل ضريح سيدي بومدين، تلمسان 1995. ت 2002.

- **بْحيْصَة علي** بن الطيب، 63 سنة، مجاهد، من شعامبة متليلي، الملتقى الوطني الأول لمقاومة الشيخ بوعمامة، الجزائر، أوت 1999.

-**بن زيان سعيد** بن أحمد، 67 سنة، تاجر ببني ونيف 1995.

- **بن طالب عبد القادر** بن بوسماحة، 34 سنة، موظف، جنين بورزق 1995.

-**بوشيخي بوعمامة بن أحمد**، 65 سنة، من الزوا، تاجر بالسخونة ولاية سعيدة، عسلة 1995.

-**بوعامر ميمونة بنت عبد الرحمن**، أكثر من قرن، شاهدة عيان اوفاة الشيخ بوعمامة، من أولاد سيد التاج، عين الصفراء 1995، ت 1996.

-**بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم**، 72 سنة، شيخ الطريقة الشيخية بعين بني مطهر، المغرب الأقصى 1999.

-**حسني عبد القادر بن أحمد بن مولى عبد العالي**، 63 سنة، فلاح، أولاد عبو بدلدول 1995.

-**حيدار بلحية** ولد سليمان، 61 سنة، من أولاد سيدي أحمد المجدوب، موال، عسلة 1995.

-**خديمي بميلود** بن محمد بن العابد، 81سنة، من أولاد عبد الله، عين الصفراء 1995.

-**الخلادي الطيب ولد محمد**، 76 سنة، من الزوا، بشار 1996.

- **دقيوس الشيخ** بن الأمين بن السهول، 54 سنة، عامل، فندي 1996.

-**دويس أحمد ولد عيسى**، 81 سنة، قطيي عموري، عين الصفراء 1995. ت 2001.

-**رقيق حسن** بن محمد، 61 سنة، من أولاد سيد الشيخ، متقاعد، وهران 1995، ت 2001.

-**ريشاوي محمد** بن العربي، 87 سنة، ممرض متقاعد، من العمور، جنين بورزق 1995، ت 1998.

-**الزّوي محمد الطيب** بن المختار، 54 سنة، مسير مدرسة قرآنية، الأبيض سيد الشيخ 1995.

- **سليماني أحمد** بن محمد، 75 سنة، فلاح، أولاد عبو بدلدول 1995.

-**عبد الحق بلحسين**، 62 سنة، من أولاد جرير، تاجر ببشار 1995.

-**عبد العالي محمد بن أحمد**، 95 سنة، قطيبي عموري، عين الصفراء 1995. ت 2003.

-**علّة بلحاج**، 74 سنة، قابض بريد متقاعد، عين الصفراء 1995. ت 2006.

-**غزالي حسين** بن محمد بن الطالب عبد الكريم، 65 سنة، فلاح، أولاد عبو بدلدول 1995.

-**قاسمي بوعمامة بن محمد**، 87 سنة، من الكرارمة، فلاح موال، المحررة البيَّض 1995. ت 1997. ت 2003

-**قديدير بوعمامة** بن الشيخ بن محمد، 87 سنة، موال، سنداني حمياني، تاجرونة (المشرية) 1997.

- **مباتة مولاي بلقاسم**، 100 سنة، إمام متقاعد، سفيسيفة 1999. ت 2003.

- **محمدي محمد** بن أحمد، 75 سنة، فلاح، أولاد عبو بدلدول 1995.

-**مزراق الشيخ بن محمد**، 70 سنة، عموري، فندي 1995.

-**معاشو الطيب بن محمد**، 89 سنة، عموري، بني ونيف 1995. ت 2007

الملاحق

أهمية حركة القوافل في الفترة من 1875 إلى 1900 بين منطقة جبال القصور شمالا ومناطق توات وقورارة وتاديكالت جنوبا:[358]

السنوات	عدد الإبل	ملاحظات
1876-1875	5.793	كشف لإحصائيات متواجدة بمراكز تكوين القوافل: (عين الصفراء- مشرية- البيض)
1877-1876	9.352	
1879-1878	9.540	
1881-1880	7.425	
1884-1883	3.159	
1886-1885	9.691	
1887-1886	13.875	
1888-1887	1.131	
1889-1888	9.846	
1890-1889	13.524	
1891-1890	13.585	
1893-1892	13.881	
1894-1893	8.820	
1895-1894	15.789	
1897-1896	4.000	كشف للقوافل المتجهة إلى توات (قورارة وتاديكالت مستبعدة)
1898-1897	2.500	
1899-1898	6.500	
1900-1899	4.500	

358 أنظر: -Les territoires du sud de l'Algérie, gouvernement général de l'Algérie, 2em partie, l'œuvre accomplit, imprimerie algérienne, Alger 1929, P :396.

رسالة من جماعة التوارق إلى بوعمامة [1] (جويلية 1888م)

الحمد لله وحده   والصلاة والسلام على رسول الله

الى من اكرمه الكبير وشانه جميل [illegible] وابانا في الجنة [illegible] وهو الكريم
شيخ زمانه ذكره الله عليه في الدنيا والآخرة جزاه [illegible] الله [illegible]
الله يكثر رزقكم ويفعله جماعة وكرم النبي صلى الله عليه والسلام الا العفو
الرباني [illegible] من العرب في [illegible] عليك وطلنا كتابك وفهمنا
ما فيه وان اليوم [illegible] الينا [illegible] ما قدرنا [illegible]
او الذي الذي عند الروم وان [illegible] الينا [illegible] مال اهل
وان القوم اهل نعيسة في [illegible] التي كنت فيها واليوم الا [illegible]
الينا وانا لكذلك انعلمك باخاه وما [illegible] اهل نعيسة
والسلام عليك ورحمة الله وبركاته جميع [illegible]
بن [illegible] وجماعة التوارق كلهم وان اليوم ما عندنا الا ما عندك وزاده
[illegible] الا زاد عند [illegible] من [illegible] عند الله [illegible]
محمد بن [illegible] اعلمك به والسلام عليك [illegible]
[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) عبد الحميد زوزو- ثورة بوعمامة... ج: 02- ص: 69

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

سلسلة الولي الصالح الشيخ بوعمامة تغمده الله برحمته

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما أما بعد هذه
سلسلة الولي الصالح القطب الناصح الشيخ أبي عمامة ابن العربي ابن الشيخ
ابن الحرمة ابن محمد ابن ابراهيم ابن التاج ابن عبد القادر ابن محمد ابن سليمان
ابن أبي سماحة ابن أبي ليلة ابن عيسى ابن أبي يحيى ابن امعمر ابن سليمان
(الملقب ابن العالية) ابن سعيد ابن عقيل ابن جفص (الملقب سرسة اد...)

ابن عساكر ابن زيد ابن حميد ابن عيسى ابن الشاذلي ابن محمد الملقب الشلبابي)
ابن عيسى ابن زيد ابن يزيد ابن الطفيل المدعو الزغاوي بن صفوان ابن محمد
ابن عبد الرحمن ابن سيدنا أبي بكر الصديق ابن ابي قحافة عثمان ابن عامر
ابن عمر ابن كعب ابن أسعد ابن تيم ابن مرة وهو يجمع الأنسال بين
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه صاحب رسول
الله صلى الله عليه وسلم المعني بقوله تعالى: ثاني اثنين إذ هما في الغار
إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

توفي الشيخ المذكور يوم الثاني عشر في رمضان سنة 1326 هجرية

شجرة نسب الشيخ بوعمامة يحملها بعض حفدته

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد

[illegible]

وصية الشيخ بوعمامة التي كتبها في 15 شعبان وتوفي 10 رمضان 1326 هـ.

(عن حفيد الشيخ: محمد بن أحمد بن بوعمامة «عين الصفراء»).

+ OFLSH?AN [illegible] 37 8 4 40 [illegible] + POSTE A SECTEUR [illegible]
TERRITOIRE SE[illegible]A ANGE[illegible] EGARICHA + AFFAIRES INDIGENES [illegible] BRU[illegible]
AU MARO[illegible] QUE NR 43 KK 66 KK 91 02 76

"Bouamama est mort hier soir"

برقية تعلن عن وفاة الشيخ بو عمامة: AMA est mort hier soir "

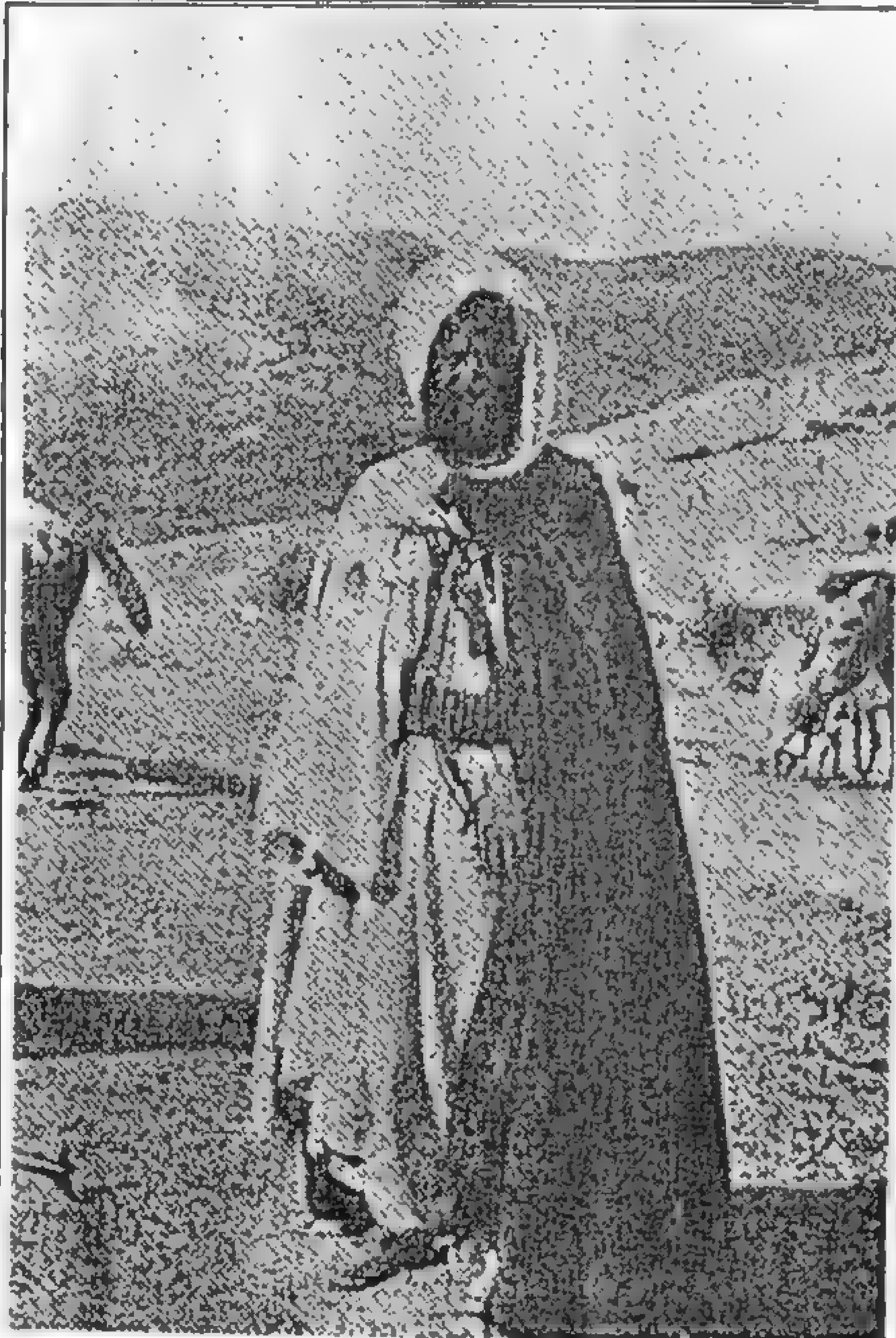
الصور المنسوبة للشيخ بوعمامة:

الصورة1-: موجودة في الكتاب المدرسي للسنة السادسة أساسي. وهي في الحقيقة لخادمه المدعو: "النَّقْلَة".



الشيخ بوعمامة -1-

الصورة 2-: نشرتها المجلة الفرنسية l'illustration في ص: 291 من عددها الصادر يوم 31 أكتوبر 1903. ونشرها المؤرخ المغربي عبد الوهاب بن منصور في الجزء الأول من كتابه: "أعلام المغرب العربي" ص: 321. وقد تفطن هذا الأخير إلى أن الصورة ليست لبوعمامة بل هي لأحد أبناء عمه (ص: 72 من الجزء الثاني من نفس الكتاب).



- 2 -

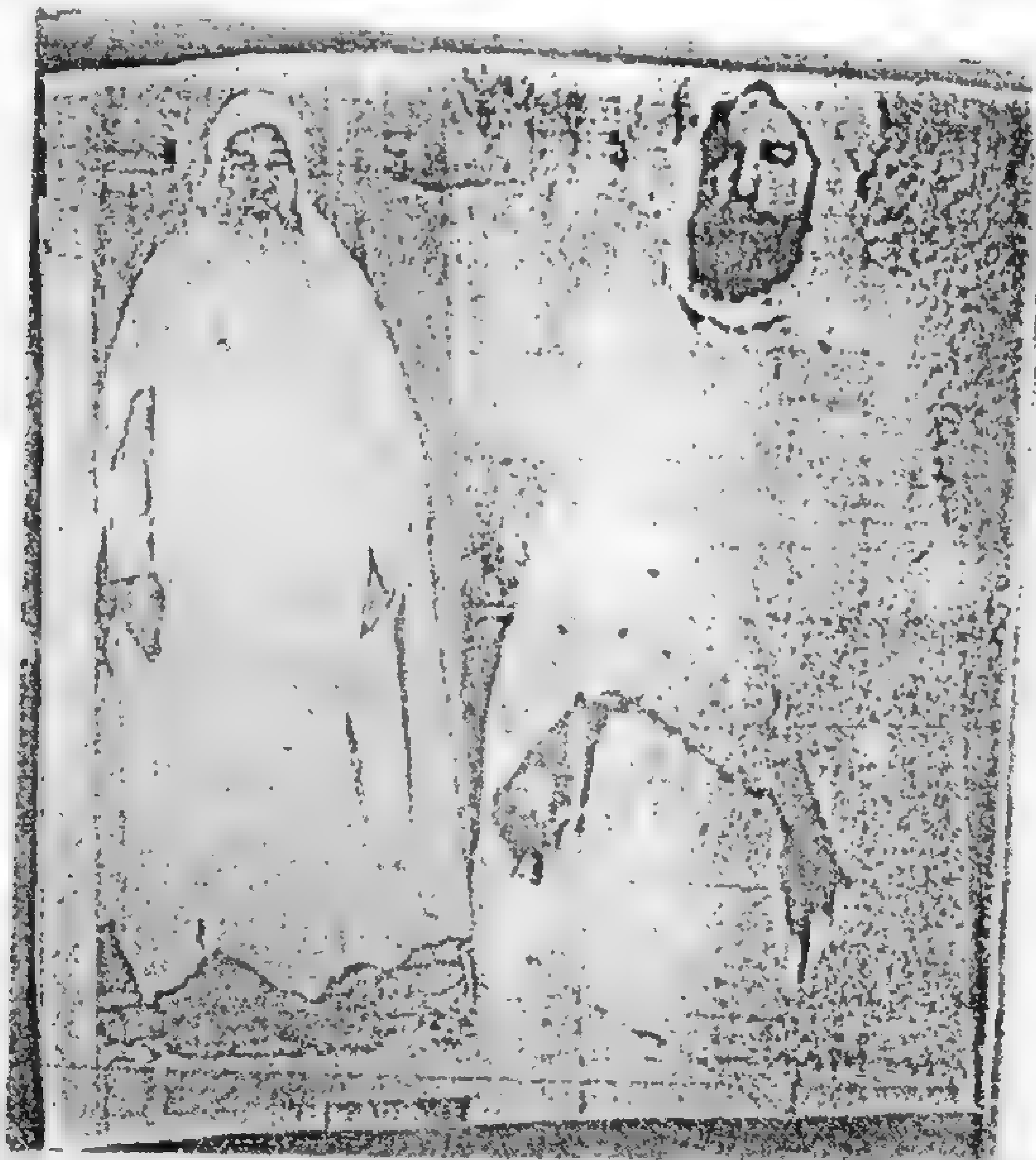


الصورة 3): حصلنا عليها من دربال السايسي ولد حمزة، 77 سنة من المشرية في 1995/10/23 والتي سلّمها له المقدّم معمر الشبوكي، صديق والده، وهو من عرش الرزاينة والمتوفّى ببلدة المشرية، ويقال أن الرسم لأحد أسرى الشيخ من الإسبان.



<u>الصورة العليا</u>: سي الطيب بن بوعمامة الابن الأكبر للشيخ وخليفته على الطريقة أخذت له الصورة أثناء اعتقاله بالأغواط سنة 1906 أو 1907 توفي سنة 1935 بعين بني مطهر بالمغرب الأقصى

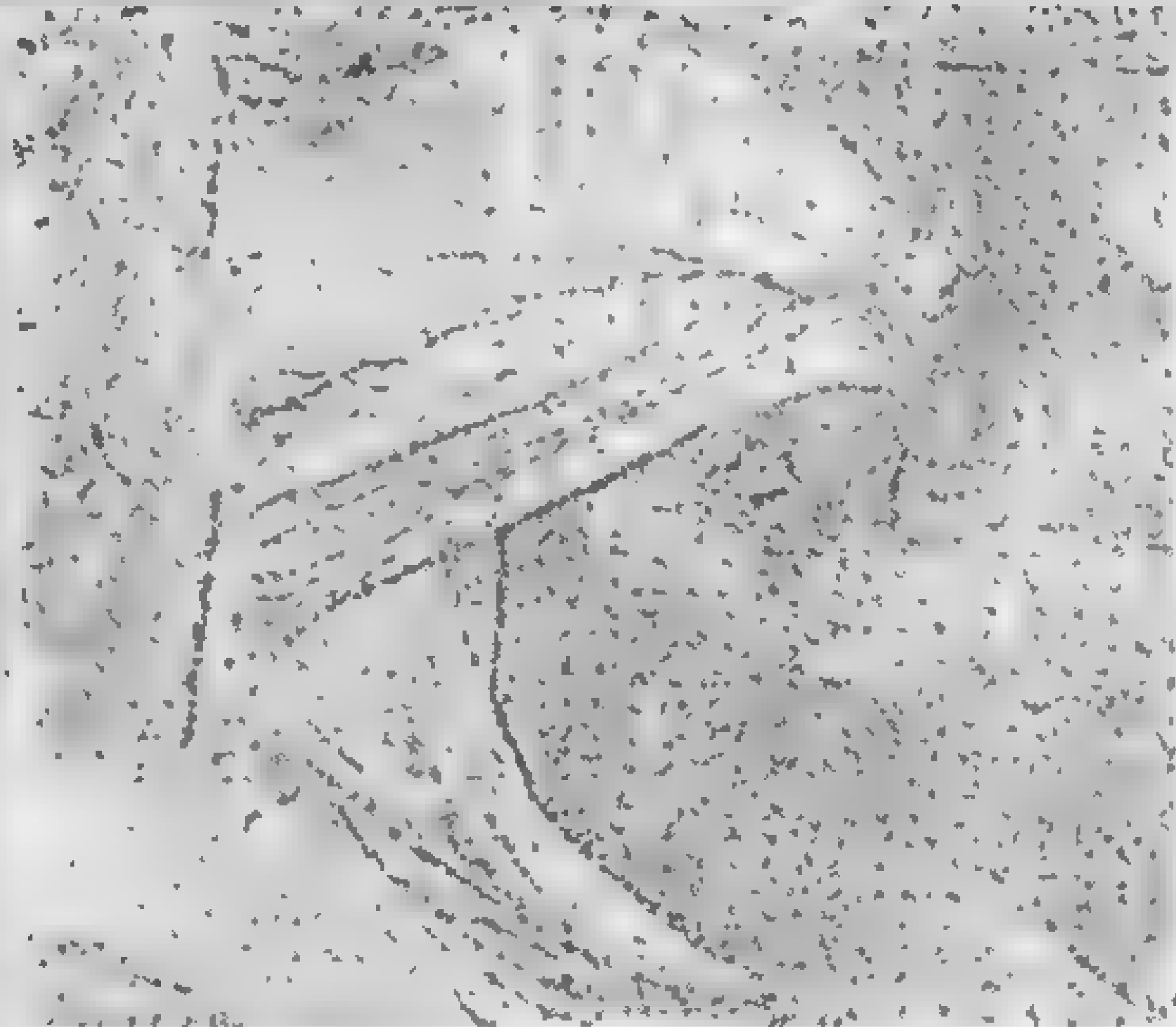
<u>الصورة السفلى</u>: على اليمين سي الطيب مقيد اليدين في السلاسل.
وعلى اليسار سي أحمد الابن الأصغر للشيخ والذي دخل الجزائر سنة 1962 الأوسط وأسس زاوية عين الصفراء وتوفي سنة 1973 بنفس البلدة.



شهود عيان:



بوعلاق سلمان: شاهد عيان
1995-10-21
بالمه ارنه الصحابه



قراحي سالم (117 سنة) سنة 1981

خاتم الشيخ بوعمامة -عن جريدة الشعب 19-5-1981



الزناتي العيد وبيده سبحة الشيخ بوعمامة -أوت 1995-
يقول إنه حضر وشارك في مقاومة الشيخ بوعمامة.

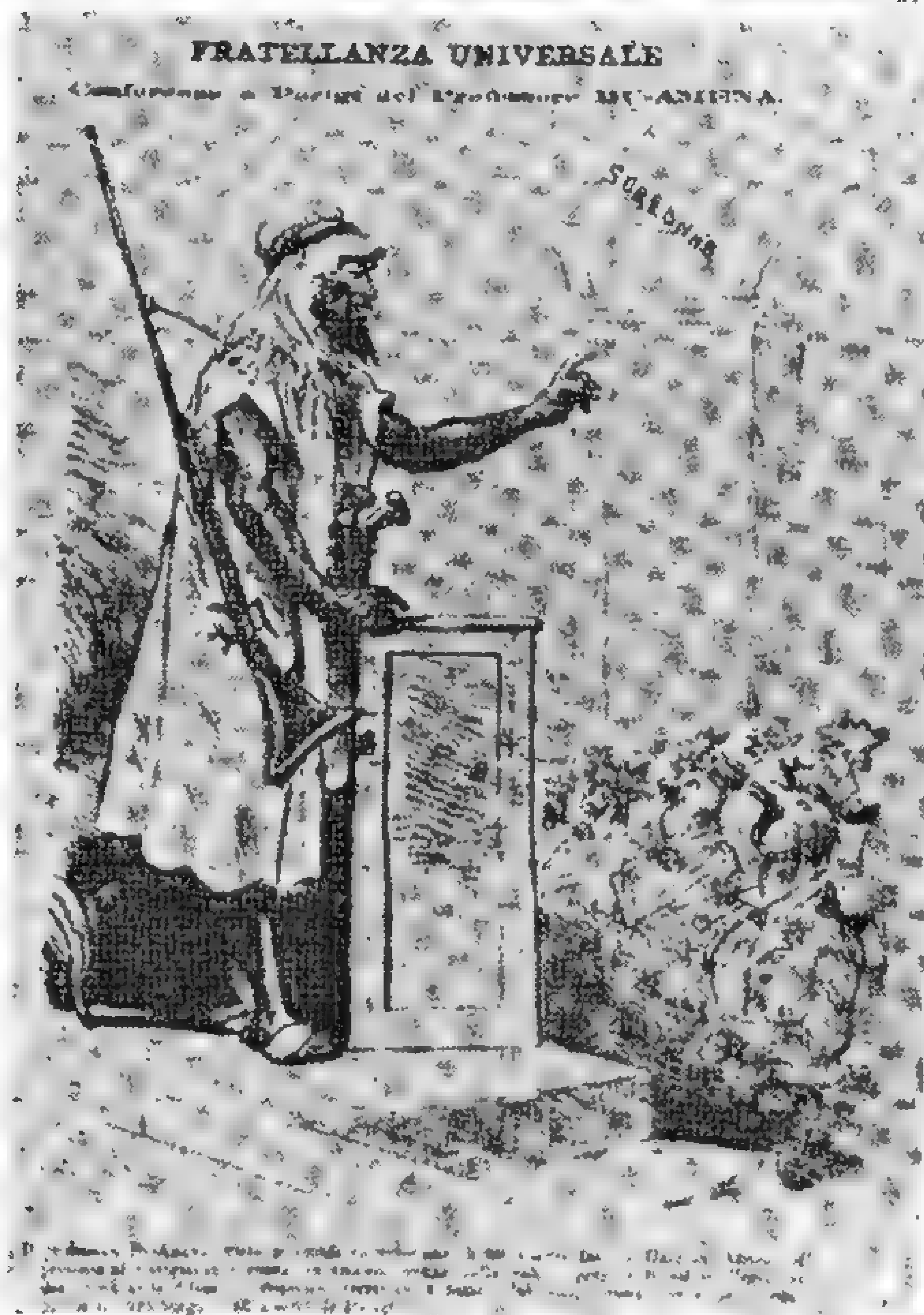


Photo caricature de Bou'Amama

صورة كاريكاتورية للشيخ بوعمامة -بريشة صحفي إيطالي- وهو يحاضر في السوربون أمام الضباط الفرنسيين حول موضوع: "الأخوة الشاملة والبطولات الشعبية." (1)

---

(1) عن: -Djillali Sari, l'insurrection... P: 02.



ضريح الشيخ بوعمامة بعيون سيدي ملوك (العيون) بنواحي وجدة.



صورة المكان الذي امتطى فيه الشيخ بوعمامة جواده معلنا قيام الكفاح المسلح. وفي داخل الصورة ميدان سباق الخيل المستعمل خلال المواسم، بمغرار التحتاني -قلعة الشيخ بوعمامة-.



سيدي معمر بن سليمان العالية (جد العائلة البوبكرية بأربة)

- 1995 -



قبة سيد الشيخ بالأبيض سيد الشيخ، من الجهة الجنوبية (1995).



أحـد أبراج قلعة الشيخ بو عمامة (مغرار التحتاني).



جنان سيدي بوعمامة بقلعة الشيخ بوعمامة.

الفهارس

فهـــرس الأعـــلام:

- أ -

359هو أيضا بوحمارة والروقي ومولاي احمد. وهو ابن ادريس.

- ط -

- ع -

– ف –

– ق –

– ك –

– ل –

– م –

–ووشي: 95–142–143

–ويسني: 21

– ي –

–يوسف :40

فهــــرس الأمـــاكـــن والبلدان:

- أ -

- ب -

- ت -

- ز -

- س -

– ن –

– هـ –

- و -

- ي -

فهرس الشعوب والقبائل

- أ -

- ب -

- ج -

- ح -

-خ-

-د-

-ر-

-ز-

-س-

الفهرس العام

Achevé d'imprimer sur les presses de

l'OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES

1, Place Centrale - Ben-Aknoun - ALGER